مكتبة
t.me/soramnqraa

شتيفان فايدنر

غراوند زيرو

الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وولادة الحاضر

ترجمة
أحمد فاروق

منشورات الجمل

شتيفان فايدنر:

غراوند زيرو

الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وولادة الحاضر

شتيفان فايدنر

مكتبة
t.me/soramnqraa

غراوند زيرو

الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وولادة الحاضر

ترجمة

أحمد فاروق

منشورات الجمل

مكتبة
t.me/soramnqraa

شتيفان فايدنر: غراوند زيرو: الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وولادة الحاضر

ترجمة: **أحمد فاروق**

Stefan Weidner: Ground Zero: 9/11 und die Geburt der Gegenwart

© 2021 Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG, München

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ٢٠٢٢

منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٣١١١
الإمارات العربية المتحدة

© Al-Kamel Verlag 2022

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

عندما كتبت «غراوند زيرو» خلال عامي ٢٠١٩ و٢٠٢٠، كان من الممكن بوضوح استشراف تطورات خطيرة تركت بصمتها على العالم منذ ذاك الوقت. تفاوض دونالد ترامب مع طالبان بشأن الانسحاب من أفغانستان. وبدأ تفشي وباء كورونا وأدى لردود أفعال ذكرتني بـ «الحرب على الإرهاب»: إغلاق الحدود، والذعر المبالغ فيه، والخطابة الحربية، والسياسيون الذين يستغلون الموقف لصالحهم. في نهاية المطاف كان لافتا تنامي انشغال الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها منذ تولي ترامب. ويمكن تفسير ذلك على الوجهين: على نحو إيجابي، لأن دور الولايات المتحدة الأمريكية في العالمة اتسم بالهيمنة والإمبريالية، كان إذن إشكالياً للغاية. ولكن من وجهة النظر الأوروبية يمكن النظر للانسحاب الأمريكي أيضاً على نحو سلبي، لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت منذ الحرب العالمية الأولى ضامناً للأمن (الغربي على الأقل) ولأن تأثير الولايات المتحدة لم يبد سلبياً لمعظم الأوروبيين (على النقيض من بقية العالم).

لقد كتبت هذا الكتاب لأشير إلى أن العالم لا يزال يعاني حتى الآن من عقلية «الحرب على الإرهاب» والسياسة الأمريكية والغربية الكارثية بهذا الخصوص وتأثيراتها. يعرف العرب ذلك، لكن التكتم على ذلك هو أمر مستساغ في أوروبا وأمريكا. لكن عندما يتكتم المرء على الماضي

وخصوصاً على أخطائه، لا يمكنه التعلم منها. بل يستمر فيها ويكررها. تبحث عقلية «الحرب على الإرهاب» عن عدو، أو تخلق عدواً، إن لم تجد واحداً. وهذا العدو يعد هو الشر المطلق. إذن لا يمكن التواصل معه لحلول توافقية، أو الإذعان له، ولا أن يكون مرناً، بل يجب أن يفنيه بأي ثمن. لكن يندر أن يكون ذلك ممكناً. ولذا يستمر الصراع للأبد ويتسع نطاقه لدوائر أكثر فأكثر، ولا تعود ثمة حياة عادية من بعد. ولقد رأينا في أزمة كورونا، كيف يمكن استخدام هذه العقلية، ليس في مواجهة البشر وإنما أيضاً في مواجهة الفيروس. بالطبع هناك آراء مختلفة حول كيفية التعامل مع الفيروس، لكن إفناءه أمر صعب تماماً، مثله مثل الإرهاب ذي الأسباب المتعددة.

عندما انسحبت الولايات المتحدة الأمريكية من أفغانستان في عهد بايدن، لم يكن ذلك مفاجئاً. لقد ذكرت ذلك في هذا الكتاب: لقد خسرت الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الحرب أمام طالبان. بقي فقط السؤال بشأن توقيت معرفة العالم كله بهذا الأمر. والوقت المطلوب لعودة طالبان إلى الحكم، وكيفية وصولها للحكم: من خلال توافق مع الحكومة السابقة، أو بالحرب أو بالانتخابات.

وفي النهاية جرت الأمور على نحو أسرع بكثير مما توقعه الجميع: الأمريكيون والأفغان وطالبان نفسها. استولت طالبان على البلاد بأكملها، دون اشتباكات كبيرة. وهرب الأمريكيون وحلفاؤهم على عجل من البلاد، في ذعر وبجبن. لم يخلفوا وراءهم أسلحتهم فحسب، وإنما تركوا أصدقاء ومساعدين لهم من الأفغان. لقد كانت أكبر هزيمة في التاريخ الأمريكي وأكبر هزيمة للسياسة الغربية. أزالت طالبان عن الولايات المتحدة الأمريكية بريقها السحري، كأقوى دولة في العالم. «إنكم مقاتلون أشداء للغاية» هذا ما قاله دونالد ترامب بتقدير في محادثة هاتفية مع الملا برادر، أحد زعماء طالبان، في عام ٢٠٢٠. للأسف

قررت الولايات المتحدة بعد الانسحاب، ترك الأفغان لمصيرهم مع طالبان. وهذا خطأ كبير. والأموال الأفغانية التي لا تزال في البنوك الأمريكية، لن تُدفع إلاّ جزئياً، إن دُفعت أساساً. من أصل ثمانية مليارات يورو، من المفترض أن يُدفع النصف فقط، أما النصف الباقي، فسيُدفع لذوي ضحايا هجمات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ الإرهابية. لكن هذا هو منطق السرقة. إذ أنه لم يشارك أفغاني واحد في هجمات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، لا بشكل مباشر ولا في التنظيم. لماذا يُحمل أفقر بلد في العالم مسؤولية ذلك ويدفع الثمن؟ لا تزال الرؤية الإمبريالية للعالم سائدة في الولايات المتحدة الأمريكية: الاعتقاد بأنه بإمكان واشنطن أن تفعل ما تشاء.

تذكر الهزيمة في أفغانستان بالانسحاب السوفيتي منها عام ١٩٨٩. بعدها بقليل انهار الاتحاد السوفيتي. هل تنهار إمبراطورية الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة القادمة؟ إنه أمر ممكن، وهذه مشكلة من وجهة النظر لألمانية والأوروبية: فعالمنا سيصبح عندئذ أقل أماناً. إننا نرى هذا الآن في النزاع في أوكرانيا. ومجرد تطور الأمور لهذا الحد هو دليل على ضعف الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا هو إحدى تبعات الحرب على الإرهاب، والغزو الفاشل للعراق وأفغانستان، وهو كذلك إحدى تبعات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. ويعتقد الكثير من المراقبين بأن بوتين يفكر في أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وصلت للنقطة نفسها التي بلغها الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٨٩.

وهذه الأزمة الجديدة لم تكن أيضاً متخيلة من دون القصة التي أحكيها في هذا الكتاب. لقد بدأت في ٢٠٠١/٩/١١، وتعود في جذورها إلى فترة الحرب الباردة. يصعب تخيل الغطرسة والتعالي اللذين تعامل بهما الأمريكيون في رد فعلهم على هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، من دون «انتصارهم» في الحرب الباردة، ومن دون انهيار الاتحاد

السوفيتي والشيوعية. مع الهزيمة في أفغانستان والمظهر العدواني لروسيا، سيرى الأمريكيون اليوم ثمن هذا التعالي.

لكنهم لن يكونوا هم من يدفع الثمن وإنما سيدفعه الأوروبيون والأوكرانيون والروس وآخرون كثيرون ـ مثلما تحتم على الأفغان والعراقيين دفع غرامة هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، رغم أنهم لم يشاركوا فيها. يسعى الكتاب لتوضيح هذه السياقات المترابطة.

كدت أن أتمنى لو كان الكتاب أقل راهنية.

شتيفان فايدنر

برلين، فبراير/شباط ٢٠٢٢

تقديم

المهمة

في أولى قصص «ألف ليلة وليلة»، (تحديداً في الليلة الثالثة) نجد القصة الشهيرة عن الصياد والعفريت الخارج من القمقم. يرمي صياد فقير شبكته في البحر وفي كل مرة يظن فيها أنه قد اصطاد شيئاً يتبين له أنه لم يصد سوى نفايات. وفي آخر محاولة يائسة يصطاد قمقماً من نحاس مختوماً بالرصاص. ويأمل في بيعه بثمن جيد. لكنه يريد قبل ذلك أن يعرف ما بداخل القمقم ويفتحه: «وحطه على الأرض وهزه لينكب ما فيه فلم ينزل منه شيء، ولكن خرج من ذلك القمقم دخان صعد إلى عنان السماء ومشى على وجه الأرض... بعد ذلك تكامل الدخان واجتمع ثم انتفض فصار عفريتاً رأسه في السحاب ورجلاه في التراب»[1].

الظهور المفاجئ للعفريت كان أشبه بانفجار بركان أو بسحابة الرماد التي ارتفعت بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ الإرهابية من أطلال مركز التجارة العالمي وهامت عبر شوارع مانهاتن.

---

(١) ألف ليلة وليلة. الجزء الأول، دار الكتب العربية. مقابلة ومصححة على النسخة المطبوعة بمطبعة بولاق عام ١٢٧٩هـ. ص ١٤.

تدعو أوجه الشبه بين العفريت الخارج من القمقم والعفريت الخارج من الرماد للتأمل. يقول العفريت للصياد المذهول إن عليه أن يتمنى أمنية:

«أبشر يا صياد. بماذا تبشرني قال بقتلك أشر القتلات.

... تمن عليّ أي موتة تموتها وأي قتلة تقتلها».

٩/١١ كما يطلق اختصاراً على هجوم ٢٠٠١/٩/١١[١] هو صدمة الميلاد للقرن الحادي والعشرين، ولاتزال لها بصمة دامغة على السياسة وعلى إدراكنا للعالم. العفريت الذي ارتفع خارجاً من رماد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول يضعنا أمام خيار مشابه للخيار الذي قدمه عفريت القمقم للصياد. من يقع في فخه ويسايره أو يترك نفسه لغوايته، فهو هالك. في «ألف ليلة وليلة» يفكر الصياد في حيلة أفضل ويتذكر أن العفريت مجرد جني، أما هو فكائن عاقل: «وقد أعطاني الله عقلاً كاملاً وها أنا أدبر أمراً كاملاً بحيلتي وعقلي».

وبالفعل يتمكن الصياد من تحقيق ما لم يتمكن العالم حتى اليوم من تحقيقه في التعامل مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر. صحيح أننا أغنى كثيراً من الصياد الفقير في الحكاية، لكننا لم نعد واثقين في قدراتنا العقلية. أو أننا مصدومون ومُسيطر علينا للغاية بحيث لم يخطر ببالنا إطلاقاً إعادة الجني إلى القمقم. لكن هذا هو بالضبط ما يجب علينا فعله.

لو لم نتمكن من ذلك، فسيكون أسامة بن لادن، العقل المدبر للهجمات الذي اغتيل في عام ٢٠١١، قد حقق كل أهدافه، وستنتشر رؤيته المتطرفة والعدوانية والحاسمة للعالم مثل فيروس لا دواء له، وستصيب العدوى «الغرب» أيضاً وتتسبب في انقسامه. وسيصبح كل

---

(١) لم يمر تبني اختصار٩/١١ في صمت. وكما يكتب مؤرخ الفن الأمريكي روبرت ستور Robert Storr، فإن هذه الصيغة أخرجت الحدث من كرونولوجيا التاريخ وأعطته وضعا فريدا، يمكن إساءة استخدامه. قارن: Storr ٢٠١٠: ص ١١، هامش رقم ١.

هؤلاء، الذين استغلوا صدمة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول لأغراضهم، على حق. وبذلك لا يتركون لأعداد لا حصر لها من البشر أي خيار سوى الطريقة التي يموتون بها: الموت في أفغانستان أو العراق، سواء كمتمردين على الأمريكيين أو كحلفاء لهم. الموت جراء العديد من الهجمات الإرهابية التي تنفذها القاعدة أو ما يسمى بـ «الدولة الإسلامية» أو ينفذها أفراد تأثروا بالأفكار المتطرفة في أوروبا، أو الموت غرقاً في البحر أثناء الفرار أو في الحرب الأهلية إلى جانب النظام أو جانب المتمردين، سواء في سوريا أو ليبيا أو مصر، سواء في اليمن أو إيران، الموت كضرر جانبي نظراً لتواجد المرء في الوقت الخاطئ في المكان الخاطئ. وتقريباً لم يكن من بين كل هذه الأمور ما لا يمكن تجنبه. لكن كل شيء مرتبط بدرجة أو بأخرى بالحادي عشر من سبتمبر/أيلول.

في غضون ذلك انضافت بالمعنى المجازي «طرق موت» أخرى (فلنقل: كوارث) كنتيجة لهجمات ١١ سبتمبر/ أيلول: الاتساع المتزايد لهوة عدم المساواة على المستوى الاقتصادي، وثقافة عدم التسامح والكراهية تجاه أناس يفكرون بشكل مختلف، لهم مظهر مختلف ويعيشون بشكل مختلف، وأخيراً تدمير البيئة والمناخ، وأتاح ذلك الفرصة لفيروس جديد غدار انتشر بسرعة هائلة عبر الكوكب وأصبح يشبه في حضوره الطاغي وقوته المدمرة فيروس الإرهاب. بحسب بعض المراقبين بدأت الحرب العالمية الرابعة مع الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ (لقد اعتُبرت الحرب الباردة هي الحرب الثالثة[١]، وهي تسير

(١) «الإرهاب منتشر في كل مكان مثل الفيروس [...] لذلك يمكن للمرء تماماً الحديث عن حرب عالمية، ليست الحرب الثالثة، وإنما الرابعة، الحرب الوحيدة العالمية حقاً، لأن المهمة المتعلقة بها هي العولمة ذاتها». Baudrillard ٢٠٠٢: ص١٧ والصفحة التالية عليها. كذلك فإن الخطاب الأمريكي الرسمي عن «حرب عالمية على الإرهاب»=

بالحركة البطيئة، بطءً شديداً للغاية، لدرجة أن أناساً كثيرين لم يدركوا وقوعها بعد على نحو صحيح. لكنها مستمرة منذ عشرين عاماً وقد أزف الوقت لإنهائها.

أبعدت «الحرب على الإرهاب» وتبعاتها وأصداؤها أموراً مهمة أخرى ولفترة طويلة من على جدول الأعمال.

وحده الجيل الذي شهد ١١ سبتمبر/أيلول من دون وعي، مثل أبنائي الذين وُلدوا في نهاية التسعينات، استطاع أن يُبرز من خلال حركة Fridays-for-Future (أيام جمعة من أجل المستقبل) موضوعا ملحا ويُكسبه أهمية كبرى، ألا وهو موضوع حماية المناخ. وهم بهذا يسيرون على نهج مؤتمر البيئة الذي انعقد في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢ عندما بدأ النقاش حول كل هذه المشكلات. الفارق هو أنه كان من الممكن آنذاك السيطرة عليها إلى حد كبير بسهولة.

يسري ذلك أيضاً على احتجاجات سياتل عام ١٩٩٩ على مؤتمر منظمة التجارة العالمية والعولمة المتحررة من القيود، التي أصبح معظم البشر في الأثناء واعين بإشكاليتها. وقد أسهمت إسهاماً حاسماً في انتشار وباء كورونا، كما أنها تتحمل جزءً من المسؤولية عن الإغلاق الذي شمل الكوكب في عامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١ وأصعب أزمة اقتصادية شهدها العالم منذ فترة طويلة.

كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بالفعل طلقة تحذير بأن العولمة السياسية والاقتصادية قد أسهمت في عولمة مشاكل أخرى كانت حتى ذاك الوقت إقليمية كالإرهاب الإسلاموي مثلاً. ولم يرغب أحد

=يقر بأن له طابع حرب عالمية من خلال استخدام كلمة «عالمي global» (قارن: Binder ٢٠١٣: ص ١٢، هامش ٤)، ترجمة كل الاقتباسات الواردة في الأصل قام بها المؤلف، طالما لم ترد الإشارة إلى مترجم آخر أو مترجمة أخرى.

تقريباً في التعامل بجدية مع طلقة التحذير هذه: تحت غطاء الحرب على الإرهاب تم المضي قدما في سياسات العولمة دون رادع. لكن لأن الصين صارت مؤخراً تمثل مصالحها من دون مراعاة لأحد وفي طريقها لأن تصبح القوة العظمى القادمة. ونظراً لأن المجتمعات الغنية نفسها تعاني في الأثناء من التبعات السلبية للعولمة، أصبح تغيير الفكر ملحوظا لدى هذه المجتمعات التي استفادت منها طويلا: أوروبا والولايات المتحدة واليابان وبعض الدول الأخرى، التي تشكل على نحو ما يعرف بـ «الغرب العالمي».

الآن لا يمكن للتاريخ أن يعود للوراء. لكننا لسنا مسلوبي الإرادة أمام مساره المستقبلي. لم تكن هجمات ١١ سبتمبر/أيلول أيضاً كارثة طبيعية، بل بفعل البشر. وهذا يعني أنه عندما ندرك كيف وصلنا إلى الوضع الحاضر وأن تفاديه لم يكن بأي حال مستحيلاً، ستكون بين أيدينا الوسائل الضرورية للتدخل وتغيير مسار الأمور. يسعى هذا الكتاب إلى شحذ الوعي بأن لدينا الخيار. وأنه يتحتم علينا تحمل مسؤولية تشكيل المستقبل.

أوهمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول الدول الديمقراطية بأن عليها الاضطلاع بمهمة تمثلت في: «الحرب على الإرهاب» والقضاء على الدول المارقة ودمقرطة العالم و«إدماج» المسلمين». وكثير من هذه الأمور فشلت، وبعضها على نحو بشع. وبينما أكتب هذه السطور، يُطرح التساؤل ما إذا كانت أزمة الكورونا ستجعلنا نتحرر من صدمة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، أو ما إذا كانت «الحرب» الضروس «على الفيروس» ستحل محل «الحرب على الإرهاب»[١]. لقد عرف

---

(١) للمزيد:

Weidner 2020: http://vitaactiva-globale.de. (Alle Webseiten wurden zuletzt am 18.9.2020 kontrolliert und abgerufen).

الصياد في «ألف ليلة وليلة» أن الله قد أعطاه عقلا. فهل نعرف نحن ذلك أيضاً؟

تسعى التوجهات الاجتماعية والسياسية الحالية لغوايتنا لكي نستمر على النهج نفسه كما في الماضي، فقط من دون فيروس ومن دون إرهاب، وربما بقليل من مراعاة حماية البيئة والمناخ. ويبدو ذلك وكأنه رحلة إلى تسعينيات القرن الماضي، عندما كان العالم لا يزال يبدو ظاهرياً على ما يرام. لكن ذلك يفضي إلى رفض مواجهة الوقائع والتحديات الراهنة مواجهة حقيقية. وإذا ظلت أهدافنا السياسية مقصورة على الحروب الشبحية ضد خصوم كالفيروسات أو الإرهابيين، فسنظل للأبد عالقين في مستنقع الحادي عشر سبتمبر/أيلول.

البرنامج

ترتبط أجزاء هذا الكتاب مع بعضها بعضاً ارتباطاً وثيقاً. يروي الجزء الأول التاريخ السابق على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وتأثيراتها المباشرة. إنه يشرح كيفية نشوء هذا المزيج الانفجاري الذي فرغ شحنته في الهجمات التي نُفذت بدم بارد على مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاغون، في العالم الإسلامي خلال الحرب الباردة.

أما الجزء الثاني فمخصص للتاريخ اللاحق على أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، بدءاً من حرب العراق وحتى عملية السلام مع طالبان التي أُطلقت في عام ٢٠٢٠. إنني استرجع بإيجاز اللحظات المحورية في هذا العصر وأعرض للعلاقة الوثيقة بين التطورات السياسية التي ظلت ليومنا هذا تحبس أنفاسنا، وبين أحداث ١١ سبتمبر/أيلول. ولا يقتصر الأمر هنا على إعادة سرد التاريخ فحسب، وإنما يشمل أيضاً التحليل النقدي لأنماط التفكير التي تقف وراء الوقائع واستنتاج العبر الصحيحة من منها.

وفي الفصل الأخير أضع في الختام عقلية ما بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول في مقابل التحديات التي نشأت منذ أزمة كورونا. إننا نقف إزاء الخيار ما بين مواصلة سياسة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، كما يفعل النظام الاقتصادي العالمي ونيوليبرالية استبدادية تلتحف بفراء الحملان الشعبوي، أو أن ندرك المشكلات التي نتجت عن هذه السياسة وعن هذا الأسلوب الاقتصادي. إذا فعلنا ذلك، يمكن فهم الأزمة باعتبارها فرصة سانحة لسياسة مغايرة وعادلة وأكثر لطفاً مع الحياة.

يعد الكتاب دعوة للتفكير العميق ومشاركة الأفكار والتأمل. إنه مقال سياسي، ومحاولة لفتح آفاق فكرية جديدة، وتقصي الوضع الفكري للعصر والنجاح في الامتحانات التي يقدمها بشكل جيد، وهذا يعني تطوير قوة مقاومة فكرية وأخلاقية وروحية ضد وقاحاته. بالطبع، لن يتغير العالم بعد قراءة هذا الكتاب. لكن كما هي الحال مع الصور الملتبسة أو المعكوسة التي تظهر شيئاً لم يكن مرئيا، قد يبدو العالم بعدها عالماً منفتحاً على إمكانات جديدة وحلول خلاقة ومداخل وأساليب تعامل بديلة.

في كل تأملاتي انطلق من الأطروحات والفرضيات الأساسية الثلاث التالية:

١ ـ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول هو الانفجار العظيم لعالمنا. والمقدمة لذلك تمثلت، كما أوضحُ في الجزء الأول، في المزيج الانفجاري الذي تطور على مدى عقود سابقة. من دون الفهم الصحيح لهذا العصر، لا يمكن تفسير الصراعات الراهنة ولا فهمها ولا حلها.

٢ ـ ترفض غالبية البشر في كل أنحاء العالم الإرهاب. على أساس هذا الإجماع العابر لكل الثقافات يمكن تحقيق رأس مال

حججي وأن يُبنى على هذا الإجماع معارف وإرشادات سلوك من أجل التعامل المشترك فيما بيننا في المستقبل. وبهذا المعنى أيضاً يمثل ١١ سبتمبر/أيلول نقطة صفر وأساساً مشتركاً، يمكن لتأملاتنا أن تنطلق منه: «غراوند زيرو» كفرصة لبداية جديدة، لإعادة التشغيل Reset.

من منظور اليوم حقق الزعيم الإرهابي العربي أسامة بن لادن كل أهدافه. إدراك ذلك مؤلم، لكن علينا مواجهته. صحيح أنه قُتل في عام ٢٠١١، لكنه كسب حربه على «الغرب»، التي أشعل هو فتيلها. وهذا «الغرب» لم يعد التعرف عليه من جديد ممكناً. لم يعد صالحا في وضعه الراهن كنموذج عالمي يُسترشد به ويتمتع بالمصداقية، كما كان ينظر لنفسه على هذا النحو قبل أحداث ١١ سبتمبر/أيلول وذلك لأسباب مفهومة. ولا تعكس هذه الحقيقة بأي حال رؤيتي الخاصة فحسب، وإنما تطابق ما صار يعترف به أيضاً المحافظون والليبراليون والقوى المؤيدة للغرب بحكم أصولها في الآونة الأخيرة. كان شعار مؤتمر ميونيخ للأمن لعام ٢٠٢٠ هو «Westlessness» أي «اللا غربنة» أو ربما يكون التعبير الأصوب هو «زوال سحر الغرب»[١].

إن الوعي بأن الحرب الأهلية العالمية التي أشعلها ابن لادن لا تزال مستمرة، وفقاً لرغباته، في بقاع واسعة من العالم، لهو أمر مدمر، وليس مستغرباً أن أحداً لم يجرؤ على النطق بذلك. لكن من لا يعترف بهزيمته، لن يتعلم منها ولن يتجاوزها. إن رفضنا للنظر في عين الواقع، يجعل الهزيمة مكتملة. أليس الحس الواقعي والمعرفة بالذات والنقد الذاتي هي الصفات التي ينبغي أن تظهرها المجتمعات المتنورة بقدر خاص جداً؟

---

(١) مؤتمر الأمن في ميونيخ عام ٢٠٢٠.

مع الهزيمة (سواء اعتُرف بها أم لا) وتنحي «الغرب» يغيب عنصر جوهري في التوجه الذي كان سائداً في العالم من قبل، وتحديداً فكرة أن التاريخ يسير في الاتجاه الذي يحدده «الغرب». وهذا الزوال لمنظور مستقبلي يثير القلق، كما أقرُ بذلك عن طيب خاطر. من جانب آخر تنشأ من خلال ذلك حرية جديدة. كانت الرؤية «الغربية» أحادية لحد كبير، وهو ما جعلنا نصطدم على نحو حربي بالإرهاب وعلى نحو مدني باحتجاجات «حياة السود مهمة» المناهضة للعنصرية وحركة حماية البيئة العالمية. بالطبع كان الحديث عن «الغرب» دائماً إشكالياً. لذلك أحاول بقدر الإمكان تجنب الحديث عنه أو أن أضع المصطلح بين علامتي تنصيص. وأسباب إشكالية المصطلح متنوعة[١]، وأريد أن أشير بوضوح إلى اثنين منها:

كما يؤكد ألاستير بونيت Alastair Bonnett أستاذ الجغرافيا الثقافية، فإن مصطلح «الغرب» مرتبط تاريخياً وعملياً ارتباطاً راسخاً للغاية بالتصور عن تفوق الإنسان الأبيض المنحدر من أوروبا. وإذا ما استخدمناه، فإننا نعطي استمرارية لهذا التفوق الأبيض والأوروبي، سواء أردنا أم لم نرد. يكتب بونيت: «إن في مصطلح «غربي» ترميز عنصري، وينطلق من توقع بأن العالم لن يكون أبداً «حراً» و«منفتحاً» وديمقراطياً، طالما لم تتم أوربته»[٢].

الحجة الثانية تتعلق بالمنظور الذي نشترطه في كل مرة عندما نتحدث عن «الغرب»، فقط عندما ينظر المرء في أوروبا على خريطة العالم، فهل يكون «الغرب» غربيا حقا، هذا يعني يسار الخريطة، حيث يرى المرء (غرب) أوروبا وأمريكا. يقع المنتصف، أي نقطة التلاشي، بالضبط

---

(١) ثمة أسباب أخرى عديدة أوردتها في كتابي «Jenseits des Westens» أو بعيدا عن الغرب. انظر Weidner ٢٠١٨.

(٢) Bonnett ٢٠٠٤: ص٣٤.

حيث كان الستار الحديدي يمتد خلال الحرب الباردة، وليومنا هذا لا يزال يصعب على كثيرين في «الغرب» اعتبار شرق أوروبا جزءاً من «الغرب»، وخصوصاً شرق أوروبا ذات الصبغة الأرثوذكسية، مع أن أجزاءً واسعةً من تلك المناطق صارت عضواً في الاتحاد الأوروبي[1].

في المقابل، إذا ما نظر المرء من خارج أوروبا على خريطة العالم، لا يعود «الغرب» السياسي يقع في الغرب، أي أنه لا يعود على الناحية اليسرى من الخريطة. إذا ما تحدث المرء مع ذلك، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو اليابان أو الصين، عن الغرب، فإنه يتبنى بذلك، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه، منظور المركزية الأوروبية. في إطار خريطة متخيلة يضع المرء أوروبا في المنتصف ويجعلها بذلك مركز العالم.

وبقدر ما يعد ذلك إطراء للأوروبيين، فهو ينمي صلفهم ولا يطابق الحقائق: لم تعد أوروبا في المركز منذ زمن طويل. وأيضاً الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت مستعمرة أوروبية سابقة لن تفعل خيراً بأن تعتبر أنها «الغرب» الذي يعتبر مركزه ورؤيته مصبوغين لا محالة بصبغة أوروبية: لأن هذا سيؤدي إلى اعتبار المواطنين الذين لا ينحدرون من أصول أوروبية ويرفضون المنظور المركزي الأوروبي غير أمريكيين حقيقيين وإلى تحقيرهم «غربياً» بوصفهم مثلاً: آسيويين، أو مسلمين، أو سكاناً أصليين، أو أمريكيين سوداً. أيضاً من منظور الولايات المتحدة الأمريكية التي هي «غرب الغرب»، يصبح شكل من أشكال العنصرية وتحقير الرؤى غير الغربية فعالاً، بمجرد أن تعتبر البلاد نفسها «غربية».

وفي الختام أقول كلمة عن شخصي. كباحث في الدراسات الإسلامية

---

(١) بالنسبة لصامويل هانتنغتون، تتطابق الحدود الشرقية مع حدود المسيحية اللاتينية. قارن: Huntington ١٩٩٦، ص٢٥٢: «تنتهي أوروبا، حيثما تنتهي المسيحية الغربية وتبدأ المسيحية الأرثوذكسية والإسلام».

والأدبية، كنت قد ارتأيت أن مهمتي هي ترجمة القصائد العربية. وعملت بعد ذلك لسنوات طويلة في الصحافة. في التسعينيات من القرن الماضي كانت كفتا الميزان فيما يخص مستقبل العالم الإسلامي متوازنتين بين الأمل والريبة. واعتقدتُ آنذاك أنني أستطيع بعلمي وبرأيي أن أسهم في تطور إيجابي. لكنني انشغلت منذ ١١سبتمبر/أيلول بإطفاء الحرائق. وفي عام ٢٠١١ ومض مع الثورات العربية بريق الأمل لفترة وجيزة. وبعدها ازداد الوضع سوءاً من عام لعام. وفي الأماكن التي كنت أستطيع فيها في الماضي أن أعمل نسبيا دون مشاكل وأن أسافر وأعيش فيها، تسود حالياً حرب أهلية وإرهاب وعنف وإحباط لا حدود له. صحيح أن كل هذه الأمور كانت موجودة منذ زمن بعيد في تلك المنطقة، وكان هذا هو السبب في اهتمامي بها عندما كنت تلميذا. لكن مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر هيمنت التطورات السلبية وأصبحت لها اليد العليا.

حالياً لا يجرؤ كثير من أصدقائي على السفر حتى إلى تركيا، خوفاً من القبض عليهم، لأنهم انتقدوا سياسة إردوغان أو أيدوا فنانين أو صحفيين معارضين. وفي المقابل فر كثيرون آخرون من مناطق الأزمات وتراودهم فكرة الهجرة. ومن جانب آخر يشعر كثير من صديقاتي وأصدقائي الذين هاجروا إلى ألمانيا وأوروبا قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بزمن طويل بعدم الأمان في وطنهم الجديد ويشتكون من الأحكام المسبقة والعنصرية والتمييز والسلوكيات الغوغائية.

باختصار: إطفاء الحرائق المؤقت والتهوين من المشكلات والتفسيرات الحسنة النية لم تعد تكفي. بالأحرى يتنامى الشك في كون الرؤية برمتها، والإطار الفكري (أو الإطار *frame* كما يُصطلح على تسميته في علم الاتصال[١]) لم يعودا صالحين. ومن هنا بدأتُ أتأمل

---

(١) Goffman ١٩٨٦.

الأسئلة البارزة عن الإسلام من الخارج وأن أطرح تساؤلات عن البداهة «الغربية» الخاصة بنا وأبحث عن بدائل، كما فعل ذلك أيضاً آخرون كثُر منذ أكثر من مئة عام. والكتاب الذي بين يديكم هو نتيجة هذه التساؤلات والتحليل والبحث. إنها محاولة لكتابة التاريخ المعاصر، دون الخضوع له والنمو فيه، وإنما لإيجاد موضع يشير إليه من الخارج.

ونظراً لأنني لا أرغب في استخدام لغة منمقة مصطنعة، تخليت في العادة عن وضع الأسماء والمصطلحات ذات الحمولة الإيديولوجية أو التي تستخدم على نحو نمطي جاهز ومبتذل بين علامتي تنصيص. لا أرغب في أي نقطة أن أمثل فهماً هوياتياً وجوهرياً لثقافات أو أديان أو تقاليد أو بشر بعينهم. وإذا ذُكرت كلمة «نحن» فالمقصود بذلك كل القارئات والقراء المحتملين: الجماعة الممكنة المستعدة لمتابعة العرض الذي أقدمه، حتى ولو كانت العلاقات معقدة بعض الأحيان وتبدو مختلفة عن المعتاد.

الجزء الأول

١١ سبتمبر/أيلول ومقدماته

أمريكا عدواً

هل من الضروري أن يعرف المرء شيئاً عن الإسلام كي يفهم ١١ سبتمبر/أيلول؟ هل يفسر القرآن الإرهاب، كما اعتقد كثيرون آنذاك؟ للهجمات على نيويورك وواشنطن تاريخ سابق، لا علاقة له بتعاليم النبي محمد التي ترجع إلى القرن السابع الميلادي في مكة والمدينة، بل لها على العكس علاقة بالتطور العالمي خلال قرن إلى قرنين ماضيين. وهكذا يكون من الوارد أن يعرف المرء من الشعر العربي المعاصر أسباباً لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول أكثر مما سيعرفه من النص القرآني بسنواته الألف وأربعمائة.

مثلاً من خلال الشاعر السوري أدونيس المولود عام ١٩٣٠ والذي قمت بترجمة أشعاره. اسمه مستعار وهو يمثل بشكل منهجي جهود المثقفين العرب في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد أساطير تأسيسية معاصرة للدول الشرق أوسطية التي نشأت خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. في هذه الحالة كانت أسطورة أدونيس الفينيقية التي تبناها اليونانيون لاحقاً، هي أسطورة البعث. في عام ١٩٧١ نشر الشاعر الشهير نصاً طويلاً عبارة عن مزيج من المقال السياسي والكولاج الشعري، بعنوان «قبر من أجل نيويورك».

القصيدة التي كُتبت في خضم حرب فيتنام هي كشف حساب مع إمبريالية الولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا وفي أمريكا الجنوبية

والعالم الإسلامي. ويستحضر فيها الثائر الكوبي التشيلي تشيه غيفارا وكذلك هو شي منه، زعيم الشيوعيين الفيتناميين والشاعر والت ويتمان من القرن التاسع عشر الذي خانت أمريكا ـ بحسب أدونيس ـ مُثله التقدمية الصديقة للبشر.

تعد نيويورك ببورصة وول ستريت وناطحات السحاب ووسائل التواصل التكنولوجي هي رمز للانحطاط والطمع في السلطة والقمع الاستعماري. انحطاط المدينة مخطط له مسبقاً وسيأتي، حسب أدونيس، من الشرق:

الريح تهبّ ثانية من الشرق، تقتلع الخيام وناطحات السحاب (...)

أسمع رجّةً وقصفاً. وول ستريت وهارلم يلتقيا ـ يلتقي الورق والوعد الغبار والعصف . (...)

نيويورك+ نيويورك = القبر أو شيء يجيء من القبر، نيويورك+ نيويورك = الشمس[1].

ولأنه لا يرد أي ذكر للإسلام في القصيدة، يتبين لنا أن الغضب على الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقاً على هجمات ١١ سبتمبر أيلول، وأن له أسباباً دنيوية وجيوسياسية وليست له أسباب دينية. لقد اختارت المقاومة العلمانية المناهضة للاستعمار نيويورك وناطحاتها كعدو يرمز للولايات المتحدة الأمريكية والحداثة الغربية في مجملها.

وهكذا تقاسم ابن لادن والإسلام المتطرف عدوهما أي «الغرب» مع خصومهما الإيديولوجيين، تحديداً مع النشطاء العرب اليساريين المناهضين للاستعمار، مثل أدونيس. في النصف الثاني من القرن العشرين كان لهؤلاء المفكرين والشعراء والسياسيين والمناضلين من أجل

(1) https://antolgy.com/grave-for-newyork-adonis/

الحرية بصمتهم الواضحة على الحياة الثقافية والسياسية في العالم الإسلامي. ولم يكد يكون للإسلام أي دور بالنسبة لغالبيتهم. ولا يزال أدونيس معروفاً ليومنا هذا بموقفه النقدي للإسلام[1].

خلال الستينيات من القرن الماضي وقبل أن يكتب أدونيس قصيدته عن نيويورك بوقت قصير، شهد التسييس المتنامي للإسلام الذي نشأ قبل نصف قرن في بيئات برجوازية صغيرة ومحافظة بعينها، صحوة. حتى ذاك الوقت كان الإسلامويون ـ كما يُطلق على المؤيدين لدور سياسي أكبر للإسلام ـ متحالفين مع تلك القوى في العالم العربي القريبة من الغرب الرأسمالي، وذلك على عكس منظمات المقاومة ذات التوجه اليساري والماركسي (كمنظمة التحرير الفلسطينية مثلاً). ولهذا السبب دعمت إسرائيل حركة حماس، وهي الفرع الفلسطيني من جماعة «الإخوان المسلمون» المصرية. وفي هذا الصدد يكتب الخبير في الشؤون الإسرائيلية يوزف كرواتورو Joseph Croitoru: «سمح الاحتلال العسكري الإسرائيلي (في غزة) للشيخ ياسين (زعيم حركة حماس) بممارسة نشاطه، لأن الاحتلال كان يسعد بكل شاب فلسطيني يتلقى دروس القرآن لدى الإخوان المسلمين ويمارس الرياضة في مجموعاتهم الشبابية، عوضاً عن الانضمام لمنظمة نضالية علمانية فلسطينية»[2].

كان دعم الدين وسيلة مجربة أيضاً آنذاك في أوروبا والولايات المتحدة في مكافحة الشيوعية. وبهذا أُدخل الإسلام إلى الحرب الباردة. وقد اعتُبر أنه من غير المحتمل أن يصبح الإسلام قوة مقاومة ضد الولايات المتحدة الأمريكية والحكومات العربية المدعومة منها. ومن الواضح أن السياسيين في الولايات المتحدة وأوروبا لم ينتبهوا جيداً

---

(١) أمثلة واضحة لدى أدونيس: Adonis ٢٠١٥.

(٢) Croitoru ٢٠٠٧: ص ٤٣ وما تلاها.

خلال درس التاريخ، أو أن الفترة الاستعمارية لم تكن مقررة في الخطة الدراسية. لأن الجماعات الإسلاموية كانت في المقام الأول هي من قام في القرن التاسع عشر بتنظيم المقاومة ضد الاستعمار الأوروبي.

وينطبق ذلك مثلاً على الجزائر، حيث قاوم الأمير والشيخ الصوفي عبد القادر (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣) الفرنسيين، وعلى السودان، حيث شارك ونستون تشرشل الشاب في نهاية القرن التاسع عشر في قمع انتفاضة المهدي، وهي حركة تمرد معادية للاستعمار ومستلهمة من الإسلام، وألف كتابا عن ذلك[١].

كما ينطبق ذلك في نهاية المطاف أيضاً على الحروب البريطانية في أفغانستان والهند التي لم تصبح رسميا جزءاً من الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية إلاّ بعد العصيان الفاشل للجنود الهنود المسلمين والمعروفة بانتفاضة السيبوي عام ١٨٥٧. وقد أدرك كارل ماركس بالفعل آنذاك، أن مقاومة أهل البلاد للقوى الاستعمارية تمثل رد فعل مفهوماً، رغم أنها اتخذت ملامح كريهة: «مهما كانت تصرفات السيبوي مخزية (لقد اتهموا بارتكاب اغتصابات من بين جرائم أخرى)، فإن ذلك هو رد فعل في شكل مكثف على تصرفات إنجلترا نفسها في الهند»[٢].

ومن السهل تفسير السبب في اعتبار المسلمين، من منظور كولونيالي، هم أكثر من يتسببون في المشاكل: لأن للمسلمين هوية واضحة، ولديهم إحساس عال بتقدير الذات يستند إلى تاريخهم، وتصور للعالم محدد بوضوح مع طموح كوني خاص بهم، وإيمان قوي، وكانت لهم خبرة في التلاقي مع الآخرين، أيضاً في المواجهات

---

(١) Churchill ٢٠٠٨.

(٢) اقتباس من: http://www.mlwerke.de/me/me12/me12_285.htm.

والنزاعات العسكرية. ولم يكن هذا متوفراً إلاّ لدى قليل من الشعوب أو الجماعات الدينية المستعمرة.

قبل الحادي عشر من سبتمبر/أيلول مباشرة لم يرغب أحد في تصديق أن الإرهاب الإسلاموي ينتمي لإرث الصراع المناهض للاستعمار وهو لذلك إرث «مناهض للغرب». ورغم أن معظم المراقبين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية كانوا يرفضون هذا التبصر النقدي للذات، فمن اللافت أن إعادة تقييم ومعالجة النزعة الاستعمارية لم تبدأ على نحو شامل إلاّ بعد ١١ سبتمبر/أيلول، ووصلت في الأثناء، و«الفضل لـ ١١ سبتمبر/أيلول» أيضاً، إلى قطاع واسع من المجتمع.

ونرى ذلك في الجدل حول العنصرية وكذلك في النقاشات عن التعامل مع الأعمال الفنية المنهوبة خلال حقبة الاستعمار وفي قضية التعامل مع الهجرة من الجنوب العالمي. لقد أطلق الحادي عشر من سبتمبر/أيلول هذه النقاشات باعتباره أول قطعة دومينو سقطت وأسقطت معها كل القطع الأخرى. الاعتراف بذلك ليس تبريراً لجرائم القتل التي ارتكبها ابن لادن. لكن عدم الرغبة في رؤية هذه العلاقة يشير فقط إلى أن الترابطات الاستعمارية التي كانت شريكا في هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، لا زالت قائمة وليس هذا فحسب، بل ومستمرة أيضاً. ويصعب القول إن هذه سياسة ذات رؤى مستقبلية جيدة!

عندما عقد الأمريكيون تحالفاً مع الإسلام المحافظ بعد الحرب العالمية الثانية، كان من الجائز أنهم ظنوا بحسن نية أنهم أذكى وأكثر مسؤولية من القوى الاستعمارية الأوروبية، «ويمكن الوثوق في أنهم استخدموا قوتهم استخداماً عاقلاً وعادلاً، وهو أمر لم يكن ممكناً لدى الدول الكبرى الأخرى»[1]، كما جاء في شرح أستاذ العلوم السياسية

---

(١) Fukuyama ٢٠٠٦: ص١٠٧. =

فرانسيس فوكوياما لـ«الاستثنائية» الأمريكية. يدعي الأمريكيون هذا الاستثناء لأنفسهم منذ عهد الرئيس جورج واشنطن (١٧٨٩ ـ ١٧٩٧) الذي أكد في خطاب وداعه للأمة «أن الجمهورية الأمريكية قد ولدت في الفضيلة ولن تفقد براءتها إلاّ عندما تمارس سياسة قوة من النوع الذي يمارسه الأوروبيون»[١].

ويرتبط تدخل الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت في السابق مستعمرة بريطانية، في العالم الإسلامي بانهيار الإمبراطورية العثمانية والدور العالمي الجديد للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى. قبل ذلك سيطر العثمانيون على أجزاء واسعة من شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وفي عام ١٩١٨ تقلصت الإمبراطورية لتقتصر على المنطقة المعروفة منذ ذاك الحين بـ«تركيا». أما كل المناطق الأخرى، فشهدت ترتيباً جديد لأوضاعها. وقد ساند الرئيس الأمريكي وودورث ويلسون بعد الحرب العالمية الأولى حق هذه البلدان العربية الجديدة في الاستقلال. لكن إنجلترا وفرنسا رسموا الحدود (معاهدة سيفر، ١٩٢٠). وهكذا تأسست لبنان وسوريا والعراق وفلسطين و(شرق) الأردن. وعلى أرض فلسطين التي أدارها البريطانيون، تأسست عام ١٩٤٨ دولة أخرى هي إسرائيل.

حتى عام ١٩٨٩ كان الإسلامويون يرون في اشتراكية الدولة القمعية في العالم العربي مشكلة أكبر بكثير من مشكلتهم مع الولايات المتحدة الأمريكية. فمن أساسيات الإيديولوجيا الاشتراكية نقد الدين والقطيعة مع

= هذه الاستثنائية هي وفقاً لفوكوياما (المرجع ذاته) أيضاً هي الصيغة «الصامتة» هي أساس استراتيجية الأمن القومي الأمريكية والتي تبرر مذهبها الخاص بالحرب الاستباقية.

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٨ وما تلاها.

الكثير من التقاليد والأعراف الاجتماعية المهمة للمتدينين. ومن بين الدول ذات الطابع الاشتراكي التي تحالفت مع الاتحاد السوفيتي كانت الجزائر (منذ الاستقلال عام ١٩٦٢)، وليبيا (منذ انقلاب معمر القذافي)، ومصر (منذ انقلاب الضباط الأحرار عام ١٩٥٢)، والعراق (منذ انقلاب حزب البعث عام ١٩٦٣). وبهذا كانت الدول العربية الأكبر وذات الكثافة السكانية الأعلى جزءاً من الكتلة الاشتراكية. وأيضاً منظمة التحرير الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات كانت تنتمي للكتلة الاشتراكية، وكذلك اليمن الجنوبي بعد التقسيم، وتونس بقيادة المناضل المخضرم ضد الاستعمار الحبيب بورقيبة (١٩٠٣ ـ ٢٠٠٠).

ولم يحصل الإسلامويون على دعم حكومي إلاّ من الأنظمة الملكية العربية الفاسدة، وخصوصاً تلك الواقعة على الخليج العربي، حيث تبنت الدولة في السعودية وفي الإمارات الغنية بالنفط نسخة متعصبة ومتشددة من الإسلام وهي الوهابية (انظر ص...). أرادت الأنظمة الملكية بدعمها للإسلاميين حماية نفسها من الاشتراكية، وقد تحالفت مع الغرب للسبب نفسه.

الحرب الباردة في الجنوب العالمي

لقد جُرت دول العالم كلها تقريباً إلى حلبة الصراع بين النظامين السياسيين الاقتصاديين والقوتين العظميين الممثلتين لهما. وبعض هذه الدول أصبحت مسرحا لحروب دامية بالوكالة، وفي مقدمتها فيتنام وأفغانستان. وكان للشرق الأدنى والشرق الأوسط، والعالم العربي والإسلامي دور محوري في هذا الصراع. والدول التي دار حولها الصراع لم تنشأ، كما سبق وأن ذكرنا، إلاّ بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. ولم تنل استقلالها الفعلي إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية.

وكما كان متوقعاً تقريباً، كانت هذه الدول ضعيفة عسكرياً وغير مستقرة سياسياً، ويسهل التأثير عليها من الخارج ومعتمدة على حلفائها. وفوق ذلك جاء موقع هذه البلدان جنوب شرق أوروبا في منطقة على درجة فائقة الأهمية من الناحية الجيو-استراتيجية. وكانت تمتلك المواد الخام ذات الأهمية الحيوية لاقتصاد وجيوش الدول الصناعية، وعلى رأسها النفط. وكان متوقعاً أن تسعى القوتان العظميان إلى بسط نفوذهما على المنطقة وإيجاد حلفاء لهما فيها والسيطرة عليها.

أراد الاتحاد السوفيتي (اتحاد جمهوريات السوفيت (أي المجالس) الاشتراكية)، الذي نشأ عام ١٩١٧ أن يضع حداً للسياسة الإمبريالية السابقة للقوى الأوروبية الكبرى. كان الاعتماد على الاتحاد السوفيتي

الذي صعد مع الانتصار على ألمانيا هتلر، ليصبح قوة عالمية، يعني بالنسبة للدول المؤسسة حديثاً في الشرق الأوسط التحرر من القوى الاستعمارية القديمة. وبالطبع كانت هذه الدول تضع أنفسها في الوقت ذاته في إسار تبعية لا تقل إشكالية عن سابقتها. لكن من منظور أيديولوجي كانت الاشتراكية كانت على أي حيال خيار الساعة.

في المقابل لم يثر هذا «الغرب» القديم بفكرة الليبرالية والسوق الحرة في الدول التي خضعت للقيود الاستعمارية لهذا «الغرب» ذاته إلاّ قليلاً من الحماس. لم يكن الوعد الرأسمالي بالرخاء جذاباً: فقد بدا أن نخباً قليلة هي التي تستفيد منه. والشيوعية كانت تعد أيضاً بالرخاء المادي، ولكن *للجميع*، ولم تكن تبدو في الخمسينات والستينات متخلفة عن الغرب اقتصادياً على نحو واضح، مثلما حدث لاحقا.

وعدت الشيوعية والاشتراكية أيضاً بشيء آخر، لم يستطع «غرب» الحرب الباردة أن يقدمه: لقد وعدتا بمجتمع متجدد كلية، برؤية طوباوية. كانت هذه الرؤية جذابة على وجه الخصوص للمثقفين الذين كانوا بطبيعتهم أول من تعرف على هذه الأفكار. وقد سخر هؤلاء طاقاتهم لتأسيس وإدارة الدول الجديدة: موظفون ومدرسات وصحفيون، ولكن في المقام الأول ضباط، وهو ما كان بسبب المساعدات العسكرية السوفيتية للدول العربية أمراً غير مستغرب. أيضاً تحمست نساء كثر للاشتراكية، التي وعدتهن في الأساس بحريات شخصية أكبر. بعضهن نال شهرة عالمية مثل المناضلة النسوية والكاتبة نوال السعداوي (مواليد ١٩٣١) في مصر[١].

---

(١) لنوال السعداوي عدة كتب مترجمة إلى الألمانية، من بينها رواية «امرأة عند النقطة صفر».

"Eine Frau am Punkt Null" , Saadawi 1998.

وبالطبع لم تقف الاشتراكية كواحدة من الإيديولوجيات الحديثة المستوردة من أوروبا دون منافس في العالم العربي ـ الإسلامي: كانت النزعة القومية كذلك شائعة، وأحياناً ثمة مزيج غريب من القومية والاشتراكية وإيجاد الروابط مع عصر مع قبل الإسلام. من هذا النوع كانت إيديولوجية حزب البعث في العراق وسوريا، وكذلك الإيديولوجية القومية الفينيقية «للحزب السوري القومي الاجتماعي» الذي كان الشاعر أدونيس ينتمي إليه في شبابه ويدين له باسمه.

إضافة إلى ذلك كانت ثمة أُسس لتفسير إيديولوجي سياسي للإسلام، كانت أحياناً قادرة كذلك على تبني أفكار اشتراكية وقومية، مثل «الكتاب الأخضر» الغريب الذي ألفه القذافي في ليبيا، أو الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩.

في المقابل، لم يتمكن المعسكر الرأسمالي لـ«غرب» الحرب الباردة من كسب سوى عدد قليل من الأنصار من قادة الرأي والمثقفين في الجنوب العالمي الذي كان يسمى آنذاك بـ «العالم الثالث»، رغم الجهود المعتبرة، حتى من قبل المخابرات المركزية الأمريكية، لإثارة إعجاب المثقفين بالفردية والليبرالية. وحتى الشاعر أدونيس، كان ينتمي لمجموعة من المثقفين اللبنانيين ـ السوريين، ممن استفادوا في الخمسينات من برامج الدعم الأمريكية[1]، وهو ما يجعل موقفه الحاسم المناهض لأمريكا في قصيدته الرائعة «قبر من أجل نيويورك» لافتاً أكثر.

ونظراً لأن الغرب ـ على العكس من الاتحاد السوفيتي ـ لم يتمكن من كسب «قلوب» الناس في العالم الإسلامي، تحالف في المنطقة مع تلك الأنظمة التي لا يُخشى لديها من التأميم، ولا تنشر الأجواء الثورية

---

(١) قارن: Cresswell ٢٠١٩.

وعاشت في وئام مع القوى الاستعمارية السابقة. وكما سبق أن ذكرنا، كانت هذه الدول في العادة ملكيات تمثل البنى الاجتماعية التقليدية، وكانت قمعية لأقصى حد (وهو ما تحولت إليه سريعاً الأنظمة العسكرية ذات الصبغة الاشتراكية)، وإذا كانت ثمة شعارات ترفعها على الإطلاق، فقد كانت مناهضة التقدم والتحرر والمساواة الاجتماعية. ومثال على ذلك التحالفات (غير الرسمية) مع المملكة المغربية في ظل حكم الحسن الثاني وكذلك مع السعودية، ومع شاه إيران حتى عام ١٩٧٩.

في نصف الكرة الأرضية المسلم اضطر هؤلاء الذين كانوا يمثلون من الخمسينات وحتى بداية التسعينات القيم والمعايير التي يروج لها اليوم على أنها علامة مسجلة لـ«غرب» (الحرية والمساواة والديمقراطية والتحرر وما إلى ذلك)، أن يتحولوا إلى معاداة «غرب» ذاك الزمان. وهذا فارق واضح مقارنة بصورة «الغرب» في شرق أوروبا الشيوعية.

ويسهل توضيح هذين الإدراكين المتضادين «للغرب». في شرق أوروبا كان «الغرب» (على الأقل قبل ١٩٨٩) ليس سوى قوة استعمارية إمبريالية. وببساطة لم تكن له كلمة مسموعة هناك. ومن هذا المنطلق لم تتأثر سمعته بالسياسات الغربية الفعلية في مناطق أخرى من العالم. كان «الغرب» الديمقراطي والحر هو وحده المعيار في الغرب نفسه، في حين كان يُنظر للاتحاد السوفيتي كقوة استعمارية أو قوة احتلال، وهو ما كانه أيضاً.

ومن السهل عرض الأمثلة على السياسة الغربية الإشكالية في ذاك العصر. في عام ١٩٥٣ نُفذ انقلاب (عُرف باسم عملية أجاكس) مهدت له المخابرات المركزية الأمريكية (سي أي إيه) والمخابرات البريطانية ضد رئيس الوزراء الإيراني المنتخب محمد مصدق الذي تحتم عليه الترتيب والتفاوض حول تأميم صناعة النفط الإيرانية، وكان معظمها ملكاً لشركات بريطانية وأمريكية. وعندما لم يتم التوصل لاتفاق، فرض الإنجليز حظراً على الإتجار بالنفط الإيراني. ومن الملكية الدستورية التي

تم الإبقاء عليها لمجرد الشكليات، جاء التحول المباشر ما بين ليلة وضحاها إلى ديكتاتورية الملك، شاه رضا بهلوي، ابن الشاه بهلوي الأول. وقد حكم هذا الأخير خلال الحربين العالميتين ومهد لموجة تحديث عنيفة اقتداء بأتاتورك في تركيا. واتبع ابنه أيضاً بعد الانقلاب سياسة موالية للغرب على نحو حاسم، ولكنها كانت في داخل البلاد سياسة قمعية واستبدادية، إلى أن أطاح به الخميني عام ١٩٧٩.

ظل الانقلاب الموجه من الخارج ضد مصدق باقياً في ذاكرة الإيرانيين حتى يومنا هذا وذلك لأسباب وجيهة. لم يكن مصدق شيوعياً، وتأميم صناعة النفط كان من وجهة النظر الإيرانية أمراً معقولاً[١]. لم يأت تدخل الأمريكيين والبريطانيين (جدير بالذكر أنه حدث في عهد تشرشل الذي كان موقفه الكولونيالي معروفاً على نطاق واسع) خشية أن تصبح إيران جزءاً من منطقة النفوذ السوفيتي، وإنما بسبب المصالح المالية لشركات النفط الغربية؛ لكن المزاوجة بين مصالح الدولة والمصالح الاقتصادية كانت سمة مميزة للنزعة الاستعمارية منذ زمن بعيد. لقد خنق الانقلاب ضد مصدق التطور البرلماني الديمقراطي في إيران وخنق تقرير المصير الوطني لدى الإيرانيين. وبهذا عُبد الطريق للثورة الإسلامية ولصعود إسلام سياسي معاد للغرب على نحو حاسم.

بعد ذلك بسنوات قليلة فحسب، في عام ١٩٥٦، وقعت أزمة قناة السويس. وخلالها تم تفعيل الأنماط (ما بعد) الكولونيالية نفسها كما حدث في انقلاب مصدق قبل ثلاث سنوات. أراد الرئيس المصري جمال عبد الناصر، الذي كان لديه ـ على عكس مصدق ـ ميل فعلي للمعسكر الاشتراكي، تأميم قناة السويس، التي أُنشئت في ستينيات القرن التاسع عشر بقروض أوروبية. كانت القناة تخدم مصالح الملاحة البحرية

---

(١) Nirumand ١٩٦٧.

الاستعمارية الأوروبية أكثر من خدمتها للمصريين. وأسهمت بشكل جوهري في جعل مصر كرة تتلاعب بها المصالح الأوروبية، وجعلتها تتورط في تبعية الدين وفي نهاية المطاف احتلتها بريطانيا ما بين عامي ١٨٨٢ و١٩٢٤.

وهكذا هاجمت القوات الإسرائيلية في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦ مصر بدعم من بريطانيا وفرنسا، واحتلت سيناء، ثم اضطرت للانسحاب بضغط من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية (التي كانت تخشى من خوض نزاع مع الاتحاد السوفيتي). انتهت أزمة قناة السويس إذاً بانتصار معنوي ودبلوماسي لجمال عبد الناصر، وأعطته فرصة سانحة لأن يصبح السياسي القائد في العالم العربي، خصوصاً وأنه كان يمتلك كاريزما ويجيد الخطابة ويستطيع إثارة حماس الجماهير. لكن النهاية السعيدة لأزمة قناة السويس خلقت أسطورة خطيرة: وهي أنه باستطاعة العرب بقيادة عبد الناصر ومصر محاربة العدوان الاستعماري بنجاح ـ وقد اعتُبرت دولة إسرائيل أيضاً مستعمرة استيطان أوروبية.

وكما تبين بعد ذلك بإحدى عشرة سنة، فقد استندت ثقة العرب الجديدة بأنفسهم إلى وهم. والسبب كان حرب الأيام الستة، تلك الحرب القصيرة الحاسمة التي غيرت خارطة الشرق الأوسط تغييراً بالغ الأثر. في عام ١٩٦٧ تمكنت إسرائيل من خلال هجوم مباغت من تحييد خطر القوات الجوية المصرية والأردنية والسورية. وقضت بذلك على أي أمل في هجوم مضاد. وكانت خروقات الحدود المستمرة والخوف من هجوم عربي هما الدافع وراء الحرب الهجومية الإسرائيلية[1].

احتلت إسرائيل سيناء وقطاع غزة الذي كان ينتمي في السابق إدارياً

---

(١) حول حرب ١٩٦٧ انظر Tom Segev ٢٠٠٧.

لمصر والضفة الغربية التي كانت آنذاك تابعة إدارياً للأردن ومرتفعات الجولان في جنوب سوريا، بما في ذلك المنفذ السوري عظيم الأهمية لمياه بحيرة طبرية. وبخلاف شبه جزيرة سيناء التي أُعيدت إلى مصر بعد اتفاقية السلام في كامب ديفيد عام ١٩٧٨، تسيطر إسرائيل ليومنا هذا على المنطقة التي احتلتها آنذاك بسكانها الفلسطينيين وتسعى لإدماج أجزاء منها داخل أراضي الدولة، أي تسعى لضمها.

قضت عمليات الاحتلال الإسرائيلي التي جرت في عام ١٩٦٧ على آمال الفلسطينيين في أن يقوموا بدعم من الدول العربية الأخرى في أقرب وقت بتدمير كيان الدولة الإسرائيلية التي لم تتأسس إلاّ في عام ١٩٤٨، وإقامة دولتهم محلها. وقد حمّل الإسلامويون، مثل حركة حماس على سبيل المثال، الفشل في استعادة فلسطين للأنظمة والأيديولوجيات العلمانية، التي أعطت الفلسطينيين أملاً في استعادة وشيكة لوطنهم، لكنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً.

ومع الاعتراف المهين بالهزيمة في حرب الأيام الستة زالت كلية الهالة الأسطورية المحيطة بالرئيس جمال عبد الناصر ومخططاته لتوحيد العرب تحت قيادته ـ تحت مسمى القومية العربية. في المقابل أدرك «الإخوان المسلمون»، خصومه في الداخل، تفوقهم واستطاعوا استغلال مشاعر العداء لإسرائيل في الرأي العام المصري (والعربي عموما) لصالحهم. قرعت هزيمة ٦٧ والموت المبكر لعبد الناصر عام ١٩٧٠ أجراس النهاية التدريجية لفكرة القومية العربية المستلهمة من الاشتراكية، وأعطى ذلك دفعة للقوى المحافظة في كل أنحاء العالم الإسلامي، وخصوصاً عندما وافق السادات، خليفة عبد الناصر، على السلام مع إسرائيل، لكي ينهي الاحتلال الإسرائيلي لشبه جزيرة سيناء.

لكن حتى في عام ١٩٨٩ هاجم ابن لادن القومية العربية الاشتراكية،

العدو الأساسي للإسلاميين: «شعاراتهم، افتحوا الإذاعات إن شئتم. وستجدوا أن شعاراتهم هي: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة: وحدة، حرية، اشتراكية! كفر بواح! يريدون أن يطبقوا مبادئ العلوج الحمر في روسيا بدل كتاب الله العظيم. [...] يريدون هذه الأمة العربية أن ينزعوها عن العالم الإسلامي وأن تحكم بالحرية الزائفة والاشتراكية الكافرة!»[١]

ثمة حدث محوري آخر من أحداث الحرب الباردة يلعب دوراً مهماً بالنسبة لتأملاتنا وهو حرب فيتنام التي انهارت فيها الأسطورة القائلة بأن الولايات المتحدة الأمريكية بلد لا يُقهر. وقد أعطى ذلك في كل أنحاء العالم تقريباً دفعة لحركات رأت أنها تخوض مثل الفيتناميين الشماليين صراعا ضد الإمبريالية. وكان الفلسطينيون أيضاً من بين هؤلاء. وبفضل الاحتجاجات المناهضة لحرب فيتنام فهم الناس في العالم العربي - الإسلامي أن مواطنات ومواطني الغرب لا يساندون بالضرورة سياسة حكوماتهم، وأنه من المحتمل أن توجد إمكانية لتغيير هذه السياسة. وتبعا لذلك سعى أيضاً ناشطون سياسيون في العالم العربي وفي نصف الكرة الأرضية المسلم الطابع إلى تنبيه الرأي العام العالمي (وهذا يعني في هذه الحالة الرأي العام في الولايات المتحدة وأوروبا) إلى قضاياهم.

وفيما يخص إيران كانت هذه المساعي ناجحة نسبيا، كما يتبدى ذلك في الاحتجاجات ضد زيارة الشاه إلى ألمانيا، التي شارك في تنظيمها وقيادتها طلبة إيرانيون، وبالأخص الزعيم الطلابي بهمان نيرومند. وقد نشر في العام ذاته كتاباً قرأه كثيرون وأسهم في تكوين رأي عن حكم الشاه القمعي و«دكتاتورية العالم الحر»[٢]. وأصبحت الاحتجاجات ضد

---

(١) Miller ٢٠١٥: ص ١٢٤ وما تلاها.

(٢) Nirumand ١٩٦٧.

الشاه لحظة محورية في حركة ٦٨ الألمانية، بعد أن قتل شرطي أثناء المظاهرات الطالب بينو أونزورغ Benno ohnsorg برصاصة أطلقها عليه عن كثب.

وهذه المرحلة لافتة أيضاً لأنها تظهر التضافر الوثيق بين عمليات التحرر الاجتماعي الشامل والانفتاح، التي أطلقها عام ٦٨ في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، والنشاطات المعادية للاستعمار والإمبريالية في الجنوب العالمي. في ذاك الوقت لم يعد ممكناً في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ممارسة سياسة خارجية نيو-كولونيالية، لا تحترم حقوق الإنسان، أو ممارسة الاستغلال الاقتصادي، دون مشاكل ودون اعتراض. على أي حال لم يعد هذا ممكناً في ديمقراطيات تتمتع بإعلام حر وبحق التظاهر. لكن يبقى ثمة شك كبير في إن كان هذا الاعتراض قد أدى باستمرار إلى انتهاج سياسة مغايرة. صحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية قد انسحبت من فيتنام؛ لكنها استمرت مع ذلك في ممارسة سياسة نيو-إمبريالية، خصوصاً في أمريكا الوسطى والجنوبية.

لكن ما نجح فيه الإيرانيون على الأقل، وهو تعبئة قطاعات مهمة من الرأي العام الغربي ضد الشاه، الطاغية الحاكم في بلادهم، لم يُقدَّر للفلسطينيين تحقيقه. وهذا الفشل هو الذي أطلق شرارة أولى العمليات الإرهابية التي ارتُكبت في أوروبا، انطلاقاً من العالم العربي الإسلامي. وتعود جذورها للنزاع حول فلسطين التي كانت في السابق منطقة تحت الانتداب البريطاني، ودخل جزء كبير منها منذ عام ١٩٤٨ ضمن أراضي دولة إسرائيل التي تأسست حديثاً.

انقسمت منطقة الانتداب إلى الضفة الغربية لنهر الأردن و«إمارة» شرق الأردن، التي انبثقت منها المملكة الأردنية حالياً. لم يُسمح لمهاجرين يهود جاءوا آنذاك بدعوة من سلطة الانتداب البريطاني

بالاستيطان إلاّ في الضفة الغربية التي أصبحت منذ ذاك الوقت محل صراع بين العرب واليهود المهاجرين. وكان لانتقال الصراع إلى العالم في الخارج بعد حرب عام ١٩٦٧، عندما احتلت إسرائيل أيضاً ما تبقى من الضفة الغربية، أسباب دعائية: وتعلق الأمر بلفت الانتباه عموماً إلى وجود صراع في فلسطين ـ وخصوصاً لفت انتباه الدول الغربية الحليفة للولايات المتحدة الأمريكية التي تساند إسرائيل وتتجاهل وجهة النظر الفلسطينية.

لكن الأثر الدعائي لإرهاب التنظيمات الفلسطينية كان في أفضل الأحوال سلاحاً ذو حدين. صحيح أن الفلسطينيين قد حصلوا على الانتباه المنشود وظل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي منذ ذلك الحين يحتل عناوين الصحف. لكنهم لم يحظوا من خلال هذه العمليات بأي تعاطف يذكر. وأوضح مثال على ذلك الهجوم العنيف والعبثي على المنتخب الإسرائيلي في الألعاب الأولمبية عام ١٩٧٢.

لكن بعد ذلك بسبع سنوات وقعت أحداث عالمية عديدة، أعطت للإسلام السياسي المسلح دفعة حاسمة، وصبغت تحوله المعادي للغرب: إنها الثورة الإسلامية في إيران ومعاهدة كامب ديفيد للسلام، ودخول القوات السوفيتية إلى أفغانستان، وأخيراً احتلال الحرم المكي على يد طائفة إسلامية مسلحة. ويمكن للمرء أن يطلق على العام ١٩٧٩ عن حق وجدارة سنة حاسمة ومؤسسة لعصر جديد.

الثورة الإسلامية في إيران

في فبراير/شباط ١٩٧٩ عاد رجل الدين الشيعي آية الله الخميني من منفاه في فرنسا إلى إيران في موكب نصر احتفالي (عبارة عن طائرة تقله مع عدد كبير من الصحفيين الغربيين). وقد استُقبل الرجل ذو القداسة الذي كان يبدو ظاهرياً فوق كل الأحزاب ورمزاً كاريزماتياً لمقاومة الشاه، بالتهليل الصاخب وشارك في ذلك في البداية إيرانيون غير متدينين. وبعد ذلك شهرين أرست الجمهورية الإسلامية أسسها. وكان الشاه محمد رضا بهلوي قد فر من البلاد قبل ذلك بأسابيع. ولسخرية التاريخ، فقد كان من الممكن للإيرانيين أن يتخلصوا من الشاه أيضاً في وقت قريب دون الحاجة للخميني ـ فقد توفي الشاه بعد ذلك بعام في القاهرة جراء مرضه بالسرطان. في غضون ذلك بقي الخميني وقام بالتخلص من كل القوى التي تعترض طريق حكمه للبلاد، وذلك بوحشية فاقت بشكل مضاعف وحشية الشاه.

مع الثورة الإيرانية وللمرة الأولى منذ انتشار نظام الدولة القومية في العالم الإسلامي، تولى فقهاء وملالي قيادة دولة حديثة. أما الدول الأخرى التي تستند أيضاً إلى الدين في المنطقة، فهي ممالك أو إمارات مثل المغرب والسعودية والكويت. وكان لرجال الدين في هذه البلدان دور مهم، لكن ليس كقادة سياسيين.

وحتى في عصور أقدم، مثل أيام الدولة العثمانية أو حكم المغول في

الهند، لم يكن الحكام رجال دين، بل كانوا يصلون للسلطة بالوراثة مثل الأسر الحاكمة في أوروبا. وكان على هؤلاء الحكام أن ينسقوا الأمور مع الفقهاء الذين لم تكن لديهم أملاك دنيوية خاصة ـ على عكس ما كان عليه الحال في الكنيسة في أوروبا ـ وبالتالي لم يمتلكوا أي أساس آخر لسلطتهم سوى سمعتهم ومعرفتهم بأحكام الشريعة. وكان هذا التنسيق يكلل بالنجاح بدرجة أكبر أو أقل.

اللافت أن تولي الملالي للسلطة في إيران لم يجد له مقلدين في أي مكان في العالم الإسلامي. ومع ذلك لا تزال الجمهورية الإسلامية قائمة منذ أكثر من أربعين عاماً، أي أنها استمرت لمدة أطول من جمهورية ألمانيا الديمقراطية وهذا رغم شروط السياسة الخارجية الصعبة ومن دون وجود حلفاء أقوياء ويعد هذا من منظور النظام الإيراني قصة نجاح.

في عام ١٩٧٩ وجد الإيرانيون طريقاً أصيلاً خاصاً بهم ـ وهو بالطبع إشكالي للغاية ـ بين نماذج النزعة القومية الأوروبية الأصل والاشتراكية والليبرالية، طريقاً سعت دول كثيرة بعد تحررها من الاستعمار للوصول إليه، ولكن دون جدوى. يبرز النموذج الإيراني العديد من الملامح الحديثة والجمهورية والديمقراطية (برلمان منتخب ورئيس جمهورية، مثلاً)، لكنه محكوم بهيمنة الملالي. ولا يعد هذا عودة إلى عصور وسطى مظلمة، بل طريقاً خاصاً من طرق الحداثة. وما يبدو لمراقبين كثر على أنه رجعي فيه، هو التوجه الثوري الاجتماعي للدين وانصهاره مع الدولة، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل في مكان آخر.

وقد اكتسبت إيران من خلال الثورة الإسلامية ميزة إضافية أخرى تتميز بها على جيرانها من الدول العربية: فلأن الدين يحكم الدولة، لا توجد معارضة إسلامية ذات وزن، وذلك على خلاف الوضع في الدول العربية (حتى في السعودية ذات التدين الصارم، والتي يحكمها مع ذلك

ملك). لا يجد المرء سوى بعض المثقفين النقديين، ومن بينهم أيضاً ملالي مثقفون، يستندون في آرائهم إلى الدين؛ لكن جميعهم تقريباً يمثلون اتجاها في النظام يتسم بالاعتدال والانفتاح على العالم[1]. وبذلك تعد إيران واحدة من الدول القليلة في المنطقة التي روضت الإسلام من الناحية السياسية الأمنية، حتى ولوكان ثمن ذلك غاليا: وهو عدم القدرة على التخلص منه وتحول الدولة نفسها إلى سوط ديني شرعي يلهب ظهور مواطنيها.

وفي سياقنا هذا تكمن أهمية الطريق الإيراني في أنه قد ألهم قوى دينية في دول إسلامية أخرى، ومنها حتى تلك القوى التي لا تكن بطبيعتها سوى القليل من المودة للنسخة الشيعية من الإسلام التي تمثلها إيران. إضافة إلى ذلك، فقد أظهرت الجمهورية الإسلامية أنه بالإمكان انتهاج طريق خاص في الحداثة دون الاعتماد على مساعدة تذكر من الخارج.

في الوقت ذاته أثبت الإسلام السياسي من خلال النموذج الإيراني، أنه كان قادراً ـ مع اشتراط وجود زعماء يتمتعون بالكاريزما ـ على تولي إدارة دولة وأن يقود هذه الدولة ويحافظ عليها، رغم المقاومة الكبيرة التي تعرض لها من الخارج ومن الداخل. وطالما أن الجمهورية الإسلامية تقف في مواجهة الأفكار العلمانية للاشتراكية والليبرالية وتقف في نهاية المطاف في وجه القوة العظمى الوحيدة المتبقي، فإنها بذلك تحقق أحلام رواد الفكر وأصحاب الرؤى الإسلامويين من النصف الأول النصف الأول للقرن الماضي. وقد كان وارداً أيضاً أن يرحب بالجمهورية الإسلامية أشخاص غير مسلمين، كانوا يأملون في طريق أصيل تنتهجه دول عدم الانحياز، أي الدول التي لم ترغب في التحالف مع الاتحاد السوفيتي ولا الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) نظرات وأمثلة لدى: Amirpur ٢٠٠٩.

ورث الإسلام، وهذا أمر جوهري لتأملاتنا، في هيئة الجمهورية الإسلامية الموقف المعادي للإمبريالية (أي المعادي لأمريكا، المعادي للغرب، المعادي للاستعمار)، الذي كان يرتبط في السابق فقط بالاشتراكية، ويعود رغم عدائه للغرب، في أصوله للتاريخ وللتراث الفكري الأوروبي والغربي. وحتى منتقدو الإسلام سيقرون أن تحويل الإسلام إلى إيديولوجية تحرر اجتماعية ثورية هو مجرد نتيجة ـ ففي نهاية المطاف كان هناك أيضاً لاهوت التحرير المسيحي في جنوب ووسط أمريكا اللاتينية، أي البلدان التي كانت تكافح أيضاً ضد الوصاية الأمريكية. وبهذا يتضح لماذا تعاطف مفكر نقدي ومناهض للسلطوية مثل الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو لفترة قصيرة مع الثورة الإيرانية[1].

لكن الأمريكيين وحلفاءهم العرب ظنوا أن نشأة إسلام ثوري مناهض للغرب هو طريق شيعي خاص. ومن أجل فرض هذه الرؤية، قامت الملكيات العربية المحافظة ذات الطابع السني مع حلفائها الغربيين ـ وجميعها كانت تخشى من الحراك الثوري للشيعة ـ بتضخيم الخلاف الشيعي السني ليصبح نزاعا لا يمكن حسب مزاعمهم تسويته. ومنذ ذلك الوقت، تجد الأقليات الشيعية في العالم العربي نفسها في مرمى النيران الإيديولوجي، في حين أن إيران تمكنت فعلياً من أن تجند لصالحها قطاعات من الشيعة في البلدان العربية المحيطة وأن تستخدمهم في سياستها الخارجية. ينطبق ذلك على وجه الخصوص على لبنان، التي يعد حزب الله أحد ممثلي الشيعة فيها، وفي اليمن حيث يتحالف المتمردون الحوثيون الذين يحكمون في صنعاء حالياً مع إيران. كما يسري ذلك أيضاً على العلويين المحيطين بالرئيس بشار الأسد في سوريا وعلى الشيعة في العراق، الذين يشكلون مع ذلك غالبية السكان.

---

(١) Afary ٢٠٠٥.

ولسخرية التاريخ: استطاعت إيران لحد كبير أن تستغل هذا الخط الفاصل المصطنع والمفروض بالقوة بين السنة والشيعة لأغراضها وذلك على نحو أفضل بكثير من هؤلاء الذين أشعلوا فتيل هذا النزاع من أجل تقليص نفوذ إيران.

اغتيال السادات في مصر

وقع الحدث المدوي الثاني في ٢٦ مارس/ أذار عام ١٩٧٩. في هذا اليوم وقع الرئيس المصري أنور السادات، الذي تخلى عن السياسة القومية العربية ذات الاستلهام الاشتراكي التي انتهجها سلفه جمال عبد الناصر، في كامب ديفيد بأمريكا معاهدة سلام مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغين. وبهذا خرجت أقوى دولة عربية من الجبهة العربية في مواجهة إسرائيل. في السابق كانت مصر في عهد عبد الناصر الذي توفي مبكراً عام ١٩٧٠، رأس الحربة ضد إسرائيل. وبمعاهدة السلام تحطمت آمال الكثيرين في هزيمة إسرائيل عسكريا تحطما تاما. لكن السادات وقف بسياسة السلام لتي انتهجها وحيداً بين القادة العرب ولم يتمكن من إقناع الشعب المصري بمزايا إبرام اتفاق السلام. وفي عام ١٩٨١ اغتيل في هجوم للإسلاميين أثناء عرض عسكري، ووصل نائبه حسني مبارك إلى السلطة، وبقي في الحكم إلى أن تمت تنحيته عام ٢٠١١ كنتيجة لأحداث الربيع العربي (انظر لاحقاً ص١٧٦).

مع اغتيال السادات تمكن الإسلامويون من إظهار أنفسهم على أنهم المناضلون الحقيقيون ضد إسرائيل. ووفقاً لذلك ظل تأثير المصريين على الحركات الإسلاموية المسلحة قويا. ومن أبرزهم الطبيب المصري أيمن الظواهري، الذي أُلقي القبض عليه بعد اغتيال السادات، وانضم إلى ابن لادن في الثمانينات. ومنذ مقتل ابن لادن في عام ٢٠١١ يعد الظواهري

زعيما لتنظيم القاعدة. وهو ضالع لحد كبير في الإعداد لهجمات ١١ سبتمبر/أيلول ويمثل هذه الاستمرارية بين الإرهاب الدولي والإرهاب الإسلاموي الأقدم في داخل العالم العربي.

ورغم أن الإسلامويين استفادوا من أزمة المصداقية لدى الأنظمة العربية العلمانية، إلاّ أنهم لم يتمكنوا إلى في حالات نادرة فقط من تعبئة غالبية الجماهير أو حتى من تولي السلطة. وأينما تمكنوا من ذلك، كان يتعرضون في كل مكان تقريباً للإقصاء بعنف. وهذا ما حدث في الجزائر، حيثما حُسمت الانتخابات لصالحهم عام ١٩٨٨، وفي الأراضي الفلسطينية حيث فازوا في الانتخابات عام ٢٠٠٦، وفي مصر حيث أُقصي الرئيس محمد مرسي، مرشح جماعة «الإخوان المسلمون» المنتخب عام ٢٠١٢، من منصبه بعد ذلك بعام على يد وزير دفاعه، الرئيس الحالي عبد الفتاح السيسي.

هذه الأحداث مهمة للتاريخ السابق واللاحق على هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، لأنها تفسر أسباب انتقال الحركات الإسلاموية المسلحة لأهداف أوسع خارج المنطقة العربية. لم يجد الإسلامويون في بلدانهم وفي السياق المحدد الذي أرادوا أن يكونوا في الأصل فاعلين فيه بشكل حقيقي ـ حتى بن لادن كان يرغب في ذلك ـ أي إمكانات للتطور. وكانت تطلعاتهم لنشاط سياسي فعال شبه معدومة. وقد منحت القاعدة ومن بعدها ما يسمى بـ«تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام» وكذلك الجماعات الإرهابية الأخرى للإسلاميين المحبطين المستعدين لممارسة العنف موطناً وأيضاً أهدافاً طموحة جديدة.

احتلال الحرم المكي

في السعودية وقعت كذلك في عام ١٩٧٩ محاولة انقلاب كانت تستلهم أفكاراً إسلامية (في البداية اتهم السعوديون الخميني خطأ بالوقوف وراءها)، وذلك عندما قامت جماعة إسلامية متطرفة مع زعيم أعطى لنفسه لقب المهدي المنتظر باحتلال أقدس مكان لدى المسلمين وهو الحرم المكي[١].

نشأت في الجامعات السعودية والأوساط الدينية خلال السبعينات حركة تدعو للتدين الحقيقي، وسُميت بالصحوة. وكانت متأثرة بمفكري جماعة «الإخوان المسلمون» المصرية، وحاضرة على وجه الخصوص في مؤسسات التعليم وكانت علاقتها بالنشاط السياسي متصدعة. فبالذات في ابتعادها عن السياسة (عادة ما كانت تنأى أيضاً عن العنف كوسيلة سياسية) كانت تكمن مع ذلك قوتها الانفجارية. وانجذب لتيارها الجارف بن لادن والكثير من الجهاديين اللاحقين له. «كثير من خطبه»، كما يكتب فلاغ ميلر Flagg Miller الباحث المختص بابن لادن، «تعكس مشاعر الإصلاحيين السعوديين الذين شكلوا في الثمانينات والتسعينات حركة الصحوة»[٢]. أما محتلو الحرم المكي الذين شكلوا طائفتهم الخاصة،

---

(١) Trofimov ٢٠٠٨.

(٢) Miller ٢٠١٥: ص ٩.

فقد تصرفوا بشكل مستقل عن حركة الصحوة، لكنهم كانوا ضمن التوجه الجديد الذي يستغل الإسلام كتعبير عن معارضة سياسية وأيديولوجية ودينية ضد الأوضاع والأنظمة السائدة. ولم يمكن تحرير الحرم المكي من المحتلين المستعدين لعمل أي شيء والمدججين بسلاح ثقيل إلاّ بمساعدة إحدى وحدات النخبة الفرنسية. قبل الاقتحام كان على الفرنسيين الحصول على خطط البناء الخاصة بمبنى الحرم ذي المعالم الواضحة والذي شيد حديثا قبل بضعة أعوام ـ وذلك على يد شركة التعمير الأكثر شهرة في السعودية، التي ترتبط بصلات مباشرة مع العائلة المالكة: إنها شركة ابن لادن، التي أسسها والد أسامة بن لادن. لقد جاء في الماضي من اليمن الفقير إلى السعودية كعامل مياوم. وعندما مات في حادث سقوط طائرة في ٣ سبتمبر/أيلول عام ١٩٦٨ وهو في التاسعة والخمسين من العمر، كان يعد من أغنى رجال الأعمال في البلاد. كان ابنه أسامة بن لادن آنذاك في الحادية عشر من عمره، ولم يكن لديه كواحد من ٥٦ طفلاً من ٢٢ زيجة أي اتصال تقريباً بوالده ذي الانشغالات الكثيرة[١].

كان اقتحام الحرم المكي بواسطة جنود مرتزقة أجانب، تحولوا شكليا للإسلام، يمثل مهانة للعائلة المالكة السعودية وقد ضُعضعت هيبتها، وهي المسؤولة عن حماية «الحرمين الشريفين». حتى ذاك الوقت كانوا يظنون أن مصدر الخطر على الأسرة الحاكمة هما فقط الشيوعية والقومية العربية ذات الصبغة الاشتراكية التي تبناها جمال عبد الناصر، الذي خاض بدوره ضد السعودية حرباً بالوكالة في اليمن. ثم تبين أن بمقدور الإسلامويين أيضاً أن يلجأوا للسلاح في مواجهة العائلة المالكة.

وفي أعقاب أحداث عام ١٩٧٩ مهدت السعودية بضغط من

---

(١) عن الخلفية العائلية لابن لادن، انظر Coll ٢٠٠٨.

المتشددين لتحول سياسي داخلي حاسم في البلاد. أملا في أن يقوم فقهاء الوهابية، الذين كانوا حلفاء للعائلة المالكة ومنحوها شرعية الحكم، بالسيطرة على الحركات الإسلاموية، قام السعوديون بدعم نشاطات الدعاية الوهابية في داخل وخارج البلاد وأسهموا بشكل جوهري في خلق أجواء ينمو فيها الإرهاب الإسلاموي وينتعش باستمرار. من بين منفذي اعتداءات ١١ سبتمبر/أيلول التسعة عشر، كان هناك خمسة عشر مواطنا سعوديا.

الوهابية والسلفية

إن المذهب الوهابي الذي يتمتع في السعودية عمليا بوضعية دين الدولة، هو عبارة عن تفسير للدين يتسم بالتزمت والطابع الإقليمي المحدود ومعاداة الأجانب. ويعود في نشأته إلى الفقيه محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) الذي نشط في شبه الجزيرة العربية في المنطقة المحيطة بالعاصمة الرياض حالياً، ويمكن اعتباره أيضاً مصلحا في جوانب عدة.

قدمت الوهابية إذن الأيديولوجية التي بررت بها أسرة آل سعود الحاكمة (تأسست على يد محمد بن سعود بين عامي ١٧٣٥ و١٧٦٥) غزواتها وحكمها. في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظلت مملكتهم مقتصرة على بعض الواحات والمدن الصغيرة في وسط شبه الجزيرة العربية، دون اتصال ببقية العالم، إذا ما غضضنا الطرف عن بعض حملات السلب التي كانوا يستهدفون بها المناطق الشيعية، كما كانوا يفعلون في جنوب العراق مثلاً.

لم تكن الوهابية أيضاً موجهة ضد أوروبا أو المسيحيين، الذين لم يعرف أتباع الوهابية عنهم شيئاً، بل كانت تستهدف الإسلام الكوزموبوليتي المنفتح على العالم وإسلام حواضر البحر المتوسط المهجن مع ثقافات أخرى، وتلك الأماكن من العالم الإسلامي مثل الموانئ ومدن الحجاج التي كانت في حالة تواصل مكثف مع العالم

الخارجي. هذه الأماكن كانت عرضة بانتظام للتأثيرات الجديدة والغريبة وقد أدمجت هذه التأثيرات ضمن تصورها عن العالم وفهمها للإسلام الذي أصبح من خلال ذلك تعدديا. وليومنا هذا تعد منطقة الحجاز الواقعة على البحر الأحمر والمحيطة بالحرمين الشريفين مكة والمدينة منفتحة على العالم مقارنة بالعاصمة السعودية الرياض[1].

يمكن مقارنة الوهابيين من أوجه عدة بالحركات المستلهمة من الدين التي نشأت منذ القرن السادس عشر في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، مثل البروتستانتية والكالفينية. يوجد على سبيل المثال تشابه في النظر إلى الإيمان بالنص المقدس وطموحهم للعودة إلى جذور الدين، وتحدي العادات الدينية المتوارثة. وقد وصلت فروع هذه الحركات المماثلة في أوروبا سواء من خلال الهجرة القسرية أو الطوعية إلى أمريكا الشمالية، حيثما كانوا يأملون في أن يعيشوا تصوراتهم الدينية من دون خوف ومن دون وصاية واضطهاد. ومع ذلك كانوا يمارسون أحياناً عزلة ذاتية ويضعون الحدود مع الخارج مثل الوهابيين.

هنا وهناك، في أوروبا وأمريكا وكذلك في شبه الجزيرة العربية، نلاحظ لدى هذه الحركات الدينية حدوث عمليات تأكيد الذات وتشكيل الهوية والأدلجة نظراً لخبراتها السابقة السيئة مع التغيرات العالمية، ومع عمليات التبادل عبر التجارة المكثفة مع العالم كله ومع التدخلات الخارجية الإمبريالية والاستعمارية وتنامي القدرة على الحركة والمرونة بكل مشاعر الغربة والاغتراب المتولدة عن ذلك.

ظهرت هذه التحديات في الواحات المعزولة بعيداً عن العالم في شبه الجزيرة العربية في وقت متأخر مقارنة بمناطق أخرى في العالم الإسلامي

---

(١) حول الأجواء الكوزموبوليتية في جدة ومكة انظر Freitag ٢٠١٩.

أو مقارنة ببريطانيا وحوض البحر المتوسط، حيث جلبت حركة الملاحة البحرية معها دائماً تواصلاً وتبادلاً مكثفاً. رغم ذلك فقد أدت الخبرات الناتجة عن ذلك لدى المتدينين من الناس في أنحاء كثيرة من العالم ردود فعل مشابهة: تحطيم الأيقونات والتماثيل، والغضب على المؤسسات الراسخة، والعودة إلى أصالة وهمية وجذور مشبوهة، والتركيز على الخاص، والانعزال، المقرون في كثير من الأحيان بموقف عدواني، تجاه بقية العالم التي يُنظر لها بوصفها عدوّاً. ومن السهل التعرف على هذه الموتيفات في هيئة الأحزاب اليمينية الشعبوية الحالية، وحتى في الديمقراطيات الليبرالية بطول الأرض وعرضها. والمفاجئ أن هذا ليس مرتبطاً بثقافة معينة أو دين بعينه.

ثمة جدال حول ما إذا كان مصدر الصورة القبيحة التي تظهر بها الوهابية في السعودية في الربع الأخير من القرن العشرين يعود إلى تأثير محمد بن عبد الوهاب شخصيا، أو إلى تأثيرات أقدم. بعض الأشياء المنسوبة للمذهب الوهابي لا يمكن إثباتها في مؤلفات ابن عبد الوهاب، ومصدرها هو الفقيه القروسطي المتطرف ابن تيمية (١٢٣٦ ـ ١٣٢٨)، مؤسس السلفية. اعتبر ابن تيمية إنه يجوز الخروج على الحكام المسلمين، إذا لم يكن حكمهم إسلامياً، وفقاً لما تشير إليه الباحثة المتخصصة في المذهب الوهابي ناتانا ج. ديلونج-با J. De Long-Bas Natana: «ينقل ابن تيمية تصوراً فكرياً، وإيديولوجية، تسمح بالثورة على حاكم غير أمين، حيث ينزع الفقيه عن السلطان صفته كمسلم، مبرراً ذلك بأنه لم يف بمسؤوليته إزاء الإسلام»[١].

وقد برر ذلك في القرن التاسع عشر انتفاضة أسرة آل سعود على السيادة العثمانية واستُخدم كمبرر في القرن العشرين للثورة على الحكام

---

(١) Delong-Bas ٢٠١٤: ص ٢٤٧.

المستبدين أو على الزعماء الاشتراكيين أو المؤيدين للغرب، كما في حالة اغتيال السادات. لكن ابن لادن برر على هذا الأساس أيضاً محاربته لحكم آل سعود.

بفضل عائدات النفط أو «البترودولار» أصبحت الوهابية وسيلة مهمة للسياسة السعودية الداخلية والخارجية، مثلما طُورت عام ١٩٧٩ لكي تحول طاقة الاحتجاج الكامنة لدى المتعصبين الدينيين إلى الخارج. وبهذا اكتسبت الوهابية أو التيارات القريبة منها مثل السلفية المستندة إلى ابن تيمية، تأثيراً هائلاً على الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم.

منذ هجمات ١١ سبتمبر/أيلول ظهر الإسلام المتعصب الضيق الأفق، الذي يروج له على هذا النحو، وأصبح خميرة للإرهاب، كمرآة للتيارات العنصرية المعادية للسامية وللإسلام الموجودة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن بعيد. كلاهما يشكل أممية لضيق الأفق، ويبدو في الظاهر أنهما يحرضان على بعضهما، لكن يتبين في الخلفية أن بينهما أشياء كثيرة مشتركة. لقد أدى تطور الوسائط الإعلامية والاقتصاد المعولم وزيادة الهجرة إلى حدوث تماس بين هذين الخطابين المنفصلين أنتج غرفة صدى مشتركة تغلب عليها مشاعر العداء المتبادلة ومنطق الصديق العدو.

وإذا ما أراد المرء الوقوف في وجه هذه القوى، فمن المهم استبصار منطقها. عندئذ فقط تفقد مصداقيتها، ووجاهتها وقدرتها الظاهرية على الإقناع. يمكن القول ببساطة: من لا يرغب في وجود بن لادن، لا يمكن أن يرغب في وجود الشعبوية الجديدة الهوياتية ضيقة الأفق، أي «سلفية الغرب»، التي حظيت بإقبال عليها في كثير من الدول الديمقراطية. ويجري تصوير هذه الشعبوية بوصفها قوة حماية في مواجهة الإسلام المتطرف، لكنها مصنوعة من العجين المتعفن ذاته.

من بين الجوانب العديدة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، ثمة جانب يندر الحديث عنه إلاّ نادراً، وهو يُعدّ شكلاً من أشكال العدوى السياسية، في حين أن الفيروس يكمن، إن جاز قول ذلك في نقص الشرعية السياسية، الذي يتسم به مثلاً حكم آل سعود. يعد هذا النقص في الشرعية السياسية وما يترتب عليه من اضطرابات وسخط في السعودية مصدراً أساسياً للإرهاب وقد كان فوق ذلك السبب الملموس لتسييس وتطرف ابن لادن، الذي كان الوضع السياسي في داخل السعودية نصب عينيه دائماً.

ولكن إذا كان الإرهاب هو الرد على هذا النقص في الشرعية، فقد أسهم هذا الإرهاب وردود الفعل الغربية عليه في العقدين التاليين على هجمات الحادي عشر من سبتمبر أيلول في إحداث أزمات في شرعية الديمقراطيات الغربية أيضاً. وهذا فيما يخص سلطة تدخل الدولة والموازنة بين المصالح الأمنية والحريات المكفولة قانونيا أو السؤال عن مدى تحكم الدولة في حدودها وهو ما أدى لجدل حاد خلال سنوات أزمة اللاجئين، كما يتعلق الأمر بالديمقراطية نفسها: ففي الشعبوية اليمينية يكمن خطر القضاء الذاتي على الديمقراطية بوسائل ديمقراطية.

عوضاً عن العدوى السياسية، يمكن للمرء بالطبع الحديث عن «حركة نفور» «نتجت عن التأثيرات السلبية للعولمة»، مثلما يجري وصف الأمر في الأدبيات الأحدث لعلم السياسة وعلم الاجتماع: «طالما أن هذه التأثيرات الجانبية قد ظهرت في أماكن بعيدة جداً (في حالتنا هنا العالم العربي والسعودية)، فبإمكاننا تفسيرها بوصفها أوجه عجز لدى دول الجنوب العالمي، وليس كمشكلة عامة مرتبطة بالرأسمالية، يستند إليها ثراء ورخاء المراكز الصناعية» كما تكتب عالمة الاجتماع الأمريكية ميشيل وليامز Williams Michelle[1].

---

(١) Williams ٢٠١٩: ص ٥٩.

لقد أعاد الإرهاب نقل «أوجه العجز» هذه إلى المراكز الصناعية «للغرب»، وهو الأمر الذي لم يعد ممكناً غض الطرف عنه بعد ٢٠ عاماً من وقوع هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول.

الحرب السوفيتية في أفغانستان، وانهيار الكتلة الشرقية وبدايات ابن لادن

لكن أكثر أحداث عام ١٩٧٩ أهمية بالنسبة للتاريخ السابق المرتبط ارتباطاً مباشراً بهجمات ١١ سبتمبر /أيلول، كان غزو قوات الجيش الأحمر لأفغانستان. أراد الاتحاد السوفيتي بهذا التدخل دعم الشيوعيين الذي وصلوا للسلطة بانقلاب في العام المنصرم. في مواجهة ذلك نظمت الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها مورداً للسلاح والسعودية كممول وباكستان كدولة مجاورة، ميليشيا لحرب العصابات، سُميت بالمجاهدين.

وجد الإسلامويون المتعصبون ومعارضو النظام السعودي في الداخل في أفغانستان مجال نشاط جديد تُقدر فيه جهودهم. وكان من بينهم أسامة بن لادن، ابن مقاول البناء المعروف، المولود عام ١٩٥٧ الذي كان حتى ذاك الحين أقل لفتا للأنظار. كان يعد منذ صغره متديناً، ولكنه اتصف أيضاً بالخجل ورقة الحاشية. درس إدارة الأعمال في جدة، على الأرجح لكي يشارك في أعمال العائلة التجارية، لكنه لم ينه دراسته. عوضاً عن ذلك اهتم كثيراً جداً بنشاطات الحلقات الدينية. وفيها انخرط في تواصل مع محمد قطب، أخي سيد قطب، المفكر الرائد الكبير المعادي للغرب لدى جماعة «الإخوان المسلمون» في مصر، الذي أُعدم عام ١٩٦٦ بسبب نشاطاته المعادية لنظام جمال عبد الناصر.

لكن لقاءات ابن لادن مع الفلسطيني عبد الله عزام (١٩٤١ ـ ١٩٨٩)، عضو جماعة «الإخوان المسلمون» وأحد منظري الجهاد الدولي، الذي كان يدرس وقتها في جامعة جدة، كانت أكثر أهمية[١]. وقد أكد على ضرورة اضطلاع المسلمين بالجهاد في السياق العالمي، وليس كما كان معتاداً في السابق، أي في الصراعات على المستوى الوطني، كل على حدة، ضد الأنظمة العلمانية أو قوات الاحتلال. تبنى ابن لادن هذه الرؤية للجهاد الإسلامي من أجل العدالة ـ وبالنسبة لهؤلاء النشطاء كان ذلك معادلاً في معناه لإقامة مجتمع إسلامي. وقد أقنع عزام ابن لادن بدعم الجهاد ضد السوفييت في أفغانستان. وفي عام ١٩٨٠ ذهب عزام إلى باكستان وكان على اتصال وثيق مع المجاهدين.

ثمة تقارير متباينة بشأن توقيت سفر أسامة نفسه للمرة الأولى إلى أفغانستان ـ من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث بالفعل في عام ١٩٨٠. المؤكد أنه قد بدأ منذ عام ١٩٨٤ في جمع تبرعات للمتمردين وأدار في مدينة بيشاور الباكستانية، غير بعيد عن الحدود مع أفغانستان، نُزلا للمرتزقة العرب العابرين ولتجنيد مقاتلين جدد. كان عبد الله عزام بدوره نشطاً في بيشاور وكان يدير هناك ما يشبه منظمة غير حكومية لدعم الجهاد ضد السوفييت، بعد أن تخلى عن وظيفته كأستاذ جامعي في العاصمة الباكستانية إسلام أباد. وقد أسس عزام وابن لادن مع أيمن الظواهري الذي سبق ذكره (من مواليد ١٩٥٠ وكان متورطاً في اغتيال السادات) وكان آنذاك زعيما لتنظيم الجهاد الإسلامي المصري، تنظيم القاعدة في عام ١٩٨٨، وهو التنظيم الذي كان مسؤولا فيما بعد عن هجمات ١١ سبتمبر/أيلول وهجمات أخرى عديدة. والظواهري هو واحد من آخر الإرهابيين الباقيين على قيد الحياة من فترة تأسيس القاعدة. ومنذ مقتل ابن لادن عام ٢٠١١ أصبح الظواهري هو أمير تنظيم القاعدة.

---

(١) حول علاقة ابن لادن بعزام انظر Scheuer: ص ٥٢ وما تلاها.

تحولت حرب أفغانستان إلى أكبر ملتقى ومعسكر تدريب للجهاديين والمغامرين والمرتزقة والناشطين وأصحاب الأيديولوجيات والمتعصبين من كافة أنحاء العالم الإسلامي ـ وجزئيا من الغرب، كما نقرأ في كتب السيرة الذاتية لمؤلفين مثل وليم ت. فولمان William T. Vollmann وأوليفيه روي Olivier Roy[1].

عندما انسحب الجيش الأحمر في عام ١٩٨٩ بعد هزيمة ثقيلة، عاد معظم المقاتلين إلى بلدانهم الأصلية وواصلوا الصراع مع حكومات بلادهم. في الجزائر بالذات حدث ذلك على نحو عنيف، حيث لم يُعترف بفوز الإسلامويين في الانتخابات عام ١٩٨٨، واندلعت في إثر ذلك حربا أهلية دموية استمرت نحو عشر سنوات. لكن السعودية كانت أيضاً مستهدفة، كما يتبين ذلك من مسيرة ابن لادن. في مؤلفه عن سيرة الزعيم الإرهابي يكتب مايكل شوير Michael Scheuer، الذي كان مسؤولا عن وحدة خاصة بمراقبة ابن لادن في المخابرات المركزية الأمريكية في الفترة ما بين عامي ١٩٩٦ و١٩٩٩: «غادر ابن لادن أفغانستان ولديه رؤية عالمية، سيستخدمها لكي يقدِّر، كيف سيمكن له هزيمة «أعداء الله». كان مستعداً للإقبال على عالم أصبح معولماً أتاح له بالضبط الأدوات التي احتاجها ليحرض على الجهاد العالمي»[2].

منح انتصار المجاهدين في أفغانستان للحركات الإسلاموية المسلحة هالة من التفوق وخلق الأسطورة بأنهم قادرون على كسب أي نزاع عسكري وعلى هزيمة قوة عظمى وإسقاطها. وفي عام الانسحاب السوفيتي من أفغانستان ذاته سقط جدار برلين وانهارت الكتلة الشيوعية. فلماذا لا يكررون ذلك مع القوة العظمى الأخرى التي أصبحت الآن هي

---

(١) Vollmann 2003; Roy ٢٠١٧.

(٢) Scheuer ٢٠١١: ص ٧٨.

الأخيرة المتبقية، أي مع الولايات المتحدة، إلى أن يتحرر العالم الإسلامي في النهاية ربما من نفوذ الغرب (كما تحرر عام ١٩٨٩ من النفوذ الاشتراكي)، هذا هو الاستنتاج الذي لا يعد غير منطقي على الإطلاق لهؤلاء الحالمين وأصحاب الرؤى، بدءاً من ابن لادن ووصولا إلى مروجي دعايات «الدولة الإسلامية»، وطالبان. والآن من منظور القرن الحادي والعشرين، ألم يكونوا حتى محقين في ذلك؟

من الصعب حقاً أن يكون الجهاد وحده هو الذي أدى إلى الانهيار الملحوظ للغرب، أي «اللاغربنة». لقد كانت الأخطاء الفادحة للسياسية الأوروبية، والأمريكية بالأخص بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول هي بالأحرى السبب في ذلك. لكن مع الهجمات في نيويورك وواشنطن مهد ابن لادن لهذا الانهيار وجعله ممكناً. فلولا إرهابه وردود الفعل الغاضبة العمياء عليه، لكان هذا «الغرب» بالتأكيد في وضع أفضل، ولكان الطريق ممهداً ربما للانتقال الذي لا محيد عنه من الفكرة المتقادمة البيضاء جداً والأوروبية جداً عن «الغرب» إلى رؤية كوزموبوليتية أخرى أفضل للعالم.

كان لانهيار الكتلة الشيوعية آثار واسعة النطاق. لقد كانت له تأثيرات سلبية جسيمة على الدول والمنظمات العربية المتحالفة مع الاتحاد السوفيتي، التي فقدت فجأة أهم داعم وممول لها. ومن بينها منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. وقد قبلت بالدخول في مفاوضات سلام مع إسرائيل نظراً لنقص الخيارات. وأصبحت المقاومة المسلحة ضد إسرائيل ومعاداتها على نحو لا هوادة فيه شأن الإسلامويين وحدهم، الذين اكتسبوا مرة أخرى مزيداً من المصداقية. وقد تجمعوا في الأراضي الفلسطينية تحت راية حركة حماس، الفرع الفلسطيني من جماعة «الإخوان المسلمون» التي سبق ذكرها.

عندما فازت حركة حماس عام ٢٠٠٦ في الانتخابات الديمقراطية التي أُجريت بنزاهة على حركة فتح الفاسدة التي فقدت مصداقيتها، لم ترغب إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي في القبول بهذا الفوز. ولهذا القرار ارتباط بالخوف من الإسلام السياسي بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. لكنه كان مع ذلك خطأ جسيما. فمطالبة الغرب المدوية بالديمقراطية في العالم العربي لم تكن تساوي قيمة الورق الذي كُتبت عليه. تعرضت حكومة حماس لمقاطعة دولية وأُطيح بها، فانسحبت إلى قطاع غزة، حيث استولت على السلطة هناك بدعم ميليشياتها، ولا تزال محتفظة بها ليومنا هذا. وبهذا يبقى سكان القطاع الذين لا يتعاطف سوى جزء محدود منهم مع حماس، أشبه بورقة مساومة أو رهينة في يد حماس. ومنذ ذاك الحين ظلت غزة تحت الحصار الإسرائيلي الشامل، الذي تشارك فيه مصر. ونادراً ما يستطيع أي من سكان القطاع الساحلي البالغ عددهم أكثر من مليوني شخص مغادرته. يعتمد السكان اعتماداً كلياً على إمدادات الإغاثة ويعانون من النزاعات المسلحة المتكررة بانتظام بين حماس وإسرائيل. وقد أسهمت أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بشكل حاسم في خلق هذا الوضع برفضهما عدم الاعتراف بهزيمة سلطة الحكم الذاتي الفاسدة بقيادة محمود عباس في الانتخابات.

لكن بعد نجاحهم في أفغانستان بوقت قصير تعرض الجهاديون لانتكاسة كبيرة. فقد غزا الجيش العراقي إمارة الكويت الضئيلة الحجم غير القادرة على الدفاع عن نفسها، والغنية جداً في الوقت ذاته. كان الديكتاتور الوحشي صدام حسين هو حاكم العراق منذ منتصف السبعينات وقد دعمته أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عسكريا لوقت طويل، وقامت شركات من ألمانيا الغربية بتوريد مكونات استخدمها في شن حرب بالغازات السامة على إيران وعلى الأكراد.

ورأت السعودية، التي لم يكن جيشها أيضاً قادراً على مواجهة الجيش العراقي، نفسها مهددة وطلبت مع إمارات خليجية أخرى النجدة من الولايات المتحدة الأمريكية. ونظراً لأن اجتياح الكويت كان خرقاً واضحاً للقانون الدولي، تأسس بموجب قرار للأمم المتحدة تحالف دولي بقيادة الأمريكيين، قام في فبراير ١٩٩١ بهجوم مضاد وطرد العراقيين سريعاً من الكويت. وبعدها بقيت القوات الأمريكية مرابطة في السعودية وفي بعض دول الخليج (مع وجود مركز القيادة في قطر)، وذلك للحيلولة دون وقوع هجمات مشابهة.

كان ذلك بالنسبة لابن لادن ومن يشبهونه في الفكر بمثابة مهانة. وقد عرض بجنون عظمة على الحكومة السعودية طرد العراقيين من الكويت بالاستعانة بقدامى المحاربين في أفغانستان. وبالطبع فضلت السعودية الاعتماد على الأصدقاء الأمريكيين القدامى، رغم أن جدالاً عنيفاً دار في البلاد بين الفقهاء بسبب تواجد قوات أجنبية في الأراضي المقدسة. وعوضاً عن محاربة العراقيين في الكويت، أصبح بن لادن يحرض ضد القوات الأمريكية في بلاده وأصبح بذلك معارضاً للعائلة المالكة[١]. ونظراً لأنه لم يكن مستعداً رغم كل محاولات الوساطة للإذعان، كان عليه أن يذهب مع عائلته إلى المنفى في باكستان أولاً، ثم السودان. لقد أصبح مصدر إزعاج للنظام السعودي، وبل وربما أصبح يشكل خطراً عليه. أيضاً كانت معاداة ابن لادن للأمريكيين دائماً وسيلة لانتقاد السعوديين دون مهاجمتهم مباشرة، كما يكتب فلاغ ميلر: «ارتبط توجه ابن لادن إلى النزعة القتالية برفض الحكومة السعودية المستمر السماح

(١) على خلاف الأدبيات الأخرى يحدد فلاغ ميلر بداية عداء ابن لادن لأمريكا بتوقيع اتفاق أوسلو للسلام عام ١٩٩٣. قارن: Miller ٢٠١٥: ص ٢٠٢.

بانتقاد أسلوب حكمها المستبد [...] منحت معاداة ابن لادن لأمريكا صوتا للمعارضة، كان بخلاف ذلك سرعان ما يقمع»[1].

في عام ١٩٩٤ ـ ولم تكد خمس سنوات تمر على انتصاره الأعظم، كمجاهد، وكان يتعامل وكأنه قد هزم السوفييت بمفرده (لقد لعب فعلاً دوراً جديراً بالذكر في توفير اللوجستيات وفي تمرير الأموال والعتاد) ـ سُحبت منه جنسيته السعودية وانتقل للإقامة في السودان. ووصل إلى نقطة متدنية في مسيرته، عندما لم يعد يتلقى سوى دعم سري من عائلته وبعض أنصاره.

بعد محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أثيوبيا عام ١٩٩٥والهجوم على السفارة المصرية في باكستان، اللذين اتُهم هو والظواهري بالمسؤولية عنهما، وجد نفسه مضطراً إلى مغادرة السودان عام ١٩٩٦. واتجه مجدداً إلى منطقة حكم طالبان في أفغانستان. جُند مقاتلو طالبان من تلاميذ مدارس تحفيظ القرآن وطلبة العلوم الدينية (طالبان، تعني تلاميذ أو طلاب) في مخيمات اللاجئين الأفغان في باكستان. بعد خروج السوفييت استفادوا من معارك الجهاديين السابقين من أجل فرض الهيمنة على أفغانستان، واحتلوا بدعم من باكستان والسعودية أجزاء واسعة من البلاد.

---

(١) Miller ٢٠١٥. ص ٢٠٣ وما تلاها.

ابن لادن والصراع من أجل الحداثة

منذ فترة إقامته الأولى في أفغانستان أثناء القتال مع الجيش الأحمر، عاش ابن لادن وفقاً لظروف معسكر القتال حياة بسيطة متواضعة. وعندما سألت قناة الجزيرة عام ٢٠٠٢ أحد الفقهاء عن سر شعبية ابن لادن، أجاب بما معناه أن الناس يرون أن بن لادن رجل شريف، رجل ابتعد عن ملذات هذه الدنيا، رجل شجاع يؤمن بمبادئه ولا يبالي بالتضحية من أجلها. لكن أكثر ما يعجب السعودي في ابن لادن فهو زهده. إذا ما قارن المرء ابن لادن بأي واحد من أبناء العائلات الغنية، يرى أن ابن لادن قد استعاض عن الفندق الفاخر بجحر، فيما يتنافس الآخرون على الرخاء والقصور[١].

يصل عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي فلاغ ميلر، الذي قام بدراسة وتحليل الأشرطة الصوتية التي سُجلت وجُمعت في دار ضيافة بن لادن في قندهار، معقل طالبان، قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، إلى استنتاج مفاده أن بن لادن، «مس وترا لدى جيل من السعوديين والعرب، ساءهم وجود الثروة التي لم ينعموا بها قط وفساد الدولة. واعتقدوا أنهم تعرفوا في خطب ابن لادن على روبن هوود مغوار»[٢].

---

(١) Miller ٢٠١٥: ص ٢٩.

(٢) Miller ٢٠١٥: ص ٣١.

في السودان كان يدعو كذلك لعدم التعلق بالمنتجات الغربية وإنجازات الحداثة وترفها. وهكذا «حظر دخول ثلاجات وأجهزة تكييف ومواقد كهربية وأجهزة تلفزيون، ومجمدات وأدوية حديثة من كل نوع إلى بيته»[١]. واحتفظ عوضاً عن ذلك في مزرعته في السودان ببقرات يحصل منها على حليب طازج. وإلى جانب هذه الصورة المميزة التي سعى لتقديمها عن نفسه على هذا النحو، كان يدعو لعدم شراء واستهلاك المنتجات الأمريكية.» «قاطعوا كل بضائعهم!»[٢]. والمقصود من وراء ذلك هو الإضرار بـ«الغرب» اقتصاديا (وبالتالي الإضرار بداعمي إسرائيل وفق منطق ابن لادن)، وقد اقتدى في ذلك بغاندي ومقاطعته للمنتجات البريطانية. في خطبته في سبتمبر/أيلول ١٩٩٣ ألمح قائلاً: «وقد خرجت بريطانيا العظمى... خرجت راغمة رغم أنفها من إحدى أكبر مستعمراتها، وهي الهند، عندما بدأ الهندوسي غاندي بمقاطعة البضائع الإنجليزية»[٣].

إذا ما نظرنا إلى رفض الحداثة (كتطور أوروبي) والنضال ضد الاستعمار الأوروبي، فسنجد أنهما مرتبطان بسياق واحد منذ زمن بعيد. وثمة صدى لذلك أيضاً في قصيدة أدونيس التي اقتبسنا منها في البداية، حيث تُصور نيويورك بناطحات سحابها بوصفها خالية من الروح ومنعدمة الإنسانية.

ثمة سخرية تاريخية تكمن في معاداة الحداثة التي يستعرضها ابن لادن، فمعاداة الحداثة هي نفسها مكون أساسي من مكونات الحداثة،

---

(١) Miller ٢٠١٥: ص ٣٤.

(٢) خطبة ابن لادن في خريف عام ١٩٨٩، اقتباس من Miller ٢٠١٥: ص ١٣٢.

(٣) اقتباس من Miller ٢٠١٥: ص ١٩٨.
وفقاً لميلر هذه هي بالطبع المرة الوحيدة التي يستشهد فيها ابن لادن بغاندي.

وعمرها من عمر الحداثة ذاتها. وليس رافض الحداثة بمجرد طرف خارجي، أو مجنون أو متعصب، بل هو شخص دائماً ما يكون على حق على نحو حداثي خاص. وكلما طال أمد الحداثة، وكلما حددت مصير أجزاء أشمل من هذا الكوكب ومن البشر، بدت أكثر إشكالية وأصبح نقدها بطبيعة الحال مبرراً أكثر.

إننا نسهل الأمور على أنفسنا عندما نعتبر ابن لادن ومن ألهمهم بارتكاب جرائم وحشية هم آخرون راديكاليون، لا يربطهم بباقي البشرية أي رباط. إننا نجد مواقف نقدية للحداثة، كتلك التي لابن لادن، لدى مفكرين مختلفين مثل المهاتما غاندي وآل غور (انظر ص...). لا يكمن انحراف ابن لادن في نقد تشوهات الحداثة، بل في طريقة ونوع هذا النقد، وسذاجته وفي الاعتقاد بجنون عظمة في أن المرء قادر على مواجهة الحداثة وتشوهاتها وممثليها مواجهة مباشرة ومحاربتها والانتصار عليها بكل ببساطة.

لأن من يريد محاربة الحداثة في مواجهة مباشرة، لا يبقى أمامه سوى أن يصبح هو نفسه حديثا، لكي يستطيع مواصلة هذه المعركة. وبذلك لا يحاربها المرء ولكنه يصاب بعدواها. وأدى ذلك بابن لادن ورفاقه إلى استخدام الوسائل التقنية والإعلامية للحداثة، وهم هنا تماماً كالمستجير من الرمضاء بالنار. ومن هنا فإن نتيجة الحرب على الحداثة كانت دائماً فقط تفاقم الحداثة ـ وبذلك يصبح الوضع الذي أراد المرء تغييره أكثر سوءا. وأبرز مثال على ذلك هو الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وتبعاته.

من المهم الإشارة لهذه النقطة، لأن علينا أن نفرق بين نقد بناء للحداثة يسعى لتجنب فخاخها، كما نجح غاندي في ذلك لحد كبير، وبين معاداة الحداثة التي تعيد إنتاج الحداثة ولكن فقط في صورتها المعكوسة وتشوه وجهها. قد تبين هذا لدى بن لادن في اختياره لوسائل

الإرهاب: لقد جعل الحداثة في صورة طائرات ركاب تحلق وتصطدم بالحداثة في صورة مركز المال وأعلى مبنيين في العالم. فلنتجرأ على طرح الفرضية بأنه ما كان بالإمكان للحادي عشر من سبتمبر/أيلول أن يطور مثل هذا الغضب والتبعات التاريخية الطويلة الأمد، لأن الإرهاب طال فقط برجيين إداريين ارتفاع كل منهما ٤٠٠ متر، وإنما لأن الحداثة وجدت فيه تعبيراً عن تناقضها الذاتي وعن وجهيها النقيضين، وجدت صورتها وأيقونتها.

إذن عند مناقشة أحداث ١١ سبتمبر/أيلول تُعالج الحداثة أيضاً، بما في ذلك السؤال عن كيفية تعاملنا مع الإمكانات الهائلة وعمليات التسريع التي خلقتها هذه الحداثة ـ وهي إمكانيات تخلق لا محالة في الوقت ذاته مخاطر ومشاكل جديدة. وأحد الأسئلة الناتجة عن ذلك هو السؤال عن السلوك المسؤول ذي الأساس السليم والممارسات المسؤولة في ظل شروط الحداثة وكيفية تطبيقها. السؤال الذي سبق أن طرحه هانس يوناس Hans Jonas عن «مبدأ المسؤولية» (وهو عنوان الكتاب الصادر عام ١٩٧٩) و«مجتمع المخاطرة» الذي أكد عليه أولريش بيك Ulrich Beck في كتابه الصادر عام ١٩٨٦ لم يتجاوزا ١١ سبتمبر/أيلول فحسب، بل واكتسبا راهنية وإلحاحاً.

لقد عرف كل من بيك ويوناس أنه نظراً لأنه في الحداثة لا توجد سوى الحداثة، فلا يمكن أن تقتصر الإجابة على الحداثة بإما أو، أو بنعم أو لا، مثلما اعتقد بن لادن وأنصاره، وأيضاً مثلما اعتقد الكثير من الناس ومن المثقفين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية منذ منتصف القرن التاسع عشر. هذا الإدراك مركزي: يمكننا أن نتخلى بارتياح عن كل الحلول، التي تبدو عمومية، وبالأخص الراديكالية منها. على نحو هامشي، يتضح أيضاً لماذا كسب «غرب» الحرب الباردة صراع الأنظمة مع الكتلة الشيوعية: لأنه قدم حداثة قابلة للتوافق في مواجهة الحداثة

الدوغمائية لدى الشيوعيين. وتحديداً هذه المرونة وهذا الانفتاح والقابلية للتوافق التي أدت لتفوق «الغرب» في الحرب الباردة، هي ما تم التخلي عنه بعد ١١ سبتمبر/أيلول لصالح راديكالية جديدة.

وبتحويل ذلك إلى تصورات عن العالم وأيديولوجيات سياسية أو أيضاً إلى آراء وأحكام (مسبقة) في الحياة اليومية، لا يمكن أن يعني هذا سوى أن التصورات عبثية ـ وبها قليل من الواقعية وثراء الأفق والوعد بالمستقبل ـ وتموضعُ الحقائق والحلول السياسية والاجتماعية، فقط هنا أو هناك، في الغرب أو في الشرق، في القديم أو في الحديث، في الإسلام أو في الليبرالية... إلخ. يجب نكران كل تمييز حصري. وتحديد كل دافع تدميري للتمييز الحصري وإبراز مخاطره.

هجمات ابن لادن الأولى
على الولايات المتحدة الأمريكية

صحيح أن الأمريكيين كانوا يمثلون حتى وقت متأخر من تسعينيات القرن الماضي صورة عدو مفيدة وكانوا موضوعا للكراهية، لكنهم لم يكونوا خصماً أساسياً للإسلاميين، ولا حتى للقاعدة. بالمقارنة كانت حركات الإسلام السياسي التقليدية في العالم العربي مستقرة واتخذت من الأنظمة المستبدة خصما لها، وخصوصاً الأنظمة ذات الطابع الاشتراكي في بلدانها. وقد سعت للتغلب على الاستبداد وتولي السلطة، لكن هذا المسعى كان في معظم الأحوال بعيد المنال.

مع نفيه إلى السودان، ثم إلى أفغانستان فقد ابن لادن بالأخص ذاك الوسط الذي كان يؤثر فيه تأثيراً مباشراً، والأهداف الملموسة لنشاطه السياسي والمسلح، التي تشبه أهدافه في أفغانستان في السابق. شرع الإسلام السياسي العنيف، مجسداً في أسامة بن لادن، في البحث عن أهداف دولية، لأنه لم يعد يجد على المستوى الحي والوطني أي فرصة لإحداث تأثير. وقد وصفت المخابرات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» في عام ١٩٩٥ ابن لادن وجماعته بأنهم أشبه «مؤسسة فورد لدعم الإرهاب السني»[١].

(١) اقتباس من Miller ٢٠١٥: ص ٤.

بمجرد أن رسخ ابن لادن وضعه في أفغانستان وعادت أموال داعميه تتدفق من جديد، بادر بالهجوم. لقد أصبحت خطط الهجمات في شرق أفريقيا، التي طورها في السودان، واقعا ملموسا. بعد منشور مشابه في أغسطس/آب عام ١٩٩٦، نشر في فبراير/ شباط ١٩٩٨ في جريدة «القدس العربي» اللندنية إعلانا اشتهر باعتباره إعلان حرب على الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ودعا فيه كل مسلم يؤمن بالله ويرغب في الثواب، إلى الامتثال لأمر الله بقتل الأمريكان، ونهب أموالهم في أي مكان وجدوا فيه، وفي كل وقت أمكنه ذلك [...] لعلهم يذكرون[١].

بعد أقل من نصف عام من نشر هذا الإعلان، زعزع تفجيران تم تنسيقهما جيداً بالتوازي، ووقعا في السابع من أغسطس/آب عام ١٩٩٨ في الوقت نفسه تقريباً، سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في العاصمة الكينية نيروبي والعاصمة التنزانية دار السلام. وفي رد على الهجومين في شرق أفريقيا، قصفت الولايات المتحدة أهدافاً في السودان ومعسكرات تدريب في أفغانستان. عندئذ على أقصى تقدير حصل ابن لادن على الاهتمام الذي كان يرغب فيه واعتبر خصما تأخذه القوة العظمى المتبقية على محمل الجد، فالقيام بهجومين كبيرين في الوقت ذاته وفي بلدين مختلفين يدل على وجود قدرات لوجستية غير مألوفة. وهذه ما جعل أنصاره وأعداءه على السواء يتساءلون، ماذا بمقدوره أن يفعل أكثر مما فعل.

وكانت شعبة من المخابرات المركزية الأمريكية قد خُصصت لمراقبة ابن لادن ودراسة خططه وتصفيته أو اعتقاله ومساءلته أمام محكمة أمريكية. ومن بين الأفكار التي طُرحت أيضاً اختطاف ابن لادن بمساعدة

---

(١) Abou-Taam ٢٠٠٦: ص ٧٧. الترجمة هنا بتصرف نظراً لأن أبو طعام اعتمد على النص الإنجليزي ولم يتوفر لدينا الأصل. (المترجم).

رجال من العشائر الأفغانية. لم تتحقق أي من الخطط. رفض الملا عمر «أمير» حكومة طالبان في أفغانستان، تسليم بن لادن، رغم الضغوط الدولية الكبيرة. ولأن حركة طالبان لم تكن تولي اهتماماً كبيراً للتجارة الخارجية (ما عدا تجارتها غير المشروعة في المخدرات التي تنتجها)، لم تكن هناك عمليا أي وسيلة ضغط، بخلاف بعض العمليات العسكرية المحدودة جداً والتي كانت بالنسبة لطالبان أشبه بوخزات إبر.

مع هجوميّ ١٩٩٨ أصبح مدعي الزهد الذي لم يرغب قط في استخدام ثلاجة، لأنها ترمز للتحديث الغربي، العدو رقم ١ للقوى العظمى المتبقية، وهو في ذلك أشبه بلوك سكاي ووكر Luke Skywalker الذي خرج من الكوكب الصحراوي في مسلسل الخيال العلمي الجماهيري «حرب النجوم» (Star Wars) واعتنق الإسلام المتطرف، كي يخوض مع رفاقه المحبطين معركة يائسة ضد الإمبراطورية.

وقد عرف أي مسلم كان يضمر أفكاراً مشابهة وغضباً مثله على الفور إلى من يتوجه. بعد عام ذهب طالبان عربيان من ألمانيا إلى ابن لادن في أفغانستان. وعلى النقيض من المخابرات المركزية الأمريكية، لم يكن العثور على ابن لادن صعبا بالنسبة لهما. الشابان هما محمد عطا وزياد جراح وينحدران من مصر ولبنان. في ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ جلسا في كابينة القيادة وقادا اثنتين من طائرات الركاب الأربع التي هاجمت الولايات المتحدة الأمريكية.

رؤية العالم
في الولايات المتحدة الأمريكية في التسعينيات

لا بد أن نذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك كل من تحالف معها أو شعر بالتقارب الفكري معها من الدول، كانت في مطلع تسعينيات القرن التاسع عشر في وضع مريح. فجأة فقد الاتحاد السوفيتي، المنافس القديم، دوره كعامل مؤثر في السياسة الدولية وغاب تهديده العسكري. وقد مضت عشرون سنة قبل أن تتمكن روسيا مجدداً من العودة للعب دور في السياسة الدولية. ولم يتُح للروس أن يصبحوا مجدداً قوة عظمى إلاّ مع الثورات العربية وفراغ السلطة الذي نشأ هناك (وفي أوكرانيا) وتساهلت معه أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد تحتم كذلك على بلدان الشرق الأوسط والأدنى أن تبحث عن توجه جديد. وبوجه خاص كان لغياب الدعم السوفيتي لمنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات أثر جسيم. لقد اضطرت المنظمة للدخول في مفاوضات مع إسرائيل، بدأت في مدريد عام ١٩٩١ وأدت لإبرام معاهدة سلام في عام ١٩٩٣، ظلت مثار جدل بين الفلسطينيين، نظراً لعدم حسم قضية حق عودة هؤلاء الذين يعيشون منذ عقود في مخيمات اللجوء في البلدان المجاورة.

كما رأى كثير من الإسرائيليين أنه قد تم التفريط في آمالهم في قيام

إسرائيل الكبرى. وقد اغتيل رئيس الوزراء إسحق رابين، مهندس اتفاقية السلام على الجانب الإسرائيلي، على يد متطرف يهودي. وتعثرت عملية السلام وتحتم إعلان فشلها بعد ذلك بربع قرن. ولن تغير اتفاقات السلام التي أُبرمت مؤخراً بين بعض دول الخليج وإسرائيل من الأمر شيئاً. فالمحرك لهذه الاتفاقات هو العداوة المشتركة لإيران، ولا تكاد تتمتع بأي تأييد شعبي. لكن في بداية التسعينات كانت كل الأمور تشير في البداية إلى السلام.

على المستوى الفكري نوقش آنذاك على نطاق واسع مشروعان أيديولوجيان متعارضان، رؤيتان بشأن شكل النظام العالمي في المستقبل، وأي دور ستلعبه الولايات المتحدة الأمريكية أو «الغرب». من ناحية، كانت هناك الرؤية الكونية شبه الإمبريالية التي انطلقت من أن النموذج السياسي للغرب سيفرض نفسه تدريجيا بشكل أو بآخر، بعد انهيار الكتلة الشيوعية، لأنه أثبت ـ بحسب هذه الفرضية ـ أنه الأنجح على مر التاريخ. وأشهر ممثلي هذه النظرية هو الباحث السياسي الأمريكي فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، وقد قدمها في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» الصادر عام ١٩٩٢.

أما الباحث السياسي صامويل ب. هانتينغتون Samuel P. Huntington فقد طور فرضية تسير في اتجاه مغاير من خلال فكرة «صدام الحضارات» التي عرضها في كتابه الذي يحمل هذا الاسم عام ١٩٩٥. ووفقاً لهانتينغتون لا يمكن لرؤية كونية أن تفرض نفسها على العالم كله، لأن الثقافات (الحضارات) المختلفة دائماً ما ستضع الحدود في مواجهة بعضها بعضاً وجوهريا لن تتغير أي منها أو تسعى للتكيف مع بعضها بعضا، وهو ما انطلق منه فوكوياما. والمفاجئ أن تفرقة هانتينغتون بين الحضارات تجري وفقاً لمعايير دينية. إلى جانب «الغرب» العلماني هناك أوروبا الشرقية ذات الصبغة المسيحية الأرثوذكسية (التي تعد اليونان

بحسب هانتينغتون ضمنها أيضاً، فهي لا تنتمي وفقاً له حقاً إلى «الغرب»[1]، والإسلام والحضارات ذات الصبغة الهندية (البوذية والهندوسية)، ثم حضارات الشرق الأقصى. يمكن للمرء أن يتعامل ويتاجر معها كلها، لكن لا يمكنه التغلب على الفروق ولذلك يبقى في صراع تنافسي على السلطة والموارد. لذلك ينبغي على «الغرب» الذي يعد مختلفاً في مواجهة كل الحضارات الأخرى، ألا يحاول نشر نموذجه في كل أنحاء العالم، مثلما أراد فوكوياما. يتحتم عليه فقط أن يهتم بأن تكون له اليد العليا، وبالأخص أن تكون له السيطرة والهيمنة العسكرية والاقتصادية.

ولكي نقدم ذلك في صورة مجازية يمكننا القول إن فوكوياما قد قدم ما يشبه دعوة للعالم: تعالوا إلى بيتنا الفكري والعبوا وفقاً لقواعدنا، وستصبحون جميعا ذات يوم في حالة جيدة مثلنا تماماً. أما فرضية هانتنغتون فتسير على النقيض في اتجاه الطرد أو تحديد أماكن الآخرين. ينبغي على كل شخص أن يبقى في محله، مع ذلك يمكن له أن يأتي مرة للزيارة، وأن يعود سريعاً إلى حيثما سيكون سعيداً حسب تصوره.

تعلن كلتا وجهتي النظر بالقدر نفسه عن طموح إمبريالي، لأنهما تنطلقان من التفوق الغربي وتدعوان للإبقاء على هذا التفوق، أو توسيع نطاقه. وهما أقرب لبعضهما بعضاً مما يبدو من النظرة الأولى.

لقد وضع فوكوياما وهانتينغتون أساساً لرؤية للعالم حددت مصير السياسة «الغربية منذ تسعينيات القرن الماضي. واللافت للنظر في ذلك هو أن فوكوياما وهانتينغتون ينتميان لبيئة أكاديمية محافظة، وبالتالي فقد شهد كل الإطار المرجعي للسياسة في السنوات التالية توجها واضحا إلى

---

(١) Huntington ١٩٩٦: ص ٢٥٢.

اليمين. وبذلك جاء *تأطير Framing* «الغرب» حتما إلى اليمين من الوسطية السياسية، على النحو الذي كانت لا تزال تُعرف به قبل ١٩٨٩: حتى ذاك الوقت كان المركز السياسي يسعى من أجل تحقيق تسوية لقضايا الظلم الاجتماعي والاقتصادي، كي لا يوفر للناس أي أسباب لمغازلة الشيوعية.

ما كان ينقص هذه المفاهيم المحافظة الجديدة «للغرب»، هو أن التصور أو الإدراك بأن أساليب الهيمنة «الغربية» في الاقتصاد والسياسة يمكن أن تفشل أيضاً، أو أن يكون لها تبعات جسيمة. ما كان غائبا هو رؤية سياسية لا تنبني على أساس عدم المساواة على مستوى العالم والهيراركيات وعلاقات القوة، بل تهدف إلى هدمها والتغلب عليها، دون القضاء في الوقت ذاته على تنوع مشاريع الحياة والاختلافات الثقافية، وهو ما كانت رؤية فوكوياما تسعى حتما لتحقيقه. وأما ما كان ينقص كلا المشروعين في نهاية المطاف، فهو انعدام الحساسية للأخطاء التي لا يمكن إغفالها وللظلم ونقائص الديمقراطية في «النظام السياسي «الغربي».

وكان من التبعات الأخرى اللافتة *للتأطير* المحافظ «للغرب» أن السياسة الأمريكية «الغربية»، قد افتقدت فجأة مع انهيار الكتلة الشرقية للمهمة وللتحدي وللتبرير. ما الذي يجب أن يفعله المرء من الآن فصاعدا، إذا ما استُبعدت الإصلاحات التقدمية اليسارية، لأنها لا تناسب صورة الحضارة «الغربية»، وقد خرجت منتصرة في صراعها ضد الاشتراكية؟ جاءت إجابة فوكوياما مصحوبة بشيء من الأسف: لا شيء في الحقيقة! ولذلك فقد وصل التاريخ إلى نهايته.

بل لقد خشي فوكوياما أن يكون من تبعات غياب هذا التحدي نشوء نوع من الملل الميتافيزيقي الهائل. ونصح من أجل مقاومة ذلك بتوفير

أقصى قدر من المنافسة والصراعات التنافسية، وفضّل الحفاظ على الفروقات الاجتماعية أو زيادة حدتها، على سياسة تكافح عدم المساواة الاجتماعية. على هذا النحو فقط يمكن، بحسب فوكوياما، تجنب أن تغرق البشرية في القناعة والبلادة المكتملة مثل «الإنسان الأخير» الذي وصفه نيتشه في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» باحتقار تام ويقشعر له بدن فوكوياما: «سأحدثهم عن أكثر الكائنات حقارة إذاً: لكن ذلك هو الإنسان الأخير.

وهكذا خاطب زرادشت الشعب: إنها الساعة التي على الإنسان أن يرسم فيها هدفاً لنفسه [...] الويل الويل! سيأتي الوقت الذي لن يلد المرء فيه نجماً. الويل، الويل! سيأتي زمن الإنسان الأكثر حقارة، ذلك الذي لم يعد قادراً على احتقار نفسه. انظروا! ها أنا أرسم لكم صورة الإنسان الأخير!»[1].

رغم أنه لم تنقص البشرية بأي حال من الأحوال في التسعينات التحديات و«الأهداف» التي كان يمكن أن ترسمها لنفسها. أيضاً دون تعمد زيادة حدة الفروق الاجتماعية والفكر التنافسي، أدركت عقول واعية آنذاك ما يكفي من المهام الكبرى لينشغل بها أكثر من جيل. وأحد هؤلاء كان مرشح الرئاسة الأمريكي آل غور. في عام ١٩٩٢، أي في العام ذاته الذي صدر فيه كتاب فوكوياما «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، قدم آل غور كتابه «الأرض في الميزان»: «تتيح لنا أزمة المناخ فرصة لنعرف شيئاً لم يتح سوى لأجيال قليلة التعرف عليه عبر التاريخ: مهمة للجيل أكمله، الشعور السامي بهدف أخلاقي مقنع واهتمام مشترك

(١) فريدريش نيتشه. هكذا تكلم زرداشت. ترجمة علي مصباح. دار الجمل. كولونيا ٢٠٠٧. ص ٤٨-٤٩.

يتم تقاسمه، والتوتر الذي يرغمنا بحكم الظروف أن ننحي جانبا صغائر الأمور والنزاعات، التي كثيراً ما تخنق حاجة الإنسان إلى شيء أسمى»[1].

وبالنظر لهذه السطور وهذه الرؤية يمكن للمرء أن يدعي نوعا ما بحق أن الدمار الذي مهد له ابن لادن، لا يتمثل في الضحايا المباشرين للإرهاب بقدر ما يتمثل في وضع قاطرة السياسة العالمية على قضبان خاطئة وميتة: كانت «مهمة الجيل» منذ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، هي «الحرب على الإرهاب» التي لم تجلب سوى الإرهاب، وذلك عوضاً أن تكون المهمة هي حماية المناخ والبيئة.

لم تكن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد. لم يكن ثمة شيء قد حسم. لكن وضع الأسس الحاسم، الذي مهد لنهاية الغرب، كما عرفناه في التسعينيات، أي وضع الأسس الذي أتاح عموما التحقق اللاحق لخيالات ابن لادن المعادية لأمريكا بدعم أمريكي، لم يكن في ٩/١١/ ٢٠٠١، وإنما كان في ١٢ ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠٠٠.

---

(١) Gore ٢٠٠٧.

وضع الأسس في عام ٢٠٠٠

في السابع من نوفمبر/تشرين الثاني كان على الأمريكيين أن ينتخبوا رئيساً جديداً بعد الولاية الثانية للرئيس الديمقراطي بيل كلينتون. ترشح عن الديمقراطيين نائب كلينتون آل غور، وعن الجمهوريين جورج و. بوش، ابن الرئيس السابق على كلينتون جورج ه. بوش. لكن عندما انتهى الاقتراع في الساعات الأولى من الصباح، لم يكن قد تحدد بعد من هو الرئيس. كانت النتيجة في ولاية فلوريدا حيث يحكم شقيق بوش الأصغر جيب، متقاربة كما كان متخيلا، وبدا أن أصواتا كثيرة لم تحسب بشكل صحيح، وكانت ثمة مشاكل مع الفرز الإلكتروني للأصوات.

تحديد من سيكون الرئيس كان متوقفاً على نتائج فلوريدا. والسبب في ذلك هو نظام الانتخابات الرئاسية الأمريكي الغريب الذي يعود إلى بواكير الديمقراطية. ليست الأغلبية المطلقة للأصوات هي المهمة. فمن هذه الناحية كان آل غور متقدما، فيما يعرف بالتصويت الشعبي «popular vote»، على بوش بنصف مليون صوت، مثلما كانت كلينتون متقدمة في انتخابات ٢٠١٦ بنحو ٣ ملايين صوت، أكثر من ٢٪، على منافسها دونالد ترامب[١]. لكن عوضاً عن أرقام التصويت الشعبي، يتوقف الأمر

(١) الأرقام المذكورة هنا مصدرها ويكيبيديا:
https://de.wikipedia.org/wiki/Pr?sidentschaftswahl_in_den_Vereinigten_Staaten_2016.

وفقاً للنظام الانتخابي الموروث على أن يفوز المرء في كل ولاية على حدة، ومن ثم أن يحصل على أغلبية أصوات «المندوبين» في الولايات الفيدرالية التي فاز فيها.

تقدم بوش في فلوريدا ببضع آلاف من الأصوات. وفي حالة إعادة فرز الأصوات، كانت ستتوفر لآل غور فرص جيدة للفوز بالولاية. وبعد جدال طويل ومعقد حول مسألة أي الأصوات ينبغي إحصاؤها وفرزها من جديد، قضت المحكمة العليا الأمريكية أخيراً التي كانت تضم آنذاك أغلبية محافظة، تميل إلى جورج بوش، في ١٢ ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠٠٠ أنه لن يكون هناك أي إعادة فرز للأصوات. وهكذا أصبح جورج و. بوش رئيسا، وتولى الحزب الجمهوري الذي كان آنذاك في قبضة من يسمونهم المحافظون الجدد، السلطة في البيت الأبيض[١].

على الأرجح كانت هجمات ١١ سبتمبر/أيلول ستحدث أيضاً، حتى لو فاز آل غور بالانتخابات. وأيضاً كان سيتحتم على آل غور أن يتصرف حينها بحسم، ومع اللجوء كذلك للتدخل العسكري. في المقابل لم يكن من المرجح أنه سيستمر على مدى سنوات في انتهاج نفس السياسة الخارجية العنيفة[٢]. لم يكن من المرجح أنه سيغزو العراق ويزعزع استقرار الشرق الأوسط. في كلمة له أمام نادي الكومونولث في سان فرانسيسكو في سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٢، انتقد آل غور خطط بوش لغزو العراق بحدة، لم يماثله فيها أي سياسي ديمقراطي آخر تقريباً. وكان

---

(١) حول تفاصيل الانتخابات في فلوريدا انظر: Toobin ٢٠٠١. حول سيرة آل غور انظر: Turque ٢٠٠٠. ينوه توركيو أيضاً (طبعاً قبل ١١ سبتمبر/ أيلول) إلى رد الفعل الذي كان من المتوقع أن يكون من آل غور على ١١ سبتمبر/أيلول، وتحديدا ليس ردا سلبيا إطلاقا: «رؤيته للنزعة التدخلية للقوة الأمريكية ستجعله على الأغلب يتخذ ردا وشيكا وقويا للولايات المتحدة، في حال اندلاع أزمات خارجية». (ص ٤٠٠).

(٢) MacMillan ٢٠١٥: الفصل رقم ١.

محقاً فيما قال: «إذا ما انتصرنا سريعاً على جيش ضعيف هزيل من الدرجة الرابعة مثل الجيش العراقي وإذا ما تركنا البلد لمصيرها، مثلما خذل الرئيس بوش كل أفغانستان تقريباً بعد الانتصار على جيش من الدرجة الخامسة، ستتحول عندئذ الفوضى الناجمة عن ذلك بسهولة إلى خطر على الولايات المتحدة الأمريكية، أكبر من الخطر الذي يتحتم علينا أن نشهده الآن مع صدام»[1].

كما ذكرنا، فقد عرض آل غور في عام ١٩٩٢ بيانه الإيكولوجي الفلسفي «الأرض في الميزان»، وهو عمل غير مألوف لسياسي محترف. بل وقد نال في عام ٢٠٠٧ جائزة نوبل للسلام تكريما لنشاطه في حماية البيئة. لكن في ذلك قليلاً من السلوى بالنظر إلى الفرصة التي ضاعت بفارق ضئيل في أن تكون ثمة رئاسة أمريكية إيكولوجية. يكتب بيل تيركيو Bill Turque مؤلف سيرة آل غور، الذي لا يمكن وصفه بأنه غير نقدي، أن آل غور «سياسي متأمل على نحو غير مألوف، كان لديه صوت متنبئ في قضايا مثل الارتفاع العالمي لدرجة حرارة الأرض والحد من التسلح وتغيرات عصر المعلومات»[2].

نحن بالطبع لا نعرف ما الذي كان يمكن لآل غور أن يحققه من برنامجه الطموح. لكنه كان جديا في مسعاه. كان آل غور السياسي المهم الوحيد في «غرب» تلك الفترة، الذي جعل من نقد «مجتمع المخاطرة» قضيته الخاصة، وكان مخلصاً لـ «مبدأ المسؤولية»، مثلما عبر عنه هانس يوناس في كتابه عام ١٩٧٩. إن نقد الحداثة الذي نواجهه لدى ابن لادن في صورة معاداة محضة للحداثة بكل أحاديتها المدمرة ـ الذي يدرك نفسه على أنه مجرد حداثة فائقة غير متأملة ـ نجده لدى آل غور في هيئته

---

(١) اقتباس من Kornelius ٢٠٠٧: ص ١٠٢.

(٢) Turque ٢٠٠٠: ص ٦.

الناضجة المتأملة والإيجابية. وفي هذه الهيئة يسمع نقد الحداثة لرأي العلم، لكنه يتخطى بكثير مجرد كونه عقلانية رصينة. إنه بالأحرى نقد كلي ويسعى لتحقيق التوازن بين الظاهر والباطن وبين العلم والمشاعر.

وبحسب آل غور، فإن الفكر العقلاني الذي غامر بإدخالنا في الوضع العالمي المتأزم، لا يمكن له وحده أن يخرجنا منه. من أجل ذلك ثمة حاجة لما هو أكثر. يكتب آل غور: «كلما تعمقت أكثر في بحثي عن جذور أزمة البيئة العالمية، أصبحت أكثر اقتناعا بأن الأمر يتعلق بإعلان ظاهري لأزمة داخلية، يمكن وصفها نظراً لعدم وجود كلمة أفضل بأنها أزمة روحية. كسياسي أعرف تماماً خطر استخدام كلمة «روحي» لتوصيف مشكلة [...] لكن أي كلمة يمكنها أن تصف مجمل القيم والفرضيات التي تحدد فهمنا الأساسي للكون كموطن لنا؟»[1]

بعد عشرين عاماً على هجمات ١١ سبتمبر/أيلول يصعب علينا تخيل أن الشخص الذي يكتب هذا الكلام، كان على وشك أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة. مع ذلك: لو أُعترف بفوز آل غور، لأمكنه على الأقل أن يحول الكثير من برنامجه الكلي الطموح إلى سياسة مناخية مستدامة. «عوضاً عن ذلك» يكتب آل غور في طبعة جديدة لاحقة من كتابه «قمنا بتحول معاكس تماماً. لا يزال الرئيس بوش يقول، إننا لا نعرف، إن كانت أزمة المناخ من صنع الإنسان أم لا، ولم يتخذ خطوة واحدة، لمواجهة الأزمة. والأسوأ كذلك أنه ونائب الرئيس تشيني قد قادا البلاد في الاتجاه المعاكس تماماً»[2]. ولم يصنع ترامب الذي انتُقد كثيراً لسياساته المعادية للمناخ شيئاً سوى أن واصل انتهاج السياسة البيئة الكارثية لأسلافه الجمهوريين.

---

(١) Gore ١٩٩٣: ص ١٢.

(٢) Gore: ٢٠٠٧ «المقدمة».

مع تولي إدارة بوش الحكم في مطلع ٢٠٠١ وخصوصاً بعد هجمات ١١ سبتمبر شُطبت حماية البيئة والمناخ من قائمة الالتزامات المهمة للحكومة الأمريكية. وبعد ذلك بسنوات عندما تولى باراك أوباما السلطة في ٢٠٠٨، حبس أنفاس العالم كساد مالي، نتج عما يُعرف بأزمة البنوك، التي أصبح حدوثها ممكناً بسبب سلسلة من سياسات نيوليبرالية لتخفيف الضوابط المالية أقرتها حكومة كلينتون. وبعد أن تعافى الاقتصاد، جاءت الثورات العربية وأزمات السياسة الخارجية في شرق أوروبا وإرهاب ما يعرف بـ«الدولة الإسلامية» (انظر ص٢٠٩). ولم تجد حماية المناخ مكانها ثانية على قائمة الأولويات إلاّ في عام ٢٠١٨، انطلاقاً من أوروبا وحركة أيام جمعة من أجل المستقبل: لقد أُهدر الكثير جداً من الوقت المخصص مكافحة التغير المناخي الذي صنعته يد البشر.

٣٦ يوماً فصلت بين يوم الانتخابات الرئاسية في السابع من نوفمبر/تشرين الثاني وقرار المحكمة العليا في الثاني عشر من ديسمبر/كانون الأول، ووضعت بصمتها على مسار العشرين عاماً التالية. كانت اللحظة التي لم يكن ممكناً فيها وقف تبعات ١١ سبتمبر/أيلول، هي في الوقت ذاته اللحظة التي كان من الممكن فيها إحداث تحول حاسم في سياسة البيئة العالمية ـ ولم يحدث. كان البديل لسياسة ١١ سبتمبر/أيلول المعتمدة على المواجهة والتفوق المتغطرس والمساعي الغاضبة العمياء والفاشلة في الوقت ذاته لفرض الأفكار والمصالح الخاصة، يتمثل في تحديات حقيقية أكبر وأجدر. كان يمكن للبديل عن سياسة ١١ سبتمبر/أيلول التي انتهجتها حكومة بوش أن يتمثل في إنقاذ الأرض، عوضاً عن تركها لقوى التدمير وخوض حرب لا يمكن الانتصار فيها.

لكن النتيجة المتقاربة لنتائج الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٠ تعني أيضاً: أن التطور اللاحق على ١١ سبتمبر/أيلول لم يكن قسريا أو حتميا ولا يمكن تفاديه. لا شيء منه يجب أن يبقى، وما كان ينبغي أن يبقى منه أي شيء تقريباً.

الهجوم

في صباح ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، وكان صباحاً مشمساً وصحواً في أواخر الصيف، اقتحمت طائرتا ركاب، اختطفهما وقادهما اثنان من الإرهابيين بفارق زمني يزيد قليلاً عن الربع ساعة ـ في الساعة ٨,٤٦ و٩,٠٣ ـ برجي مركز التجارة العالمي في مانهاتن البالغ ارتفاعهما ٤٠٠ متر، والواقعين في وول ستريت، المركز المالي للولايات المتحدة. في الساعة ٩,٣٧ اندفعت طائرة أخرى صوب أكبر مبنى مكاتب في العالم، إنه مبنى البنتاغون، مقر وزارة الدفاع. وثمة طائرة رابعة كان مخطط لها على الأغلب أن تهاجم البيت الأبيض أو مبنى الكابيتول في واشنطن، وسقطت في بنسلفانيا بعد ذلك بنحو نصف ساعة بعد أن حاول الركاب التغلب على مختطفي الطائرة.

في هذا اليوم قضى ٢٩٨٢ شخصاً[١] نحبهم. ودارت سيناريوهات رعب في برجي مركز التجارة العالمي التوأمين. قفز أناس عديدون، ممن حاصرتهم ألسنة النيران في الطوابق العليا، من على ارتفاع ٣٠٠ أو٤٠٠ متر وارتطموا بالأرض بين الفارين ورجال الإسعاف ورجال المطافئ. لم يضع أحد في حسبانه أن ناطحتي السحاب ستنهاران. لكن في الساعة

---

(١) Summers ٢٠١١، «Preface».

هذا هو العدد المسجل للضحايا في النصب التذكاري. الآخرون الذين قضوا نتيجة للأضرار التالية للهجمات، لم يتم تسجيلهم.

٩,٥٩ انهار البرج الجنوبي وفي الساعة ١٠,٢٨ انهار البرج الشمالي. طافت سحابة سامة من الرماد والركام عبر حي مانهاتن الأسفل، وتوزعت مُزق من الورق من المكاتب وندف رماد على أنحاء المدينة.

كان ممثلو وسائل الإعلام ومحطات البث عبر الأقمار الصناعية مثل «سي إن إن» أو «فوكس نيوز» يقومون بالتغطية من عين المكان[1]، عندما اندفعت الطائرة الثانية مقتحمة المبنى، ودون أن يعرفوا كيف حدث لهم ذلك، قاموا بنقل حي للهجوم إلى جميع أنحاء العالم. من لحظة الهجوم الثاني كان واضحاً أن الأمر لا يتعلق بحادث، وإنما بهجوم متعمد. فجأة بدت الولايات المتحدة الأمريكية، القوة العظمى الأخيرة المتبقية، عارية، دون حول ولا قوة وهشة. كان الهجوم الاستعراضي وشهود الرأي العالم العالمي له، وجعله متفرجاً عن غير رغبة منه أشبه بإذلال غير عادي.

وفي اليوم التالي مباشرة أعلنت الحكومة الأمريكية بأنها تعرف أن مدبر الهجمات هو أسامة بن لادن. ووفقاً لقائمة حُددت سريعاً هوية الإرهابيين. وقاد أثر من آثار الهجوم إلى ألمانيا أيضاً. بعض الجناة زاروا مدرسة للطيران في الولايات المتحدة الأمريكية ومن الواضح أنهم قادوا الطائرات بأنفسهم. ثلاثة منهم (وهم من مصر ولبنان والإمارات العربية المتحدة) كانوا يدرسون في ألمانيا، وعاشوا معاً في منزل في هامبورغ وسافروا من هناك إلى ابن لادن في أفغانستان. خمسة عشر من الخاطفين الآخرين ينحدرون من السعودية وجُندوا قبل الهجوم بوقت قصير.

فُهمت الهجمات على أنها إعلان حرب، وقد كانت كذلك. ولم تخف وسائل الإعلام، وحتى الحكومة نفسها، أنه من المطلوب أن يكون ثمة رد قاس مماثل، إن لم نقل ثأراً. لقد وُلد مجاز «الحرب على الإرهاب»

(1) https://www.youtube.com/watch?v=4iwlFFM3DDQ.

(War on Terror) ـ وهو إشكالي للغاية طالما أن الإرهاب ليس خصماً يمكن أن تخوض ضده حرباً تقليدياً، لأن مثل هذه الحرب يكاد يكون الفوز فيها مستحيلاً وينطوي على خطورة أنها تظل مفتوحة دون نهاية. إنه إشكالي للغاية، لأن تعريف الإرهاب والإرهابيين كان حتماً تعسفياً ومائعاً وحسب الهوى، وكل شخص كان يفهمه على نحو مختلف.

وهو في نهاية المطاف إشكالي للغاية لأنه ينطوي، سواء بوعي أو دون وعي، على وعد بالخلاص لا يمكن الوفاء به: لم تعد هذه الحرب بنهاية الإرهاب كأيديولوجية فحسب، بل بنهاية الإرهاب بوصفه رعبا في حد ذاته. كانت الحرب على الإرهاب هي حرب لا ترضى بشيء أقل من القضاء على الشر ذاته. ونُفض الغبار أيضاً عن مصطلح «الحروب الصليبية» «Crusade». كان الإسلامويون يستخدمونه لوصف عدوان القوى المسيحية من الغرب العالمي. والآن تبناه الرئيس الأمريكي في خطاب تلقائي[1]. وهو أول إشارة للعدوى بمنطق الصديق ـ العدو المشحون دينيا من قبل ابن لادن.

بعد الهجمات مباشرة لم يقتصر التضامن مع الولايات المتحدة الأمريكية على حلفائها التقليديين. لكن مقولة جورج بوش «من ليس معنا، فهو ضدنا» والتي قالها لأول مرة بعد عشرة أيام من الهجوم[2]،

---

(١) الأصل:
"This crusade, this war on terrorism is going to take a while"; https://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2001/09/20010916-2.html.

(٢) خطاب أمام الكونجرس الأمريكي في ٢٠٠١/٩/٢١: «إما أن تكونوا معنا أو تكونوا مع الإرهاب»
https://www.spiegel.de/politik/ausland/bush-vor-dem-kongress-wer-nicht-fuer-uns-ist-ist-gegen-uns-a-158495.html.
إضافة إلى ذلك، قال بوش في ٢٠٠١/١١/٦ خلال مؤتمر صحفي مع جاك شيراك: «مع=

كان لها مع ذلك مذاق سلطوي غير مريح وبدا أنها تعتبر أن نقد رد الفعل الأمريكي هو من باب كسر المحرمات، بل يمكن فهم العبارة بوصفها تهديداً. لم تكد ١٢ سنة تمر على انهيار جدار برلين وعاد تقسيم العالم إلى صديق وعدو، في حين أن معيار التفرقة كان هو التأييد لسياسة إدارة بوش، وليس كما كان في السابق على أساس مسألة النظام الاقتصادي، أي الرأسمالية أو الشيوعية.

=الوقت سيكون مهما للأمم أن تعرف أنها ستحاسب على سلبيتها. إما أن تكون معنا وضدنا في حربنا على الإرهاب».

inactivity, "he said." You're either with us or against us in the fight against terror.

المصدر : https://edition.cnn.com/2001/US/11/06/gen.attack.on.terror/.

الثغرات الأمنية
ونظريات المؤامرة والثورة الإعلامية

كيف أمكن لهجوم ١١ سبتمبر/أيلول أن ينجح هكذا دون أي معوقات؟ وإذا كانت المخابرات الأمريكية قد عرفت في اليوم التالي مباشرة من هم الجناة ومن يقف وراء الهجمات، لماذا لم يستطيعوا منع وقوعها؟ مع استعادة الأحداث قد يتعجب المرء أو يرتاب لعدم تحرك الولايات المتحدة الأمريكية ضد ابن لادن، رغم أنها كانت تراقبه وتهاجم معسكره.

وأحد الردود الممكنة هو أن التصاريح الاستثنائية للقتل ولهجمات الطائرات المسيرة لم تكن مسألة يسيرة بالنسبة لهم آنذاك، على خلاف الأمر بعد ١١ سبتمبر/أيلول. كانت ثمة حدود، وكان تخطيها يتطلب (كما يوضح التقرير الرسمي لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول)، تفكيراً معقداً، ومراقبة، ومراقبة الأجهزة لبعضها بعضاً وفي النهاية أعاق ذلك كل المحاولات المبذولة للقبض على ابن لادن.

والعبرة المستخلصة من ذلك هي أنه ليس ثمة سيادة للقانون دون قابلية للانتهاك. هذا يعني في استنتاج معاكس: ليس ثمة سيادة مطلقة للقانون، مثلما لا يوجد أيضاً أمن مطلق. سيادة القانون المطلقة شديدة التدقيق والتفحص، سرعان ما تعمل القوى التي لا ترغب فيها على

هدمها وإنهاكها وتدميرها. تجعل سيادة القانون المطلقة نفسها عرضة للهجوم وتكون قابلة بشدة للانتهاك. في المقابل، فإن الأمن المطلق يدمر دولة القانون ويقود على المدى القصير أو البعيد إلى انعدام للأمن أكبر بكثير جداً، ويقود إلى الاستبداد والطغيان. وعلى الكيان المجتمعي الذي يعمل على نحو جيد أن يوازن بين كلا الاحتياجين، مهما كانت صعوبة الأمر في حالات منفردة.

أيضاً من لم ينخدع بنظريات المؤامرة التي انتشرت سريعاً بعد ١١ سبتمبر/أيلول، كان لديه مع ذلك فرصة لطرح أسئلة نقدية. لتوضيح الأمور قدمت الولايات المتحدة عام ٢٠٠٤ تقريراً تفصيلياً، صدر عن الكونغرس بمجلسيه[١]. والمدهش أنه ـ بالنظر لكونه وثيقة رسمية ـ مثير للقراءة للغاية، لكنه يترك أسئلة كثيرة دون إجابة. وبعض منها قام مؤرخون وصحفيون استقصائيون أمريكيون بمعالجته[٢].

من بين النقاط المثيرة للشكوك، كان تعاون المخابرات المركزية الأمريكية «*سي أي إيه*» مع المخابرات السعودية. كان جهاز المخابرات السعودي قد راقب عدداً من الجناة منذ فترة طويلة وجندهم على الأرجح كعملاء مزدوجين أو مخبرين، من أجل الحصول على معلومات عن القاعدة. لكن خطأ حاسماً قد ارتُكب، عندما نسقت الـ «*سي أي إيه*» مع المخابرات السعودية، لكنها مع ذلك لم تنسق مع مكتب التحقيقات الفيدرالية «*إف بي أي*» المسؤول عن تعقب الإرهابيين بمجرد بدء تحركاتهم على الأراضي الأمريكية (لا يحق للسي أي إيه العمل داخل الولايات المتحدة الأمريكية). وبهذا حُجبت عن وعي معلومات عن الـ «*إف بي أي*»، كان من شأنها أن تؤدي إلى اعتقال أو ترحيل بعض الجناة

---

(١) تقرير اللجنة عام ٢٠٠٤.

(٢) مثلاً: Summers ٢٠١١.

قبل تنفيذهم للهجمات. إذن ثمة مسؤولية ما للحكومة والسلطات في الأحداث. لكنها لم تسع عمداً لوقوع الهجمات أو تركتها تحدث باستهتار. وكرد فعل على التعاون المنقوص تأسس بعد ١١ سبتمبر/أيلول «قسم حماية أمن الوطن» الذي يضطلع بنقل المعلومات بين السلطات الأمنية وينسق نشاطاتها. وقد انتقد نشطاء الحقوق المدنية التفويضات وإمكانيات التدخل التي أُتيحت لهذا القسم.

مع ذلك تصمد أساطير المؤامرات التي ترجح تورط الإدارة الأمريكية في الهجمات. وفقاً لاستطلاعات الرأي أعتقد ثلث الأمريكيين في عام ٢٠٠٦ بأن للحكومة يداً فيما حدث[١]. وتقول الفرضية الأساسية لأصحاب نظريات المؤامرة، أن الحكومة تركت الهجمات تحدث، لكي يكون لها فيما بعد مطلق اليد في القيام بحروب وقائية وبتغيير الأنظمة. أما فيما يخص الهجمات نفسها، فيستند أصحاب نظريات المؤامرة إلى حجج تقنية، لا يمكن لغير المتخصصين التأكد من صحتها. ومنها مثلاً أن البرجين ما كانا لينهارا إطلاقاً بعد الاصطدام بطائرات الركاب، لأنهما مصممان خصيصاً لهذه الحالات. وأن انهيار المبنيين كان بالأحرى بسبب وجود متفجرات في كل أنحاء مركز التجارة العالمي.

لكن كل من شكك في الرواية الرسمية، أدرك من خلال ابن لادن، أن شكوكه ليست في محلها. فقد أعلن بشكل سافر في شريط فيديو في منتصف نوفمبر/تشرين الأول ٢٠٠١مسؤوليته عن الهجمات: «حسبنا مسبقا، كم من الخسائر سيتكبدها الأعداء. اتخذنا وضع البرج كأساس وحسبنا، عدد من سيقتلون [...] ورجحت أن بنزين الطائرات المشتعل سيذيب العوارض الحديدية الحاملة للمبنى. لكنني كنت أظن فقط أن

---

(١) المصدر ذاته ص ١٣٢.

موضع الضربة والطوابق التي فوقها هي التي ستنهار. لم نجرؤ على الأمل في أكثر من ذلك»*[1].

ومن منظور اليوم لا تحظى نظريات المؤامرة سوى باهتمام محدود. وحتى ولو صدقت، وهو أمر مستبعد تماماً، فإن ذلك لا يغير من نتائج الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وتبعاته. بأي حال من الأحوال جعلت الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال رد فعلها، من نفسها مساعدة في تنفيذ أجندة ابن لادن الخاصة بصراع الحضارات المائل للعنف. وبأي حال من الأحوال لم يكن بن لادن، بل كان «الغرب» هو من أدخل العالم في «اللاغربنة» «Westlessness»[2].

وبينما كان يمكن للمرء في عام ٢٠٠١ أن يظن أن الهجمات خدمت إدارة بوش وأجندة المحافظين الجدد ـ لأنها استُغلت دون شك من قبلهم ـ نعرف بعد عشرين عاماً أن وضع الولايات المتحدة الأمريكية سيء على نحو ندر أن تكون عليه، وتحديداً بشكل أساسي أيضاً نتيجة للتطورات الناجمة عن هجمات ١١ سبتمبر/أيلول. وإذا تأملنا الأمر على المدى البعيد سنرى أن أصحاب نظريات المؤامرة قد فشلوا فشلا مريعا، إلاّ إذا كان هدفهم هو تدمير الولايات المتحدة الأمريكية، وعندئذ ستتطابق مصالحهم مع مصالح ابن لادن!

لكن نظريات المؤامرة مهمة مع ذلك من جانب يندر أن يؤخذ بعين الاعتبار. فهذه النظريات تقف في مقدمة الاهتزاز الواسع النطاق في

---

(١) Abou-Taam ٢٠٠٦: ص ١٢٢. * الترجمة هنا بتصرف عن الإنجليزية حيث لم يتوفر لنا أصل خطبة ابن لادن المذكورة. (المترجم).
في خطبة في منتصف ديسمبر/كانون الثاني ٢٠٠١، ذكر ابن لادن بعض الجناة بالاسم، وأصلهم ودعا الله أن يتقبلهم شهداء. قارن أيضاً: Miller ٢٠١٥: ص٣٦.

(2) https://securityconference.org/publikationen/munich-security-report-2020/.

أساس الثقة لدى كثير من الناس في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا في مؤسساتهم، وفي إمكانية التعويل على السلطات والنخبة والحكومات، ومدى استقامتها. تعزز نظريات المؤامرة بذلك فقدان الثقة، الذي نتج بأي حال عن الحدث. إنه فقدان الأمريكيين للثقة في دولتهم ـ وفقدان كل الآخرين للثقة في الأمريكيين ـ فقدان للثقة في قدرة هذه الدولة على حماية مواطنيها من هجمات من الخارج، لتكون بذلك جديرة بوظيفتها المركزية. «حطمت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول قفل أسطورة الحماية، الوهم بأننا أسياد الأمن وأن قوة وطننا تجعلنا حصينين وأن عائلاتنا في مجتمعاتها ونساءنا وأطفالنا آمنين بين أذرع أرباب العائلة. أحداث ذاك الصباح أخبرتنا بأنه لا يمكننا الاعتماد على حامينا: وبأن البيت الأبيض لم يتفاعل مع تحذيرات من هجوم وشيك، وأن هيئة الملاحة الجوية الفيدرالية لم تؤمن مطاراتنا وطائراتنا [...] باختصار، بأن مبنى الأجهزة الأمنية الأمريكية برمته لم يقدم أي حماية»[1]، هكذا كتبت عالمة النفس والناشطة النسوية سوزان فالودي Susan Faludi في كتابها «حلم الإرهاب».

تشهد كثافة نظريات المؤامرة وجاذبيتها وتغلغلها في التيار السائد[2] على عمق الاهتزاز، ولكن أيضاً على الحاجة المنتشرة في كل جوانب الطيف السياسي إلى القطيعة مع السياسة السائدة وعرضها الإعلامي. هذه الحاجة لا يمكن الاستخفاف بها باعتبارها غريبة أو بعيدة عن الواقع. إنها تعكس رغبة عقلانية في تغيير يستند في المقام الأول إلى حجج غير

---

(١) Faludi ٢٠٠٧: ص ١٢.

(٢) مثلاً المؤرخ السويسري دانيال غانزر Daniele Ganser في محاضراته التي تحظى بحضور كبير في جامعات شهيرة، كما هي الحال في عام ٢٠١٤ في جامعة توبنغن: https://www.youtube.com/watch?v=nC_jçaT6Ww4.

عقلانية، لأنها لا تجد حججاً أفضل. لكن بالطبع ثمة حجج أفضل. بعضها ورد فيما سبق عرضه. وثمة حجج أخرى سترد فيما بعد.

في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ ومع انهيار البرجين، لم ينهار بالنسبة لكثير من الأمريكيين مجرد التصور بأنهم يهيمنون على العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً، فهذا اليوم يمثل أيضاً تحطيم الواقع ليتحول إلى سردية لا تزال على نحو غريب قائمة وسليمة حتى الآن وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية فقدت في ١١ سبتمبر/أيلول السيطرة على سرديتها عن العالم. لقد ظلت السردية كما هي من قبل، لكن العالم تغير. لا تنتشر نظريات المؤامرة لأن وقعها مقنع للغاية، ولكن لأنه فجأة قد أصبح ممكناً مع الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، بل ومنطقيا، عدم تصديق سردية النجاح الأمريكية من بعد. مع الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بدأ أيضاً عصر «ما بعد الحلم الأمريكي»، مثلما عبر الصحفي مايكل دينزل سميث Mychal Denzel Smith عن ذلك على نحو صائب[١].

مع أنه لم يكن من الضروري أن تصل الأمور لهذا الحد. مع موجة التضامن مع الولايات المتحدة الأمريكية، كان بالإمكان أن تكون ثمة فرصة لتوحيد العالم وتعزيز السلطة الأخلاقية للقوة العظمى الأخيرة المتبقية. لكن كان لدى الولايات المتحدة الأمريكية، وهي في موقف صعب من الناحية الموضوعية، سياسيون ذوو أفق ضيق للغاية. وكان لهؤلاء بدورهم مستشارون يتعاملون مع قناعاتهم الإيديولوجية الراسخة على نحو غير نقدي، لدرجة أنهم يشبهون في ذلك مسؤولو الأحزاب الشيوعية (الأباراتشيك) في شرق أوروبا في الماضي. لم يتصرفوا من أجل مصلحة بلادهم، وإنما وفقاً لسيناريو من الحرب الباردة تم تعديله ليعود من جديد تحت عنوان «صدام الحضارات».

---

(١) Smith ٢٠٢.

على نحو غير متوقع تعزز تأثير نظريات المؤامرة وما بها من تعسف جديد ظاهر تجاه الحقيقة ـ وكذلك عموما تأثير هذه الهجمات ـ وذلك من خلال الثورة الإعلامية التي انطلقت في التسعينات. أكملت القنوات التلفزيونية الجديدة، التي تبث عبر الأقمار الصناعية ويمكن استقبالها في جميع أنحاء العالم، مسيرتها المنتصرة حول العالم انطلاقاً من الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أصبح للعالم العربي أيضاً مع قناة الجزيرة الفضائية في إمارة قطر صوتاً خاصاً ومميزاً (المثير أنه يوجد بقطر المقر الرئيسي للجيش الأمريكي في الخليج منذ حرب الخليج عام ١٩٩١). بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بدأ التعامل مع قناة الجزيرة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بجدية: وهذا يعد أيضاً كسراً لهيمنة الرأي العام الغربي على العالم.

من بين المواد التي بثتها الجزيرة، الرسائل عبر الفيديو التي كان ابن لادن يسجلها في مخابئه المتغيرة. واشتُبه في تعاطف القناة مع الإرهاب وبل كانت ثمة أصوات تطالب بإغلاق القناة بالقوة. لكن لم يكن لذلك معنى سوى أن القناة تؤخذ على محمل الجد. وتنامت أهمية الجزيرة في السنوات التالية وبلغت ذروتها في عام ٢٠١١، عندما أسهمت بشكل حاسم في الثورات العربية.

ثمة ثورة إعلامية أخرى انطلقت في التسعينات وتزامن انتشارها مع أحداث ١١ سبتمبر/أيلول: إنها الإنترنت. صحيح أن وسائل التواصل الاجتماعي كانت عند منعطف القرن لا تزال في مرحلة تجريبية ولم تكن ظاهرة جماهيرية. لكن كان من الواضح أن عالم الاتصالات قد أخذ يتطور بانسياب تام. وقد شكل هذا التطور أحد أهم العوامل فيما يخص التأثير اللاحق طويل المدى للحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وقاد بعد ما يقرب من ٢٠ عاماً إلى هجمات كرايست ـ تشيرش وهالّه وغيرها من الهجمات، التي تم بثها بثاً حياً عبر الإنترنت (لايف ستريم). كان

الحادي عشر من سبتمبر/أيلول نفسه هو أول عمل إرهابي تم بثه على الهواء مباشرة، وكان ذلك من خلال مشاركة غير طوعية من وسائل الإعلام المحلية.

زمن المحافظين الجدد
ومشكلة الجبهة الوطنية

من بين الأسباب التي أسهمت أيضاً في تمكن نظريات المؤامرة من التطور والانتشار بهذا القدر، هو أن هجمات ١١ سبتمبر/أيلول تزامنت مع برنامج حكومي بدت له الهجمات كفرصة ذهبية: من دون الهجمات كان تطبيق هذا البرنامج سيكون أصعب بكثير. وكان لتيار سياسي يطلق على نفسه «المحافظون الجدد»[١] هيمنة قوية على إدارة جورج و. بوش الذي تولى المنصب في مطلع ٢٠٠١. على مستوى السياسة الداخلية كان لدى المحافظين موضوعات محافظة جديدة وتقليدية ويمينية، مثلاً من خلال تأكيدهم على القيم الدينية والبنية العائلية التقليدية وأرادوا الحفاظ على الهيراركية الاجتماعية الراسخة. ومن ناحية السياسة الاقتصادية كانوا يطمحون لخفض الضرائب لذوي الدخل الأفضل، وتقليص الضوابط ووسائل الدعم الحكومية، وكذلك إجراءات نيوليبرالية أخرى. وعلى مستوى السياسة الخارجية اتبعوا سياسة تهدف لـ «قرن أمريكي جديد»[٢]، لقد أرادوا مواصلة الهيمنة الأمريكية من القرن العشرين في القرن الحادي

---

(١) حول هذا الموضوع بإسهاب Fukuyama ٢٠٠٦: ص ٢٣ وما بعدها.

(2) https://web.archive.org/web/20121014140718/
http://www.newamericancentury.org/.

والعشرين، بالطريقة نفسها بالضبط، وفي الحالة المثالية تكون الهيمنة بشكل أفضل وللأبد. ومن هنا نشأت فكرة الحلف الأمريكي «Pax Americana» وهو نظام للسلام العالمي أسسته الولايات المتحدة الأمريكية، تتمثل فيه وسيلة إرساء هذا السلام في عولمة الاقتصاد وتدفقات رأس المال العالمي والعمل على «دمقرطة» أجزاء واسعة من العالم بقدر المستطاع، في حين أن المقصود بذلك بالطبع، كما سيتبين، ليس تمكين المواطن العادي البسيط، وإنما شكل للحكومة، يضمن من ناحية أمناً قانونياً (خصوصاً للاستثمارات والمستثمرين)، وهو من ناحية أخرى، قابل للاختراق، خصوصاً من الخارج، أي أنه قابل للاختراق في العادة من الغرب العالمي. لكن بالطبع لم يُكترث إلاّ قليلاً بأنه قابل للاختراق أيضاً من التأثيرات المنافسة، كالتأثيرات الصينية مثلاً.

لكن أمريكا المحافظين الجدد التي أرادت أن تحكم العالم، تعلقت بخيط من حرير: تعلقت بوضعية الجماعات السكانية البيضاء ذات الطابع البروتستانتي والأنغلوسكسوني الآخذة في الانكماش، أي أمريكا حسب التصور الأوروبي، أمريكا الثقافة الغربية[1]. ومهما كانت هذه التقاليد جديرة بالتقدير، فهي لم تعد منذ وقت طويل تشكل التقاليد الوحيدة والمؤثرة بمفردها في الولايات المتحدة كبلد للهجرة، وهذا أمر حسن.

وما كان المحافظون الجدد يأسفون له، هو أنه بناء على ذلك لم تعد ثمة هوية قومية واحدة للولايات المتحدة، أو أنها تتحقق فقط، عندما ينكر المرء التعددية البارزة بقوة منذ عام ١٩٦٨، ويقلل من شأنها. وهذا ما يفسر أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول كانت فرصة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية للمطالبة بتحجيم التنوع الاجتماعي الذي ظهر في الستينات من جديد. وهذا ما دفع حتى بمراقب ليبرالي مثل

---

(١) مثال على ذلك: Bloom ١٩٨٦.

تيموثي غارتون آش Timothy Garton Ash عام ٢٠٠٦ يطالب «بهوية مواطنة ـ وطنية أكثر طموحاً»[١].

لو احتاج اليمين الشعبوي المنتعش في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية منذ ذاك الحين لدعوة واضحة من مركز الليبرالية الغربية، لكانت هذه هي الدعوة. ما لا يمكن إغفاله أن السبب وراء ذلك هو الخوف المستشري من أن يكون «الغرب» قد أصبح ربما منفتحا وليبراليا ومتعدد الثقافات *أكثر مما* ينبغي، لدرجة تجعله غير قادر على الحفاظ على هيمنته أو أستاذيته على نحو ناجح. لكن ألم يروّج «الغرب» لنفسه في المقام الأول بليبراليته وتنوعه؟ ألن يؤدي الانغلاق الثقافي القومي النزعة وسياسة الهوية إلى نهاية *هذا* «الغرب» ذاته الذي يُروج له كثيراً في كل أنحاء العالم بوصفه نموذجاً يحتذى؟

بالنظر إلى السياسة الخارجية وفيما يخص الولايات المتحدة الأمريكية قيل إنه لا يمكن من خلال دولة متعددة الثقافات صنع سياسة خارجية أحادية الثقافة ـ وهذا يعني أنه لا يمكن صنع سياسة خارجية «غربية» و«بيضاء». فالهيمنة الخارجية تشترط هيمنة داخلية والعكس. وهذه الخبرة ليست جديدة: لم تستطع الولايات المتحدة كسب الحرب في فيتنام، لأن الجبهة الداخلية لم تكن موحدة، نظراً للحركات السلمية وصعود حركة الحريات المدنية في الوقت ذاته، لأن الأمريكيين لم يريدوا الحرب.

وأمام هذه الخلفية أتاح الحادي عشر من سبتمبر/أيلول فرصة مواتية غير متوقعة لتحويل قيم المحافظين الجدد إلى سياسة ملموسة وإلى أجواء سياسية، تخطت حدود الحزب ووضعت معهم أيضاً الخصوم

---

(١) اقتباس من Kundnani ٢٠١٥: ص ٥٠.

السياسيين، أي الديمقراطيين وليبراليين آخرين مثل تيموثي غارتون أش، في صف واحد. لقد أدى الحادي عشر من سبتمبر/أيلول إلى موجة غير مشهودة من تنامي النعرة الوطنية وشيوع الأجواء الثقافية المحافظة. لم يعد من الآن فصاعداً ثمة حيز كبير للأصوات المغايرة، كما سنرى لاحقا. وتمثلت الوطنية فيما تعتبره الحكومة وطنيا. ومن لا يتفق معها، كان يواجه، وفقاً لشعار الرئيس بوش «من ليس معنا فهو ضدنا»، خطر اعتباره متعاطفاً مع الإرهابيين، إن لم تتم معاملته فعلا كإرهابي.

وهكذا أتاح الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول فرصة سانحة لتحقير معارضي العولمة، الذين ازدادت شعبيتهم في التسعينات، وإفقادهم مصداقيتهم. فقد خمن روبرت زوليك Robert Zoellick، الذي كان في السابق المفوض الأمريكي للتجارة (الوزير المختص بالتجارة الخارجية) في كلمة ألقاها في أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠١ وجود «صلات ثقافية» بين الإرهابيين و«الآخرين»، الذين لجأوا لتصرفات عنيفة لمهاجمة عالم المال العالمي والعولمة والولايات المتحدة الأمريكية[١]. وقد يسَّر «قانون الوطنية Patriot Act»، وهو قانون لمكافحة الإرهاب، تقلصت بموجبه الحقوق المدنية بشكل هائل، على الفور أيضاً تجريم أشكال أخرى من المقاومة[٢]. وكان هذا انتصاراً آخر لأسامة بن لادن، كما يرى الكاتب غور فيدال Gore Vidal في كتابه المنتقد للحكومة «حرب أبدية من أجل سلام أبدي»: «الضرر الجسدي الذي تمكن ابن لادن وأصدقائه من إلحاقه بنا ـ وبقدر الفظاعة التي كان عليها حتى الآن ـ لا يقارن بما ألحقه بحرياتنا»[٣].

---

(١) اقتباس من Ayres ٢٠٠٤: ص ٢٥، هامش رقم ١٠.

(٢) مثلاً لدى Kundani ٢٠١٥: ص١٣٨.

(٣) Vidal ٢٠٠٢: ص ٢٠.

في السنوات السابقة على الحادي عشر من سبتمبر/أيلول أدت حركة مناهضة العولمة في الولايات المتحدة إلى اندلاع احتجاجات ضخمة، وبعضها كان عنيفا، وحظيت باهتمام كبير وحققت بعض الأهداف. فمثلاً لم يتمكن مؤتمر منظمة التجارة العالمية في سياتل عام ١٩٩٩ من أن يُتم انعقاده حسب الجدول المقرر. وفشلت المحادثات (بالطبع لأسباب أخرى) وأصبح نقد العولمة على كل لسان بعد أن كان في السابق موضوعا هامشيا[١].

ولأن المقاومة ضد العولمة أصبحت بعد ١١ سبتمبر/أيلول أكثر صعوبة، بل شبه مستحيلة بسبب إجراءات مكافحة الإرهاب والأجواء الوطنية النزعة، انتهزت إدارة بوش الفرصة للتوسع في النيوليبرالية والتجارة الحرة وتثبيت هذه الإجراءات، حيثما كان ممكناً، بحيث لا يمكن العدول عنها. ونُصح بممارسة سياسة اقتصادية عنيفة كوسيلة لمحاربة الإرهاب[٢]. وتم إقناع نواب الكونغرس المترددين بأن واجبهم وطني يحتم عليهم إطلاق يد الحكومة، كي تبرم اتفاقيات تجارة تحررية حسب تقديرها لخاص[٣]. وقد أسهم الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بذلك في الاستمرار في هدم الآليات الديمقراطية وكذلك الوطنية والقانونية لمراقبة الاقتصاد العالمي والمالية العالمية.

وقد كان لمشروع الإغلاق الثقافي للجبهة الوطنية، الذي كان مسجلاً منذ زمن بعيد ضمن مشروع المحافظين الجدد، تبعة أخرى مذهلة. لقد

---

(١) حول ذلك أيضاً:
https://indypendent.org/2011/12/seattle-wto-shutdown-99-to-occupy-organizing-to-win-12-years-later/.

(٢) بحسب بوش في اجتماع شنغهاي لمنتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ APEC. قارن Ayres ٢٠٠٤: ص٢٦.

(٣) المصدر ذاته.

أدى بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول لهجمات بلاغية مكثفة على الإنجازات النسوية والتحررية من العقد السابق. من أجل تعضيد قوى المجتمع في مواجهة أهوال الإرهاب واستعداداً للمواجهات العسكرية القادمة، بدا مهماً من المنظور الوطني المحافظ تعزيز البنى العائلية التقليدية وإعادة إنتاجها. وكان مفاد الرسالة هو أن الأمة التي تحارب تحتاج لامرأة تقف أمام الموقد.

تصف سوزان فالودي كيف قامت الحكومة الأمريكية ووسائل الإعلام المخلصة لها عمداً بمحاربة التحرر النسوي، لأنه يقوض حسب زعمها جاهزية البلاد للحرب وذكورة الأمريكيين: «في خريف وشتاء ٢٠٠١ لم تعد الحركة النسوية مجرد إزعاج سياسي، لقد اعتبرت بالأحرى عدواً، وطابوراً خامساً في الحرب على الإرهاب. [...] كانت النسوية خيانة»[١] وتمت الدعاية بكثافة للعودة إلى العالم المثالي المزعوم لعائلات الضواحي في الخمسينيات[٢]، مثلما أيدها دونالد ترامب بعد ذلك بعشرين عاماً.

لم تكن النسويات هن المشكلة الأكبر في محاولة توحيد صفوف المجتمع أمام خط الحكومة الوطني المحافظ، وإنما المسلمون. أدى ذلك لاعتداءات جسدية وأخرى لفظية عديدة ضدهم أو ضد من كان يُظن أنهم مسلمون، كالسيخ مثلاً، فبسبب تقليدهم المتمثل في ارتداء العمامة، كانوا رمزاً للشرقي الغريب[٣]. لكن من المنظور التاريخي كان المسلمون والسيخ متعادين في أحيان كثيرة. وانتشر الخوف ممن أُطلق عليهم النائمون، في أوروبا كما في الولايات المتحدة الأمريكية. وقُصد

---

(١) Faludi ٢٠٠٧ ص٢٢.

(٢) Faludi ٢٠٠٧ ص١٣.

(٣) Kundnani ٢٠١٥ ص٥٢.

بهم المسلمون الذين يعيشون حياة عادية غير لافتة ويُفترض أن يرتكبوا هجمات إرهابية بناء على تلقيهم إشارة سرية، مثل محمد عطا الطالب السابق في هامبورغ وأحد منفذي الهجمات. تلقفت شركات الإنتاج التلفزيوني وصناعة السينما هذه المادة بامتنان وأسهمت جزئيا في نشر الخوف من الأغراب. ولم يعد كثيرون يعرفون كيف من المفترض أن يقيموا جارهم العربي ـ وبالأخص، عندما لا تربطهم بهذا الجار أي صلة تقريباً ولا يعرفونه حقاً، كما هي الحال عادة. يقول الباحث في الدراسات الثقافية آلان فيلدمان Allen Feldman أن شخصية النائم «منحت تفويضاً وشرعية للأجهزة الأمنية العمومية»[1]. وبقدر ما يبدو ذلك متناقضا، فإن الشعور بالتهديد يمنح النظام الذي يشعر بالتهديد استقراراً ورسوخاً. ومن هنا فإن الأمر ليس مجرد معطى طبيعي، وإنما هو أيضاً دائماً منبثق ومدفوع من وضع معين للمصالح.

عندما بدأت بنفسي بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بإعادة هيكلة مجلة ثقافية تأسست عام ١٩٦٣ لدعم الحوار بين ألمانيا والعالم الإسلامي[2] لتلائم التحديات الجديدة، كانت لدينا على موقعنا الإلكتروني البدائي نسبيا إمكانية للتعليق. لكن هل كان من الممكن الوثوق في تعليقات العرب؟ لقد طلب مني المسؤولون عن معهد غوته فحص تعليقات العرب، وما إذا كانت تتضمن رسائل مشفرة لهؤلاء «النائمين» المستعدين لارتكاب أي جريمة. كان هذا التخيل محض هراء، كما اتضح على الفور، مع ذلك تنقل هذه الفترة انطباعاً حياً عن القلق والفزع، أجل، الهيستريا تجاه كل ما يبدو عربياً أو إسلامياً.

---

(١) Feldman ٢٠٠٥ ص٢٠٩.

(٢) في أرشيف موقع مجلة «فكر وفن»: www.goethe.de/fikrun

«لقد فُهم التركيز الشديد على مكافحة الإرهاب خطأ على أنه مشروع أشمل لإعادة تشكيل الهوية الثقافية للمسلمين»[1]. هكذا يرى عالم السياسة أرون كوندناني Arun Kundnani. ومن وسط التحفظات على الإسلام، التي صرحت بها كل الأطراف، نشأ يمين شعبوي جديد ـ وحركة معادية للأجانب، انتشرت انتشاراً واسعاً عبر وسائل الاجتماعي التي نشأت حديثا. وهذه الحركة كانت لها في بداياتها صلات جيدة مع بعض قطاعات إعلام التيار السائد المحافظ، وكثيراً ما كان عبور الحدود بينهما سلساً[2].

لقد تنامت صعوبة الفصل بين ما كان لا يزال أمراً شائعاً ويمكن قوله في وسائل الإعلام الكبرى، وبين ما كان يُطبخ ويغلي من آراء في مطابخ مشعوذي الإنترنت. وإذا ما أشار المرء إلى إشكالية تطرف الخطاب العام، فمن الممكن فعلا أن يأمل في أن يجد تفهما هنا أو هناك وأن يجد من يشاطرونه الأفكار، لكنه كان سيجد نفسه في المجمل، مغرداً خارج السرب، أو شخصاً ينتحل الأعذار للإسلاميين Islamapologet، إن لم يوصف مباشرة بأنه من «دعاة الأسلمة».

---

(١) Kundnani ٢٠١٥ ص ١٦٣.

(٢) هكذا مثلاً كتب الصحافي هنريك م. برودر Henryk M. Broder تعليقات لمجلة «دير شبيغل» وصحيفة «دي فيلت»، لكنه ينشط أيضاً على منصة الإنترنت «محور الشر» ذات الميول الفكرية اليمينية، التي يطيب لموقع pi-news (عدم الصوابية السياسية Politically Incorrect) الشعبوي العنصري والمعادي للإسلام بفظاظة بدوره الاقتباس منها.

نقد الولايات المتحدة الأمريكية وتقليص تنوع الآراء

كان ١١ سبتمبر/أيلول حدثا إعلامياً عالمياً، «حدثاً مطلقاً»، كما ذكر جان بودريار[١]. توجد الصور والأفلام عن انهيار برجي مركز التجارة العالمي في كتب التاريخ إلى جانب صور الهبوط على سطح القمر، أو تلال الجثث في معسكرات الاعتقال النازية المحررة أو صور القنابل الذرية الأمريكية التي أُلقيت على هيروشيما وناغازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية.

أورثت هيروشيما ركام الأنقاض في مانهاتن أيضاً الاسم الذي أصبح على كل لسان: *غراوند زيرو Ground Zero* وهو ما يمكن ترجمته حرفيا بـ «الأساس صفر»، أو ما يمكن وصفه بـ «الأرض المحروقة» أو إذا أردنا أن نضفي عليه وقعاً إيجابياً يمكن أن نقول «الساعة صفر». لم يكن تعبير «*غراوند زيرو*» متداولا مثل تعبير «الأرض المحروقة». وقبل ١١ سبتمبر/أيلول كان يقتصر استخدامه على هيروشيما وحدها. يصف قاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية ground zero باعتبارها بقعة من الأرض «تقع

---

(١) Baudrillard ٢٠٠٢: ص ٩.

وبذلك بحسب بودريار (على الأرجح ضد طرح «نهاية التاريخ» لفوكوياما)، يكون «إضراب الأحداث» الذي صبغ التسعينات قد انتهى.

تحت القصف المباشر بالقنابل المتفجرة وخصوصاً القصف بقنبلة نووية»[١]. والآن «نزل بلاء هيروشيما عن حق في ١١ سبتمبر/أيلول» كما يكتب الباحث الأمريكي المختص في النقد الثقافي والاجتماعي جين راي Gene Ray[٢]. لم تتم معالجة فصل هيروشيما (وناغازاكي) على نحو نقدي لدى عموم الجماهير. ففي عام ١٩٩٥ أُلغي معرض عن إلقاء القنابل النووية، كان مخططاً له أن يقام في متحف الفضاء الأمريكي في واشنطن، وكان في وسط المعرض قاعة تضم صوراً لم يسبق عرضها من قبل تحت عنوان «غراوند زيرو»، وذلك إثر احتجاجات عنيفة من جمعيات قدامى المحاربين و٨١ نائبا من الكونغرس[٣]. وقليلون فقط هم الذين تذكروا بعد ١١ سبتمبر/أيلول أن أصل عبارة «غراوند زيرو» يعود إلى هيروشيما.

على عكس ما توحي به كتابة تاريخ ما بعد الحرب المحابية لأمريكا عادة، أي تاريخ المنتصرين، لم يكن إلقاء القنابل النووية ضرورياً بأي حال، لإجبار اليابان على الاستسلام وإنهاء الحرب[٤]. لقد كانت الهزيمة اليابانية أمراً مقضياً في وقت سابق على إلقاء القنابل. وبقي فقط السؤال

---

(١) اقتباس من Ray ٢٠٠٥: ص ٥١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) A. a. O: ص ٥٥. حول المعرض الممنوع -هو مثال آخر على ثقافة الإلغاء من طرف اليمين- انظر هذا الملخص الموجز:
https://www.atomicheritage.org/history/controversy-over-enola-gay-exhibition.
كذلك: Harwit ٢٠١٥.
حول مجمل قضية المعالجة الأمريكية المهملة لهيروشيما، انظر: Lifton/Mitchell ١٩٩٦.

(٤) Ray ٢٠٠٥: ص ٥٣.
حتى تقرير المسح الاستراتيجي الأمريكي للقصف United States Strategic Bombing Survey قد توصل لنتيجة مفادها أن الهجوم لم يكن ضروريا. (قارن اقتباسات التقرير لدى راي Ray ٢٠٠٥: ص ٥٤).

عن الشروط التي كان من المفترض أن تُنهى الحرب على أساسها. كان المقصود بالانفجاريين النوويين هو استعراض القوة، ولا سيما أمام الاتحاد السوفيتي الذي أوشك أن يصبح مزهوا بقوته بعد الانتصار على ألمانيا النازية. في المقابل كانت أمثولة هيروشيما وناغازاكي بالنسبة للسوفييت دليلاً على استعداد الأمريكيين لاستخدام أي وسيلة، لو تطلب الأمر ـ حتى هذه الأسلحة التي لم تُر من قبل قط[١]. ومن أجل ذلك لم يكن كافيا إلقاء القنبلة الذرية لأغراض تجريبية فحسب. كان من الضروري قتل الناس من أجل إظهار أن المرء لا يتورع عن الإبادة الجماعية. وهكذا كان، فقد لقي أكثر من مئتي ألف شخص حتفهم جراء إلقاء القنبلتين[٢].

«بالأخص ينطوي تجاوز القواعد السارية لخوض الحروب على قوة رمزية هائلة، لا تُظهر فحسب الحالة الاستثنائية للحرب، بل وأيضاً تُثبت إرادة استخدام الوسائل الأكثر تطرفاً على نحو استعراضي.» هكذا يكتب عالم الاجتماع الألماني فيرنر بيندر Werner Binder عن إلقاء القنبلتين الذريتين كجزء من التاريخ السابق على حرب العراق[٣]. ووفقاً لمنطق التصعيد نفسه، وإن يكن بطريقة تقليدية، من المفترض أن يقوم ما يسمى بتنظيم «الدولة الإسلامية» فيما بعد بتجاوز «القواعد السارية لخوض الحروب»، كما سنرى لاحقاً (قارن ص٢١٢).

هل تضمن نقل عبارة «غراوند زيرو» من هيروشيما إلى نيويورك، ربما، اعتراف الأمريكيين المضمر، بأنهم ليسوا بريئين تماماً من

---

(١) Ray ٢٠٠٥: ص ٥٤ وما تلاها.

(٢) مصدري لهذا الرقم هو بي بي سي:
https://www.bbc.com/news/in-pictures-53476318.

(٣) Binder ٢٠١٣: ص ٢٤٦.

المسؤولية عن الوضع العالمي الذي أسهم في وجود الإرهاب؟ هذا على ما يبدو هو ما استدعى، سواء بوعي أو عن غير وعي[١]. السؤال الذي كان على كل لسان: «Why do they hate us?» «لماذا يكرهنا الإرهابيون؟»[٢]

إحدى الإجابات التي لم يرغب أحد في سماعها، تشكلت في رأس تا-نيسي كوت Ta-Nehisi Coates الكاتب الأمريكي ذو الأصول أفريقية، الذي انتقل مع زوجته وابنه إلى المدينة قبل الهجمات بشهرين، ونظر من بروكلين إلى مانهاتن. هكذا يتذكر: «لقد وقفنا هناك وحدقنا في سحابة الدخان الضخمة التي غطت جزيرة مانهاتن. الجميع كان لديهم شخص يعرفونه من بين المفقودين. تأملت أنقاض أمريكا بقلب بارد [...] لم أشعر بنفسي منسجما مع المدينة. ظننت باستمرار أن مانهاتن الجنوبية كانت دائماً غراوند زيرو. فهناك وضعوا أجسادنا في المزاد، في هذا الحي الخرب، ذي الاسم المناسب: الحي المالي»[٣].

تدعمت قوة الهجمات بكونها بدت وكأنها تحقيق لأقدم الرؤي عن نهاية العالم. لقد صُورت هوليوود في أفلام لا حصر لها عن كوارث مشابهة، وكثير منها وقع في نيويورك، وبدا الآن وكأن هذه الأفلام قد أصبحت واقعاً. وقد تم تناول الهجمات و«الحرب على الإرهاب» التالية عليها بدورهما في العديد من الكتب والأفلام والمسلسلات، وبالتوازي مع الحرب الواقعية على الإرهاب، يُحارب مرة أخرى في الخيال وأحياناً يكون ذلك على نحو أكثر نجاحا مما هو عليه الحال في الواقع، كثيراً ما ينطوي هذا الخيال على مفاجآت، لكنه قاتل بالقدر نفسه وملفت

---

(١) حول ذلك بوضوح Neaman ٢٠٠٢: ص ٥٧.

(٢) Ray ٢٠٠٥.

(٣) Coates ٢٠١٦: ص ٨٩ وما تلاها.

للانتباه، مثلما هو الحال مع المسلسل التلفزيوني «هوملاند» أي الوطن، المكون من ثمانية أجزاء واستمر إنتاجه على مدى عشر سنوات تقريباً.

من جانبها أشارت أبحاث الصدمات النفسية إلى أن الكوارث التي يتم نقلها عبر وسائل الإعلام، يمكن أن تمثل خبرة الصدمة النفسية إن كان المستهدف هو الأمة نفسها أو الجماعة نفسها: «وكان من أثر ١١ سبتمبر/أيلول أن التمييز بين الضحايا المباشرين للإرهاب وبقية الأمة قد بدأ يغيم. وتوصلت الدراسات التي أُجريت بعد ١١ سبتمبر/أيلول إلى أن أناساً لم يكونوا ضحايا مباشرين للإرهاب، بإمكانهم أيضاً تطوير أعراض اضطرابات ما بعد الصدمة، إذا ما بدأوا في التوحد مع الضحايا كنتيجة لشعور جمعي مميز أو عبر البث المباشر أو التكرار اللانهائي[١].

لقد قادت الهجمات إلى تأملات ورؤى عميقة في الفن والأدب والفلسفة[٢]. وكان الحديث عن انهيار الواقع في عالم بدا أنه مكون فقط من صور وعمليات محاكاة. لكن، هكذا تساءل الفيلسوف الفرنسي جان بودريار، «هل يتفوق الواقع حالياً على الخيال؟ لو بدا الأمر هكذا، فإن هذا يرجع إلى أن الواقع قد أصبح يغير من الخيال. [...] إنه ضرب من النزال بين الاثنين، أي منهما هو الأكثر قدرة على تجاوز كل التصورات»[٣]

بعد خمسة أيام من الهجمات أدلى المؤلف الموسيقي كارل هاينتس شتوكهاوزن Karlheinz Stockhausen بتصريح مشابه وتسبب في فضيحة. لقد قال: «ما حدث ـ والآن عليكم جميعا تهيئة عقولكم لذلك ـ هو أكبر

---

(١) Brunner ٢٠١٤: ص ٢٤٣.

(٢) يقدم نيامان رؤية نقدية عامة لردود الفعل في ألمانيا من منظور الوسطية السعيدة اليمينية والمؤيدة لأمريكا: Neaman ٢٠٠٢.

(٣) Baudrillard: ص ٣٧ وما تلاها.

عمل فني وُجد على الإطلاق»[1] وتسبب ذلك في غضب شديد عليه. وألغيت سلسلة من الحفلات الموسيقية لمؤلفاته في مهرجان الموسيقى في هامبورغ. لم تنتعش ثقافة الإلغاء *Cancel Culture*، أي النهج السيء في إلغاء الفعاليات لأن تصريحات أو أفعال الفنانين أو المحاضرين تثير الاستياء، على يسار الطيف السياسي، وإنما انتعشت مع العفريت الخارج من رماد غراوند زيرو.

إلى جانب التعاطف المألوف وبيانات التضامن مع الولايات المتحدة الأمريكية ـ مثلاً قام الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات بالتبرع بالدم للضحايا في تحرك دعائي، لكي يدحض الانطباع عن شماتة الفلسطينيين ـ كانت هناك أيضاً أصوات محذرة وناقدة. أدونيس الذي كتب قبل ثلاثين عاماً قصيدة «قبر من أجل نيويورك»، كتب في مقال لأسبوعية ألمانية: «تظهر الحرب أن العولمة في جوهرها تحالف بين أنظمة سياسية ومؤسسات وليس بين شعوب وثقافات. العولمة هي المقام الأول سياسة عسكرية، تأتي فيها الجوانب الاقتصادية من إنتاج واستهلاك في المقدمة. [...] بعبارة أخرى ترسخ العولمة نفسها بوصفها عولمة للآلات وحروبها وليس للبشر وإنجازاتهم الإبداعية»[2].

وبهذا رُصدت على نحو دقيق نوعا ما السياسة التي فُرضت في ذاك الوقت، وبالنظر إلى الماضي بعد عشرين عاماً أصبح من غير الممكن إغفالها: إنها سياسة تصعيد العولمة في ظل تنامي تجنب «البشر وإنجازاتهم الإبداعية».

كتبت المؤلفة الهندية الشهيرة أروناداتي روي في ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١: «لقد حان الوقت، أن تبقى البشرية ساكنة، أن تغوص في

---

(١) اقتباس من Theweleit ٢٠٠٢: ص ١٢٢.

(٢) Adonis ٢٠٠١.

مصادر حكمتها الجمعية، سواء في العصور القديمة أو حتى في الحداثة. ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، قد غير العالم للأبد. الحرية والتقدم والغنى والثروة والتكنولوجيات والحرب ـ كل هذه الكلمات اكتسبت معنى جديداً. على الحكومات أن تعترف بهذا التحول وأن تضطلع بمهامه الجديدة بحد أدنى من الأمانة والتواضع. للأسف لم تكن حتى الآن أي بادرة للتأمل الذاتي لدى قادة التحالف الدولي. أو لدى طالبان»[1].

مثل هذه الأصوات لاقت صدى لها في ألمانيا بتقاليدها السلمية القوية. مثلاً، تجرأ أولريش فيكرت Ulrich Wickert وكان آنذاك أشهر مذيع للأخبار في ألمانيا، واقتبس مقولة مثيرة لأروندااتي روي، مفادها أن ابن لادن هو «القرين المظلم» لجورج بوش. ورغم أن فيكرت لم يصرح بذلك في القناة الأولى الألمانية «إيه أر دي»، طالبت ميركل، وكانت آنذاك زعيمة للمعارضة بفصله من العمل[2]، إذا لم يتراجع عن

---

(١) Roy ٢٠١٦.

(٢) بإيجاز: «احتج حزبا الاتحاد المسيحي بشدة على مقال فيكرت. وقالت رئيسة الاتحاد المسيحي الديمقراطي أنغيلا ميركل لصحيفة «بيلد»: «إن مقارنة بوش بابن لادن لن تمر دون عواقب. وإذا صحت التصريحات المنسوبة لفيكرت، فلم يعد ممكناً له أن يبقى إطلاقاً كمقدم للأخبار في محطة التلفزيون العامة». وطالب النائب عن الاتحاد المسيحي الديمقراطي فريدبرت بفلوغر Friedbert Pflüger، في تصريح أيضاً لصحيفة «بيلد»، فيكرت بتقديم اعتذار، وإلا فلا مكان له على الشاشة. إلى ذلك كان على مجلس إذاعة شمال ألمانيا أن يهتم بهذه التصريحات. وطالب مدير مكتب رئيس وزراء ولاية بافاريا إرفين هوبر (الاتحاد المسيحي الاجتماعي) في تصريح لمجلة «فوكوس»، اتحاد الإذاعات الألمانية إيه أر دي ARD وإذاعة شمال ألمانيا المسؤولة عن النشرة الإخبارية الموسعة بعدم ظهور فيكرت على الشاشة، لأنه لم يعد يتمتع بالمصداقية التي تؤهله لتقديم أخبار عن إجراءات الولايات المتحدة الأمريكية لمكافحة الإرهاب».
المصدر: https://www.dreigliederung.de/news/01100400.

تعليقه ويعتذر. وهو ما قد فعله، أيضاً بإلحاح من رب عمله وهو إذاعة شمال ألمانيا «إن دي أر»[١].

أجواء مشابهة شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن على نحو أكثر قوة، حيث تعرض برنامج تلفزيوني جماهيري ذو عنوان ساخر هو «Politically Correct» (أي «صائب سياسياً») لضغوط كبيرة، ثم أُوقف بعد أشهر قليلة، لأن مقدمه الكوميدي بيل ماهر قد اتفق مع رأي سوزان سونتاغ وآخرين بأن الجناة لم يكونوا جبناء[٢].

بالطبع كان بإمكان سوزان سونتاغ وأروندااتي روي أن يعبرا عن رأيهما من دون أي مشكلة (في صحيفة الغارديان البريطانية أو فرانكفورتر ألغماينه الألمانية)، حتى لو حصدتا الكثير من الانتقادات[٣]. كان الهدف من هذا النقد الدفاعي (أي نقد النقد) من جانب الصحفيين ووسائل الإعلام اليمينية والمحافظة ـ أي كلاب حراسة الوسطية السعيدة *Juste Milieu* للنظام المهيمن ـ هو الحجر على الآراء السياسية التقدمية.

نُشرت مقالات سونتاغ وروي في الصفحات الثقافية التي لا تحظى بالأحرى بقراء كثيرين. لقد كُتبت لأناس كانوا يقرأون الكتب ويقدرون ويفهمون أعمال الكاتبتين. لم تصل المقالات، التي كان من شأنها أن تحدث تحولا حقيقيا في الآراء، إلى الغالبية العظمى من الجمهور. لكن في اللحظة التي تبنى فيها نجوم تلفزيون معروفين مثل فيكرت وبيل ماهر

---

(١) التصريح الرسمي لفيكرت:
https://www.presseportal.de/pm/6561/287988.
نشر النص الأصلي لتعليقه مجددا في كتابه: Wickert ٢٠١٧: ص ٣٨٥.

(2) https://www.nytimes.com/2001/09/29/arts/think-tank-in-new-war-on-terrorism-words-are-weapons-too.html.

(٣) قارن قائمة نقد منتقدي الولايات المتحدة الأمريكية لدى: Neaman ٢٠٠٢.

هذه الآراء النقدية ونشروها، بلغت المعارضة وتنوع الآراء بالنسبة لحراس النظام القائم حداً لا يجوز احتماله.

من منظور اليوم أُعلنت آنذاك الخطوط الأمامية لجبهات صراع الآراء التي شغلت أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عاماً بعد عام أكثر فأكثر. والسبب الرئيسي في رد الفعل العنيف من جانب دوائر المحافظين واليمينيين وذوي التفكير الضيق من أنصار العلاقات عبر الأطلسية، على أصوات خرجت عن الإجماع، أصبح في غضون ذلك بوضوح أفدح من أن يكون مجرد صراع آراء.

من منظور عام ٢٠٢١، نرى بوضوح أن هؤلاء الذين انتقدوا السياسة المتهورة والتصعيدية للولايات المتحدة الأمريكية، كانوا لحد كبير على حق، عندما حذروا من الكارثة، التي ستحدثها السياسة: بعد عشرين عاماً ظهرت هذه الكارثة في كل مجالات سياسة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. لم تحقق السياسة الأمريكية أي شيء إيجابي جيد باق وذي نفع، ولا حتى ما بما يتفق وأهواء خبراء استراتيجيين محافظين ويمينيين. وعوضاً عن توسيع هيمنتها، ضخمت هذه السياسة من خصومها، وخصوصاً روسيا والصين، اللتين لم تكونا منافستين للولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠١. وبقدر ما بدت الولايات المتحدة الأمريكية موحدة ظاهريا بعد ١١ سبتمبر/أيلول ـ مع أن هذا كان فقط بفضل عمليات تعميم إعلامية هائلة، وما عرضنا له من إجراءات الرقابة «الناعمة» ـ بقدر ما هي منقسمة بعد ذلك بعشرين عاماً.

هل من الممكن أن يكون رد الفعل القاسي بحق المنتقدين لسياسة ١١ سبتمبر/أيلول الأمريكية، وخنق أي نقاش جدي غير محسوم النتائج، كان بسبب وجود فكرة غامضة، وتحديداً أن ثمة شيئاً كان على المحك،

وأن الهجمات لم تكن مجرد هجمات قاتلة وغادرة وشريرة فحسب، بل وأنها أصابت النظام القائم في النخاع وزعزعت أساسه؟

وبمجرد أن يتوقف المرء ويتأمل ما حدث، وبمجرد أن يقوم بجدية ببحث الأسباب والعلاقات المترابطة، ويتحتم عليه تبعا لذلك أن يتحسس البُنى التي جعلت الإرهاب ممكناً ـ مثلاً، الصلات الوثيقة للغاية بين السعودية وصناعة النفط الأمريكية، بما في ذلك آل بوش، الذين أثروا من خلال عملهم في قطاع النفط[1] ـ سيتبين حتماً أن الآراء وكذلك الأمور البديهية التي كانت سائدة حتى ذاك الحين، مثل الأوضاع السياسية الاقتصادية والسياسية الاجتماعية العالمية التي تقف وراء ذلك لم يعد استمرارها ممكناً ولا يمكن تبريرها.

لقد سقطت الولايات المتحدة والنظام العالمي المدعوم من قبلها ـ سأشرح ذلك بإسهاب في الفصل الأخير ـ في فخ، من دون أن يتمكن الجناة أو المحركين لهم من توقع ذلك بوضوح أو التخطيط له. بالتعبير المجازي للعبة الشطرنج، تورطت الولايات المتحدة والنظام المدعوم من قبلها في موقف، كان أفضل مخرج لها منه هو التعادل. لكن هذا التعادل كان يجب تقديمه على الفور للخصوم، أي لكل «باقي» العالم غير الغربي: مع كل خطوة إضافية تتُخذ اعتقاداً في الفوز باللعبة بسهولة، كانت واشنطن والنظام الذي تدعمه يقتربان من الهزيمة أكثر فأكثر. لكن الفخ لم يكن يتمثل في أن تعادلا كان سيبدو لهما مثل الهزيمة. لم تكن إمكانية عدم الفوز قائمة قط في التصور الخاص عن العالم. وبالفعل في أكتوبر/تشرين الأول تحدث الفيلسوف الفرنسي جان بودريار مستشرفاً عن «انتصار الإرهاب»[2].

---

(١) حول ذلك: Unger ٢٠٠٤.

(٢) Baudrillard ٢٠٠٢: ص ٤٤.

وبالفعل: لم يكن واقعيا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ألا تصدر أي رد فعل أو أن تكون نقدية لذاتها وسلمية فحسب، مثلما تمنى بعض المعلقين اليساريين. أرادت الولايات المتحدة أن تحفظ ماء وجهها وألا تفقد قدرتها على ترهيب الآخرين وألا تخسر احترامهم. ولهذا بالذات، لأن الهجمات في وحشيتها المتجاوزة لكل الحدود واحتقارها لكل قيم المُهاجَمين، لم تترك خياراً سوى رد الهجوم، وبهذا وقعت الولايات المتحدة الأمريكية في الفخ الذي لم يستطع المدافعون عنها إنقاذها منه.

وضعت هجمات ١١ سبتمبر/أيلول الولايات المتحدة في وضعية «كش ملك»، دون أن تدرك ذلك. وهو ما يشبه على هذا النحو وقوع إمبراطورية النمسا والمجر بعد مقتل ولي العهد فرانتس فرديناند على يدي إرهابيين صرب في فخ، لم يكن أمامها مخرج منه سوى الحرب، التي أصبحت في نهاية المطاف الحرب العالمية الأولي، أو فقدان ماء الوجه، الذي كان من شأنه أيضاً أن يمهد لانهيار الإمبراطورية ذاتها، لكنه كان سيكون انهياراً أقل دموية وليس له تبعات عالمية.

كان آل غور كرئيس سيواجه ضغوطاً مشابهة مثل بوش، لكنه كان على الأقل سيمهد فعلياً لتوجه سياسي جديد، وسيضع أولويات، غير مرتبطة بالإرهاب، مثل الأهداف المناخية. وبالتالي لم تكن الهجمات لتمثل لإدارته الفخ الذي وقع فيه بوش وفريقه. كان سيكون بإمكانه الخروج من الفخ، لأنه كانت لا تزال لديه رؤى وأهداف ومهام. أما بوش في المقابل، فقد فر إلى الأمام، وسعى لدعم طاقة الإرهاب السوداء في سياسات المحافظين الجدد. وسمح بذلك لأنشوطة ابن لادن المبسوطة أن تضيق عاماً بعد عام، بحيث لم يعد رئيس مثل أوباما يعرف في آخر المطاف كيف يمكنه أن يخرج من الفخ، رغم تمكنه من قتل ابن لادن.

يذكر مصير المثقفين النقديين والمحذرين بعد ١١ سبتمبر/أيلول ـ وتحديداً تمكنهم من قول ما يريدون، لكن دون أن يتم الإصغاء لهم أو سماعهم ـ أيضاً بصيف ١٩١٤. من تجرأ آنذاك على رفع صوته على صوت المعركة مثل هيرمان هيسه في ألمانيا أو رومان رولان في فرنسا، كان يوصم أيضاً بانعدام الوطنية مثل المثقفين النقديين بعد ١١ سبتمبر/ أيلول، الذين اتهموا بأنهم «هستيريون معادون لأمريكا»[١]. وكما تبين، كانوا مع ذلك على حق في تحذيراتهم قبل مئة عام، تماماً مثل الأصوات النقدية بعد ١١ سبتمبر/أيلول قبل عشرين عاماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) Neaman ٢٠٠٢ص ٦٧ : يصف نيامان بهذا التعبير ردود الفعل المؤيدة لمقال أروندااتي روي، أي أنها يؤيد التقييم.

غوانتانمو: بداية المطاردة

تمثلت أحد ردود الفعل الخارجية الأولى لإدارة بوش على الهجمات في إعطاء مهلة لحركة طالبان الحاكمة في أفغانستان، لتسليم ابن لادن وإلا فستكون الحرب وسيقوم الأمريكيون بالقبض عليه بأنفسهم. حصلت الولايات المتحدة الأمريكية على تأييد واسع من حلفائها في هذه المهمة. ولأول مرة في تاريخه أعلن حلف شمال الأطلسي عن حالة تحالف. ولا بد أن ابن لادن قد اعتبر ذلك تشريفاً له وأول انتصار صغير. أعلن مجلس الأمن الدولي في قرارين (هما ١٣٦٣ و١٣٧٣) ١١ سبتمبر/أيلول بوصفه هجوماً حربياً واعترف بذلك بحق الولايات المتحدة الأمريكية في الدفاع عن نفسها. لكن طالبان لم تُسلم ابن لادن.

وهكذا بدأت في ٧ أكتوبر/تشرين الأول الحرب الجوية على طالبان والقاعدة. بالطبع ظل ابن لادن مختفياً، وإن لم يكن اختفاء تاماً: فقد كان يقوم بانتظام بتوجيه رسائل صوتية أو بالفيديو من مخابئ متغيرة، وقد وضع بذلك إصبعه على الجرح المفتوح: وهو أن الآلة العسكرية الأمريكية برمتها غير قادرة على العثور على أكثر رجل مطلوب في العالم أو على قتله: «Wanted, dead or alive» (مطلوب حياً أو ميتاً)، هكذا قال جورج بوش عن ابن لادن في ٢٠٠١/٩/١٧ عبر قناة «سي إن إن».

ومن أجل التمكن من إثبات تحقيق نجاح ولو صوري في الحرب على الإرهاب ومطاردة من يقفون وراءه، بدأت الولايات المتحدة

الأمريكية في القبض على أعداد كبيرة من البشر في أفغانستان وأماكن أخرى للاشتباه في كونهم إرهابيين ومؤيدين للقاعدة. ووفقاً للقراءة الأمريكية لم يتعلق الأمر بأسرى حرب، كي لا يخضعوا للقوانين الدولية لمحددة لأسرى الحرب، وإنما بـ«مقاتلين أعداء» لا يتمتعون بوضع قانوني مقبول.

في خليج غوانتانمو بشرق كوبا، أُنشئ معسكر اعتقال لهؤلاء «المقاتلين» في القاعدة البحرية التي استأجرتها الولايات المتحدة منذ عام ١٩٠٣ لأجل غير مسمى. وهناك كان من الممكن تعريضهم لما سُمي «بإجراءات التحقيق المشددة»، وهي عادة عمليات تعذيب تتم بحذق بحيث لا يمكن إثباتها، ومن دون أن تكون القوانين السارية على الأراضي الأمريكية قد انتهكت. وقد أثارت ممارسة «الإيهام بالغرق Waterboardings» التي استخدمت على نطاق واسع نقاشات حامية.

على مدى العشرين عاماً الماضية، كان معظم المعتقلين قد سُرحوا من غوانتانمو، وكثيرون منهم كانوا أبرياء، وبعضهم نُقل إلى سجون أمريكية أو سُلم إلى بلدان أخرى. وآخرون عادوا للانضمام لجهاديين بعد إطلاق سراحهم، وجرت مهاجمتهم مجدداً أو قتلهم في هجمات بطائرات مسيرة. ورغم المحاولات الجادة للرئيس أوباما لحل المعسكر، فلا يزال قائماً. لا أحد يعرف ماذا ينبغي فعله بالمعتقلين، إذ أنه من غير الممكن محاكمتهم وفقاً للقانون الأمريكي ولا يمكن إطلاق سراحهم. ناهيك عن السؤال عن المكان الذي ينبغي إطلاق سراحهم فيه، إذ ليس هناك تقريباً من يرغب في استقبالهم. وقد أصدر ترامب قراراً عام ٢٠١٨ بالإبقاء على المعسكر لأمد مفتوح[١].

---

(١) «في يناير/كانون الثاني ٢٠١٨ وقع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب أمراً تنفيذياً بإبقاء معسكر المعتقلين قائماً لأجل غير مسمى. لقد فكر أيضاً في إعادة ممارسة الإيهام=

أتاحت الأوضاع في غوانتانامو لابن لادن، وللجهاد المناهض للغرب الذي اتهم «الغرب» بازدواج المعايير وبالنفاق، انتصاراً آخر غير متوقع. لقد خانت الولايات المتحدة مبادئها، دون أن تحقق نجاحا يذكر في «حربها على الإرهاب». عوضاً عن ذلك بُث المزيد من بذور الكراهية لأمريكا والتشكك في مصداقية خطاب حقوق الإنسان «الغربي»، خصوصاً في أوساط المسلمين.

ومن بين المعتقلين الذين نقلتهم الولايات المتحدة الأمريكية إلى غوانتانامو، كان مراد كورناز التركي الجنسية المولود في بريمن ويعيش بصفة دائمة في ألمانيا. لقد سافر في غير حذق، في تلك الفترة بالذات، أي في أكتوبر/تشرين ٢٠٠١ إلى إحدى الجماعات الإسلامية الأصولية في باكستان، وقبضت عليه الشرطة وكما حدث في حالات مشابهة، سُلم إلى الأمريكيين الذين اشتبهوا في ضلوعه في الإرهاب، مقابل فدية. لكن لم يوجد قط أي دليل على ذلك.

ومع ذلك ظل كورناز محتجزاً دون تهمة حتى عام ٢٠٠٦. صحيح أن الولايات المتحدة قد عرضت منذ عام ٢٠٠٢ تسليم كورناز إلى ألمانيا، لكن جمهورية ألمانيا الاتحادية رفضت استلامه. اتخذ فرانك فالتر شتاينماير الذي كان آنذاك مديراً لمكتب المستشارية القرار بعدم استلام كورناز وذلك بناء على مشورة هانس غيورغ ماسن Hans-Georg Maaßen الذي كان آنذاك رئيس قسم في وزارة الداخلية، ولاحقاً مدير

=بالغرق أو ما هو أسوأ منها. في مايو/أيار ٢٠١٨ نُقل أول معتقل أثناء ولاية ترامب، ليتقلص بذلك عدد المعتقلين إلى ٤٠». نقلاً عن:

https://www.newagebd.net/article/113093/the-gitmo-detainees-of-911

إضافة إلى ذلك:

https://www.nytimes.com/2020/08/14/us/politics/senators-criticize-guantanamo-prison-coronavirus-plan.html.

هيئة حماية الدستور. في عام ٢٠١٨ تمت إقالته من منصبه بسببه انتقاده لرأي الحكومة الاتحادية بشأن احتجاجات اليمين المتطرف في مدينة كيمنتس. كان ماسن يتبنى خلال توليه منصبه موقفاً نقدياً، إن لم نقل معاديا للإسلام، أصبح سائداً من بعد ١١ سبتمبر/أيلول في قطاعات من أجهزة الأمن الألمانية. من خلال التركيز على الإسلام يختفي من المشهد خطر الإرهاب اليميني الألماني. وقد اكتسبت التوجهات المسلحة لدى الأوساط اليمينية المتطرفة بذلك مجالا لتطوير نفسها.

إن سعي ماسن والسلطات الألمانية، منع كورناز من العودة إلى ألمانيا، لهو مثال على القطيعة مع مفهوم للدولة يتحدد على مبادئ أخلاقية ودستورية، لصالح تفسير هوياتي لها باعتبارها أمة متجانسة عرقيا ودينيا. بعد ١١ سبتمبر/أيلول انتشر من جديد هذا الفهم للدولة القومية الذي يعود للقرن التاسع عشر على نطاق واسع في مختلف أنحاء العالم.

حصل كورناز عبر حكم قضائي في النهاية على حق العودة إلى ألمانيا، وبهذا تم الذود عن سيادة القانون في مواجهة تصرفات الحكومة. وبهذا أدى فصل السلطات دوره المنوط به: وهذا مثال على أنه يجدر الدفاع عنه في مواجهة تعديات السلطة التنفيذية والفهم الاستبدادي للدولة.

الجزء الثاني

من طرد طالبان
وحتى نهاية حقبة ١١ سبتمبر/أيلول

مقبرة الإمبراطوريات، أولاً: أفغانستان

في مطلع عام ٢٠٠٢ كانت حركة طالبان قد طُردت من معظم أنحاء أفغانستان. كان من المفترض أن تقوم قوات الإيساف ISAF (قوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان)، تحت قيادة الناتو وبمشاركة الجيش الألماني بإعادة إحلال الأمن في أفغانستان وإعادة بنائها. وذلك على أساس فكرة «بناء الأمة *Nation-Building*»، وهو شعار دارت حوله منذ التسعينات نقاشات كثيرة في السياسة الدولية حول بناء دولة (قومية) تعمل بشكل فعال. وكانت إعادة إعمار كل من ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية هي النموذج التاريخي لذلك.

رُسمت حدود أفغانستان من قبل البريطانيين والروس في نهاية القرن التاسع عشر بغرض خلق منطقة عازلة بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية. وبهذا كان من المفترض تقليص خطر حدوث مواجهة مباشرة بين الإمبراطوريتين العالميتين العظميين الآخذتين في التوسع في آسيا[١]. أما في أفغانستان نفسها فلم تكون مصدراً إلاّ للقليل من الثروات ـ إذ يصعب استخراج الثروات المعدنية، ولا يمكن الاستفادة من زراعة الأفيون ذات العائد الكبير بشكل شرعي.

---

(١) Schetter ٢٠٠٤: ص ٥٥ والصفحات التالية.

في عام ١٨٤٢ تلقى الإنجليز في أفغانستان أكبر هزيمة في تاريخهم الاستعماري. لكن تحتم أيضاً على إمبراطوريات إسلامية كبرى قبلهم ـ مثل الصفويين من إيران ومغول الهند ـ أن تدرك أنه من الصعب حكم أفغانستان. ورغم ذلك حاول الاتحاد السوفيتي القيام بذلك في نهاية السبعينات. والنتيجة معروفة: بعد أن غادر الجيش الأحمر أفغانستان في عام ١٩٨٩ مهزوماً، انهارت الإمبراطورية السوفيتية. كان المجاهدون على قناعة بأنهم أسقطوا إمبراطورية عالمية. فلماذا لا تحاول حركة طالبان التي جاءت خلفاً لهم أن تعيد الكرة، عندما أتى الغرب إلى البلاد في هيئة الأمريكيين وقوات الإيساف؟ لم يأت إطلاق اسم «مقبرة الإمبراطوريات» على أفغانستان من فراغ («the graveyard of empires»).

في حملته الانتخابية عام ٢٠٠٠ أوضح بوش بوعي أنه «لا يعتقد أنه ينبغي لجنوده المشاركة فيما يُوصف ببناء الأمة»[١]. صحيح أن هذا الوعد قد أصبح متقادماً لحد ما بعد ١١ سبتمبر/أيلول، لكنه يوضح التناقض الذي طغى على التدخلات العسكرية الأمريكية وعمليات تغيير الأنظمة في السنوات التالية. كانت الصيغة الخفيفة المنشودة للإمبراطورية[٢] ستتحقق فقط لو شارك في ذلك الآخرون كلهم، بما فيهم العدو المستهدف. لكن لماذا ينبغي عليهم أن يسايروا رغبات الأمريكيين؟

كما ذكرنا سعى الأمريكيون أولا لحث الملا عمر «أمير» حركة طالبان على تسليم ابن لادن والجهاديين. كان هذا سيكون الحل الأبسط. وكان سيكون بإمكان الولايات المتحدة أن تركز مباشرة على حربها المزمعة

---

(١) اقتباس من Fukuyama ٢٠٠٦: ص ٥٥.

(٢) كما يذكر المؤرخ مايكل إغناتيف (٢٠٠٣) في كتابه الذي يحمل الاسم ذاته.

على العراق، وهو هدفها الحقيقي[١]. لكن الملا عمر رفض، وفشلت محاولة قتله بالطائرات المسيرة[٢]. وأصبحت الحرب في أفغانستان أمراً لا مفر منه. وبالطبع سيرفض وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد تحمل المسؤولية عما حدث بعد سقوط طالبان: «لا أعتقد أننا مسؤولون عن شكل الحكومة التي يفترض أن تحكم هذا البلد»[٣].. وهذا التقدير كان متعجلا، كما سيتبين بعد ذلك بوقت قصير.

أوكل الأمريكيون في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١ لميليشيات أفغانية حليفة القيام بالعمليات الخطيرة على الأرض واقتصر تدخل قواتهم على العمليات الجوية والعمليات الخاصة. وقد توقعت حركة طالبان وبن لادن هذا السيناريو. وبالضبط قبل يومين من ١١ سبتمبر/أيلول، أي في التاسع من سبتمبر/أيلول قُتل أهم خصومهم وهو أحمد شاه مسعود الحاكم في شمال أفغانستان، في هجوم غادر. حقق مسعود شهرة ومجداً في حربه ضد الجيش الأحمر واعتبرا موالياً للغرب، وذلك فقط لمجرد أنه كان يتحدث الفرنسية بشكل رائع. كانت تصفيته مبكراً أمراً ينطوي على عبقرية شيطانية: لقد تم التخلص من المرشح الأكثر حظا لحكم دولة جديدة يحتمل قيامها في أفغانستان، قبل أن تدرك أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية لماذا تمت تصفيته في سياق الحرب على أفغانستان بعد سبتمبر/أيلول.

لكن عندما طُردت طالبان في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١ بسرعة مفاجئة، تم تصعيد حميد كرزاي (من مواليد ١٩٥٧)، رجل الأعمال

---

(١) Schulze ٢٠١٦: ص ٥١٠ وما تلاها.

(2) https://www.theatlantic.com/international/archive/2015/05/america-first-drone-strike-afghanistan/394463

(٣) اقتباس من Ferguson ٢٠٠٥: ص ١٦٥.

الثري في باكستان الذي كان يدعم المجاهدين، ليكون المرشح المنشود من قبل الغرب. قامت قوات الأيساف بتأمين وحراسة إعادة البناء في أفغانستان الجديدة، وقامت قوات أمريكية خاصة وأمراء حرب متحالفين معها بمطاردة من تبقى من مقاتلي طالبان. وهذا التكتيك كان مطابقاً لرؤية «الإمبراطورية الخفيفة»[١]، التي تعتمد على دعم الآخرين. لكن ذلك كان خطيراً كما سيتبين سريعاً. وقد حذر جو بايدن، الذي كان آنذاك عضو ديمقراطيا في مجلس الشيوخ، في عام ٢٠٠٢ قائلاً: «لقد أحلت أمريكا أمراء الحرب محل طالبان [...]. أجل لقد جعلنا منهم جوهر سياستنا»[٢].

ولأنه لم يكن لدى الأمريكيين اهتمام يذكر بأفغانستان، فقد تركوا إعادة البناء وتطبيق حقوق الإنسان والمشاركة الديمقراطية للحلفاء من قوات الأيساف، وبالأخص للألمان والفرنسيين، الذين شاركوا في دعم المجتمع المدني الأفغاني بعدد كبير من منظمات المجتمع المدني والمشروعات التنموية. وأصبح لأفغانستان دستور أنموذجي حديث، كان يبدو جذاباً جداً ـ على الورق!

وبسبب الهجمات والعمليات الإرهابية التي سرعان ما انطلقت، تقوقعت قوات الأيساف أكثر فأكثر داخل معسكراتها. لم يكن لدى قوات الأيساف اتصال بالسكان المحليين مثل طالبان، أمراء الحرب المحليين، وبذلك فقدوا احترام الناس لهم. وكان للأمريكيين بالذات سمعة سيئة بسبب عدم مراعاة قواتهم الخاصة للناس وبسبب هجماتهم الجوية. في عام ٢٠١٩ حكى لي أحد العاملين المدنيين السابقين في الجيش الألماني في أفغانستان عن خبراته هناك، وأن القوات الأمريكية كانت ترفع أحياناً

---

(١) Ignatieff ٢٠٠٣.

(٢) اقتباس من Rashid ٢٠١٠: ص ٣٤٣.

العلم الألماني أثناء مرورها بقرى أفغانية. وأنهم لم يفعلوا ذلك لتقليص خطر الهجمات فحسب وإنما أيضاً للإساءة للجنود الألمان المعروفين بسلوكهم المنضبط وتشويه سمعتهم. وقد تحقق ذلك، لأن الأمريكيين تصرفوا أيضاً تحت العلم الألماني كأمريكيين وقوضوا بذلك ثقة السكان في مهمة الأيساف كلها. وأوضح لي مصدري أن تقديم الشكاوى بهذا الخصوص لدى القوات الأمريكية كان أمراً عبثياً. لقد أنكروا كل شيء باستمرار، ولم يجرؤ الألمان على المخاطرة بنزاع علني.

ظاهرياً بدا أن كل شيء يسير وفقاً للخطة. انتخب كرزاي في عام ٢٠٠٤ رئيساً للبلاد في أول انتخابات حرة منذ ربع قرن. وبالتوازي مع ذلك جرت عملية تأسيس الشرطة والجيش. وفي الصراع مع طالبان التي اشتد عضدها من جديد، كان أفراد الشرطة والجيش في خطوط المواجهة الأمامية وكان معظم الضحايا من بينهم. لكن إعادة البناء المدنية كانت تسير بشكل متعثر. لم يكن للشعب الأفغاني وللحكومة الأفغانية أي تأثير يذكر على كيفية استخدام هذه المليارات المخصصة من قبل الأوروبيين. فمن الواضح أن الدول المانحة لم تكن تثق في الحكومة التي جلبتها إلى السلطة. وتبعا لذلك لم تملك الدولة التي أراد المرء بناءها أي موارد مالية تذكر.

إضافة إلى ذلك عادت كثير من الأموال المخصصة بطرق ملتفة عديدة إلى جيوب الأوروبيين أو الأمريكيين. «يتمثل الجانب السلبي المزعج لهذه المساعي من أجل خلق نظام جديد في أن القوى الدولية تدعم نفسها في المقام الأول وترفع ميزانياتها وتوفر الوظائف لمواطنيها. وفي آخر المطاف تماماً يُسمح للحكومة الأفغانية برفع يدها.» هكذا يكتب المؤرخ والسياسي الكندي مايكل إغناتيف Michael Ignatieff في عام ٢٠٠٢[١].

---

(١) Ignatieff ٢٠٠٣: ص ٩٠.

كذلك لم ينفق العاملون في منظمات الإغاثة الذين أرسلتهم ألمانيا رواتبهم الهائلة، التي ازدادت بسبب علاوات المخاطر، بطبيعة الحال في أفغانستان، وإنما في ألمانيا، حيث يدفعون عليها الضرائب. أو أن أموال المساعدات أصبحت تُنفق على إجراءات الحماية التي ازدادت تعقيداً مع مرور السنين، وأحياناً كانت تتسم بالبارانويا. لم تكن كل المشروعات عديمة الجدوى. لقد حسنت أعمال البنية التحتية على وجه الخصوص وضع السكان في بعض المناطق[1]. لكن فكرة إعادة بناء أفغانستان كدولة حديثة على النموذج الغربي لحد ما، ظلت مع ذلك مشروعا خياليا طوباويا.

في خريف عام ٢٠٠٣ كنت أنا نفسي في أفغانستان لبضعة أسابيع، عندما تم افتتاح مدرسة ألمانية ـ أفغانية ومعهد غوته الجديد في ظل إجراءات معقدة. كنت أستطيع آنذاك أن أسير في الشوارع بحرية دون خوف من الاختطافات أو الهجمات وأن أتجول فوق التلال الواقعة فوق المدينة. وبخلاف الكثير من موظفي الأمم المتحدة والعاملين في المشروعات التنموية، كنت أتحرك على مسؤوليتي الشخصية، ولم يتحتم علي الالتزام بالتعليمات الأمنية الرسمية.

ذات مساء كنت مدعوا إلى حفلة في إحدى الفيلات، حيث احتفل موظفون لدى الأمم المتحدة وعاملون في المشروعات التنموية من مختلف أنحاء العالم. ساد شعور وكأننا في نيويورك، فقط مع الفارق أن

---

(١) من أجل تقييم دقيق للعمل التنموي في أفغانستان، انظر:
https://www.ez-afghanistan.de/sites/default/files/Summary%20Paper%20Meta-Review%20of%20Evaluations%20Afghanistan%20March%202020_1.pdf.
وكذلك:
The folly of "aid for stabilisation"; https://doi.org/10.1080/01436597.2019.1576519
وكذلك:
https://peacelab.blog/2020/06/afghanistan-der-ansatz-viel-hilft-viel-ist-gescheitert.

حجم المغامرة هنا أكبر، لأنه قبل فترة وجيزة كانت عقوبة كل ما كنا نفعله، هي الموت. وعندما سرت في حدود الساعة الرابعة مترنحا عبر الشوارع الخالية، رأيت ضوءا، يبدو أنه خارج من باب بيت. سرت باتجاهه، لكنه لم يكن باب بيت، بل شيء أشبه بشباك في مستوى الصدر، حيث انشغل رجل في ضوء مصباح نيون بعجن عجين، فيما تنام امرأته وأولاده في الخلفية. كان مخبزاً مكوناً فقط من حجرة ذات فرن، تعيش فيها عائلة الخباز في الوقت ذاته. لم يكن ذلك مشهداً غير مألوف في هذه المدينة، لكنني لن أنسى أبداً هذا التباين الرهيب مع الحفلة المنحطة التي غادرتها للتو.

قبل أن أصل إلى نُزلي بقليل، ظهرت خلفي عربة جيب عسكرية. ومن العلم تبين أنها دورية بريطانية تابعة لقوات الأيساف. كان بالعربة سلاح آلي في صندوق النقل، ولفزعي لاحظت أن الجنود قد صوبوه تجاهي أثناء مرور العربة: إذا كان ثمة من يهددهم، فعلى الأغلب سأكون أنا هذا الشخص. ومن المحتمل أنه كان يكفي أن أتعثر أو أبحث عن مفاتيح الحجرة في جيبي، لكي يطلقوا عليّ الرصاص. جعلتني تمشيتي الليلية هدفاً لقوات الحماية التابعة للناتو، ولم يكن ذلك شعوراً طيباً، لقد كانت لحظة التهديد الحقيقية الوحيدة خلال أيامي في كابول. فماذا إذن عن شعور الأفغان؟ إذا كان رجال الشرطة الأمريكيون يطلقون النار لأتفه الأسباب على مواطنيين أمريكيين من أصول إفريقية، فمن الممكن دون شك أن يطلق جنود الناتو النار على الأفغان، دون أن يخشوا الوقوف أمام القضاء.

وهذا ما حدث في ٤ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٩. اختطفت حركة طالبان شاحنتا وقود بالقرب من المعسكر الميداني الألماني في قندز، وظلت الشاحنتان عالقتين في المياه أثناء محاولة عبور نهر قندز. وبينما حاولت حركة طالبان دون جدوى، جعل الشاحنتين تتحركان، جذب الوقود

السكان المحليين ومن بينهم أطفال وشباب، أرادوا أن يحصلوا على شيء منه[١].

أملا في إصابة طالبان، ومن أجل منعها من جعل الشاحنتين تتحركان من جديد (وفقاً لبعض التقارير كان ثمة خشية من أن طالبان كان من المفترض أن تنفذ هجوما بهما)، طلب الألمان دعما جويا من الأمريكيين. وأمروا بتدمير شاحنتي الوقود. وفي ظل إعطاء معلومات خاطئة عن عمد، تم تجاهل آليات التدقيق التي تضمن عدم قصف المدنيين. لقد قُتل في هذا الهجوم ٩١ شخصا، وأصيب ١١ بإصابات خطيرة. «في المقابل لم يكن ممكناً تحديد من ينتمي من الموتى لطالبان ومن منهم مدني. وهذا يعود لحقيقة مفادها أن التفرقة بينهما مجرد خيال[٢]. هكذا يكتب الصحفيان مارسيل ميتلزيفن Marcel Mettelsiefen وكريستوف رويتر Christoph Reuter اللذان استقصيا عن الواقعة في عين المكان. ودفع الجيش الألماني بعدها ٥٠٠٠ يورو لكل عائلات الضحايا، بالطبع دون رغبة في اعتبار ذلك اعترافاً بالذنب[٣].

وبغض النظر عن الوضع القانوني وكيف يبدو، كان الهجوم قاتلا وغير ضروري. وفي مقابل الادعاءات الأولى، لم يكن الجنود الألمان معرضين للخطر في أي لحظة من اللحظات. وعوضاً عن دراسة

---

(١) حول ذلك بإسهاب: Mettelsiefen/Reuter ٢٠١٠
https://web.archive.org/web/20100610060719/http://www.kunstraumpotsdam.de/kunduz/index.php.

قارن أيضاً المقال المستفيض على ويكيبديا:
https://de.wikipedia.org/wiki/Luftangriff_bei_Kundus.

(٢) المصدر ذاته، ص ٤ وما تلاها.

(3) https://www.stern.de/politik/ausland/tanklaster-angriff-in-afghanistan-entschaedigung-fuer-die-kundus-opfer-steht-3114382.html.

الموقف، أعطى الضابط المسؤول، العميد كلاين، دون أي وخزة ضمير الأمر بالهجوم المميت. وحتى لو كان من بين الضحايا أيضاً رجال من طالبان أو المتعاطفين معهم، فقد كانت العملية مخزية، إن لم نقل جبانة. للأسف علينا أن ننطلق من أنه خلال الأعوام العشرين تقريباً التي مرت على مهمة دول حلف الناتو في أفغانستان، كان ثمة حوادث كثيرة مشابهة، لم يُعرف منها إلاّ القليل[١].

عندما أعادت الإدارة الأمريكية بعد الانتخابات الرئاسية ٢٠٠٨ النظر في سياسة عدم الاهتمام المتزن بأفغانستان، ودعم أوباما المشاركة بشكل أكبر، كان ذلك بعد فوات الأوان. فقد قامت حركة طالبان بإعادة تنظيم وتحديث نفسها وقدمت خدمات لسكان الريف المهملين وسمحت لهم بزراعة الأفيون، الذي تربحت منه. في المقابل لم يتمكن المجتمع الدولي المحمل بعبء مشروع بناء دولة أفغانية حديثة، في كثير من الأحيان حتى من توفير بذور كافية لنشاط زراعي معقول، حسبما يذكر الصحفي الباكستاني أحمد رشيد[٢].

خاضت طالبان حرب عصابات كلاسيكية واعتمدت في أثناء ذلك على دعم جزء من المدنيين، وخصوصاً في الريف. يمكن لقوة احتلال أن تطيل أمد مثل هذه الحرب، لكن يصعب عليها كسبها. كلما طالت أكثر، أصبحت أكثر كلفة وزادت من رغبة المحتل في الانسحاب. كل هذا ليس جديداً ومذكور في نظرية الحرب منذ زمن بعيد: «ما يبدو

---

(1) https://de.qantara.de/inhalt/kriegsverbrechen-in-afghanistan-tod-durch-drohnenangriff.

وكذلك:

https://www.theatlantic.com/international/archive/2015/05/america-first-drone-strike-afghanistan/394463/.

(٢) Rashid ٢٠٠٣.

وكأنه انتصار للميليشيات، لم يكن في كثير من الأحيان سوى إنهاء وضع، تبين أن الإبقاء عليه بالنسبة للقوة الاستعمارية غير ذي جدوى»[1]. وبهذا المعنى فإن الانسحاب الأمريكي المرتقب من أفغانستان في عام ٢٠٢٠ ليس سوى تبصر لعدم جدوى هذه الحرب. ورغم ذلك فإن في هذا الانسحاب مؤشر لهزيمة.

لأن حرب العصابات تكون «ناجحة بالأخص، حيثما يكون سكان المناطق الذي تنشط فيها الميليشيات، لا يرتبطون بحساب التكلفة والمنفعة، ويدعمون رجال الميليشيات بغض النظر عن الأعباء الثقيلة، التي قد تكون تبعة لهذا التأييد»[2]. لقد تبين أن الافتراض بأن الرؤية الغربية للمجتمع التي نُقلت بمساعدة الناتو ومنظمات المجتمع المدني إلى أفغانستان، هي أكثر جاذبية من الرؤية الراسخة التي ادعت طالبان الدفاع عنها، كان افتراضاً كارثياً، كان خطأ ناجماً عن غرور.

والهزيمة الناجمة عن ذلك تطال نموذج التطور الغربي، والخطاب الغربي عن الحرية، والوعد بالعدالة الغربية في مجملها. لم يلق هذا النموذج قبولاً لدى الكثير من الأفغان وبدت مصداقيته قليلة جداً، بحيث لم تكن كافية لتحفيزهم للوقوف في وجه طالبان، عند الضرورة، والمخاطرة بحياتهم. بدا قليل المصداقية للغاية، بحيث لم يثن الناس عن رد فعلهم التلقائي القديم ضد احتلال أجنبي، مثلما هي طبيعة معظم الناس، نظراً لأن «الحرية» تعني دائماً في البداية التحرر من الحكم الأجنبي.

زادت مدة بقاء الأمريكيين في أفغانستان عشر سنوات على المدة التي

---

(١) Münkler ٢٠٠٢: ص ٢٥٥.

(٢) المصدر ذاته.

قضاها السوفييت، وقد خاضوا في عام ٢٠٢٠ مفاوضات سلام[١] مع طالبان. في غضون ذلك تركوا البلد، الذي أرادوا أن يعمروه ويدافعون عنه في مواجهة طالبان وأرادوا دمقرطته على نحو ما، وهو أعزل تقريباً. وإذا كان ثمة حاجة لدليل بأن الأفغان كانوا على حق في عدم رمي أنفسهم ببساطة ودون نظرة نقدية في أحضان المحتل، فهو ذاك السلام الذي أبرم في الأثناء مع طالبان[٢].

ولكن إذا كانت أفغانستان هي حقاً «مقبرة الإمبراطوريات»، فإننا لا نستطيع النظر لاعتراف الأمريكيين بعدم استطاعتهم هزيمة طالبان على أنه مجرد هامش سفلي في سفر التاريخ. إنه بالأحرى أكثر دليل مرئي على فشل الطموحات الإمبريالية الأمريكية. إنه فشل السياسة الأمريكية المحافظة الجديدة والنيوليبرالية، التي أعلن مفكروها قبل عشرين عاماً عن «القرن الأمريكي الجديد»، وعن «نظام عالمي جديد» و«حلف أمريكي pax americana»، الذين كانوا متهورين للغاية، لدرجة أنهم اعتقدوا أن ١١ سبتمبر/أيلول سيقدم لهم الفرصة الذهبية لتحقيق كل ذلك، دون أن يواجهوا أي مقاومة تذكر[٣].

---

(1) https://www.nytimes.com/2020/02/29/world/asia/us-taliban-deal.html?action=click&module=RelatedLinks&pgtype=Article.

(2) https://www.nytimes.com/2020/03/08/world/asia/taliban-afghanistan-annexes-peace-agreement.html.

كذلك:

https://www.nytimes.com/2020/02/29/world/asia/trump-taliban.html?action=click&module=RelatedLinks&pgtype=Article.

كذلك:

https://www.nytimes.com/2020/02/29/world/asia/us-taliban-afghanistan.html?action=click&module=RelatedLinks&pgtype=Article.

(٣) قارن: Ferguson ٢٠٠٥.

ترجع أسباب الأزمة الداخلية التي تشهدها الولايات المتحددة في عام ٢٠٢٠، أي عام توقيع الاتفاق مع طالبان، إلى وباء كورونا والتعامل العنصري مع غير البيض («People of colour») وانقسام البلاد خلال رئاسة ترامب. مع ذلك فإن الارتباطات مع ١١ سبتمبر/أيلول واضحة للعيان: فمع تركيز السياسة الخارجية على محاربة الإرهاب ومع الخوف من الإسلام الذي تغذيه كذلك أنماط جاهزة عنصرية، تم صرف الانتباه على مدار عشرين عاماً عن التفككات الداخلية ذات الجذور العميقة الراسخة في البلاد ـ وهذا الوقت كان كافياً لحفر قبر في مقبرة الإمبراطوريات، كان كبيراً بحجم الطموحات السياسية العالمية آنذاك.

مقبرة الإمبراطوريات، ثانياً: العراق

أول أصدقائي العرب جاءوا من العراق: أدباء وشعراء، فروا إلى أوروبا هربا من دكتاتورية صدام حسين ومن الاستدعاء للحرب على إيران. من لم يقم في باريس أو لندن، عاصمتي المنفى العربي، ذهب إلى غرب ألمانيا، وكثيرون جاءوا إلى كولونيا. تجاوزت شبكة المنفيين حدود وسط أوروبا، لتمتد من مانيلا وسيدني إلى نيويورك وسان فرانسيسكو، حيث تعرفت عام ١٩٩٢ أثناء إقامة دراسية في جامعة بيركلي إلى سركون بولس (١٩٤٤ ـ ٢٠٠٧). أصله عراقي من المسيحيين الأشوريين، عمل في الستينات في بيروت مع أدونيس وأصبح بعد هجرته إلى الولايات المتحدة أهم شاعر «بيت Beat» عربي. لم يصنف أحد منهم نفسه على أساس انتمائه الديني أو العرقي. كان يعتبرون أنفسهم شعراء متمردين أو أناركيين أو شيوعيين.

لقد عرفوا جميعهم أنهم لن يعودوا إلى العراق، طالما أن صدام لا يزال يحكم. وقد عاشوا كفنانين ومثقفين في المنفى في ظروف غير مستقرة، وكان الوضع في العراق يضعهم تحت ضغط نفسي هائل. إذ لم تعاني البلاد من صدام وأجهزته الأمنية فحسب، بل عانت كذلك منذ التسعينات من العقوبات الدولية القاسية ومن القصف الأمريكي ـ البريطاني المتكرر. كان الأمل في أن ينهار النظام من الداخل ضئيلا، ومن استطاع، فر من البلاد. لقد بدا المنفى العراقي بلا نهاية.

كل هذا تغير منذ ١١ سبتمبر/أيلول وما تلا ذلك من إعلانات الأمريكيين بأنهم لا يرغبون في تحمل صدام أكثر من ذلك. معظم أصدقائي العراقيين كانوا يساريين. كانوا يقدرون الثقافة الأمريكية، ولكنهم لا يحترمون الإمبريالية الأمريكية والعقوبات على العراق، التي عانت عائلاتهم منها. والآن وضعوا آمالهم على الموقف الأمريكي الحاسم. لقد كانت الفرصة الوحيدة للتخلص من صدام ورؤية العراق مرة أخرى. وربما كان سيكون من الممكن فعلياً إقامة دولة قانون فاعلة في العراق، بل ومن المحتمل إقامة ما يشبه دولة ديمقراطية.

وتبعا لهذه الأفكار امتزجت لدى أصدقائي مشاعر تشكك تجاه النوايا الأمريكية الحقيقية والخوف من المستقبل والأمل والخطط والتوقع المثير. ورداً على السؤال، ما إذا كان ينبغي على الأمريكيين إزاحة صدام، كانوا جميعهم يجيبون بـ «نعم»، بغض النظر عن موقفهم بخلاف ذلك من السياسة الخارجية الأمريكية.

قبل بداية حرب العراق بفترة وجيزة تناقشت مع يوتا ليمباخ Jutta Limbach، القاضية السابقة في المحكمة الدستورية الاتحادية، وكانت وقتها رئيسة معهد غوته، حول خطط الحرب الأمريكية. عارضت ليمباخ هذه الخطط، فيما قدمت أنا حججاً خجولة: أليس من الممكن أن تمهد الحرب لتطور إيجابي؟ وألن يكون جيداً إقصاء جلاد مثل صدام من السلطة؟ «أيها الجلاد عد إلى قريتك الصغيرة/ لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة» تلك هي أبيات القصيدة المعبرة القصيرة لسركون بولص من التسعينيات[١]. استخدمت يوتا ليمباخ كل سلطتها لكي تعارضني قائلة بأنه لا ينبغي على المرء أن ينقاد في هذا الأمر لما يهوى من تصورات،

(١) سركون بولص. الوصول إلى مدينة أين. منشورات الجمل. كولونيا ٢٠٠٣. ص١٣٢.

بل عليه أن يصغي للعراقيين! وهذا ما حاولته. لكنني لم أعرف من تكون تلك المصادر العراقية التي استندت إليها يوتا ليمباخ.

وللأسف لن يتبين من تاريخ السنوات العشرين التالية أنني كنت وأصدقائي العراقيون على حق، وإنما كانت يوتا ليمباخ ومصادرها على صواب. أظهر النقاش القصير المأزق الذي واجهه مؤيدو ومعارضو الحرب بالقدر ذاته: مثّل الغزو الأمريكي للعراق، استناداً إلى الحجة المختلقة القائلة بأن صدام يمتلك أسلحة دمار شامل، خرقاً واضحاً للقانون الدولي. واستناداً لهذه الحجة أيضاً كان بإمكان الأمريكيين في أي وقت غزو إيران، أو بإمكان الإيرانيين غزو إسرائيل أو الصينيين تايوان أو المكسيكيين الولايات المتحدة الأمريكية.

مع ذلك لم تكن أمنيات وآمال أصدقائي العراقيين غير مبررة. من منظور أسمى وفي الوقت نفسه بمنطق القانون الطبيعي، بعيداً عن القانون الدولي الملموس، يمتلك كل من أرادوا التخلص من صدام حججاً أفضل. كل من استهدفهم صدام استهدافاً مباشراً كانوا يتقاسمون هذه الحجة المستندة للقانون الطبيعي، في مواجهة هؤلاء الذين شددوا على قواعد القانون الدولي، وأغلبهم لم يستهدفهم صدام شخصيا. وكان من الصعب الإقرار على نحو سليم بأي الرؤيتين كانت أحق من الأخرى. ولم يبرز المعيار الذي كان يمكن على أساسه تقييم السياسة الأمريكية على نحو سليم إلاّ لاحقاً وهو: هل سيلبي إسقاط صدام احتياجات العراقيين؟

وبخلاف أمنية العراقيين التي لم تكن بالتأكيد بالنسبة للأمريكيين هي الحاسمة في هذا القرار، عُرضت أيضاً أسباب أخرى، كي لا يتم التقيد بالقانون الدولي[1]. وأهمها كان كذبة دعائية متعمدة: كما ذكرنا ادعت

---

(١) أجد قائمة كاملة لدى Ferguson ٢٠٠٥: ص ١٥٦. كذلك يقدم فوكوياما Fukuyama ٢٠٠٦ هذا السبب.

الولايات المتحدة الأمريكية أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل. ولم يُعثر على أدلة على ذلك، وهو ما كانت الإدارة الأمريكية تدركه بالفعل. لقد كُذب على الرأي العام العالمي من أجل تقديم الحرب باعتبارها الحرب ضرورية وتقع ضمن المصلحة الأمنية الأمريكية. لكن إذا كان صناع القرار أنفسهم لا يصدقون السبب المقدم لأنهم هم الذين اختلقوه، يبقى السؤال إذن، ماذا كانوا يريدون حقا؟

في الخلفية كانت على الأرجح الفكرة النيوليبرالية، الداعية لنشر الديمقراطية الليبرالية الأمريكية ذات الصبغة الغربية في جميع أنحاء الكرة الأرضية، اعتقاداً في أن ذلك سيجعل العالم أكثر أمانا[١]. وكان كلينتون قد مهد بالفعل لتغيير النظام في العراق[٢]. أدى «انتصار» النزعة الكونية على الطراز الغربي في الحرب الباردة وفقاً لنظرية «نهاية التاريخ» (قارن ص٧٢) إلى توقع أن كل المجتمعات ستسترشد إن آجلاً أو عاجلاً بالنموذج «الغربي». وقد جلب هذا التوقع معه التكليف بتطبيق هذا النموذج، حيثما كان تطبيقه معطلا حتى الآن. يكتب الباحث السياسي كين جويت Ken Jowitt: «في البداية تبنت إدارة بوش، حتى ولو لم تصرح بذلك، نظرية «نهاية التاريخ»، وأن «بقية» العالم ستتحول بطريقة طبيعية نوعاً ما لتكون شبيهة بالغرب عموماً وبالولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص. هذا الأمر تغير بعد الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، الذي توصلت إدارة بوش في أعقابه إلى نتيجة مفادها أن خارطة الطريق التاريخية لفوكوياما تترك التطور يأخذ مجراه بنفسه بدرجة كبيرة للغاية. والتاريخ يحتاج عوضاً عن ذلك، لقيادة وتوجيه»[٣].

---

(١) عن ذلك بإسهاب من وجهة نظر المدافعين عن هذه الفكرة: Ferguson ٢٠١٥.

(٢) Woodward ٢٠٠٤: الفصل رقم ١.

(٣) هنا اقتباس من Fukuyama ٢٠٠٦: ص ٦٤. الاقتباس الأصلي موجود في هذا=

وكانت نتيجة هذا القرار ما سُمي بمذهب بوش، أي التفويض الذاتي، بحق خوض حروب «وقائية» («preemptive»): وبحسب بوش «استناداً للعقل البشري السليم وللدفاع عن النفس» ستقوم الولايات المتحدة الأمريكية «بالتحرك لمواجهة التهديدات الطارئة قبل أن تتشكل على نحو كامل»[1]. بعبارة أخرى قدم الحادي عشر من سبتمبر/أيلول فرصة سانحة للبدء في دمقرطة أي في «غربنة» العالم الإسلامي دون سواه وفقاً لمفهوم فوكوياما.

مهمة كهذه، كانت مضنية وقليلة الربح في أفغانستان المتخلفة والمدمرة جراء سنين طوال من الحرب الأهلية. أما في العراق فبدت الأمور مختلفة. صحيح أن حكم صدام حسين الذي كان أميناً عاماً لحزب البعث ورئيساً للدولة والحكومة منذ عام ١٩٧٩، قد دفع بالبلاد إلى الخراب. لكن قبل ذلك وخلال سبعينيات القرن الماضي كان العراق قد ترقى ليصبح واحداً من أحدث وأغنى الدول العربية. وكان به عدد كبير من المتخصصين ذوي التعليم الجيد، ولديه على عكس الأفغان طبقة وسطى مدينية حديثة. كان أصدقائي العراقيون يتباهون دائماً بالمثل المعروف أن الكتب تُكتب في مصر وتُطبع في لبنان وتُشترى وتُقرأ في العراق. وعلاوة على ذلك فقد كان العراق منذ القدم هو موطن كبار الشعراء العرب. وبالطبع لم تعرف السياسة الأمريكية شيئاً عن ذلك، رغم أن العديد من هؤلاء الشعراء يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية.

بفضل تحويل قصص «ألف ليلة وليلة» إلى أفلام متنوعة، كان العراق على المستوى الرمزي والخيالي أكثر من مجرد دولة عربية تسير أمورها

=الموقع:

https://www.hoover.org/research/rage-hubris-and-regime-change.

(١) اقتباس من Ferguson ٢٠٠٥: ص ١٥٢.

لحد ما وغنية بالنفط. كما أن عاصمته بغداد، التي تأسست عام ٧٦٢ م وحيكت حولها الأساطير والحكايات، تحظى في العالم الإسلامي بأهمية مشابهة لأهمية باريس أو لندن أو نيويورك «للغرب». كانت بغداد أهم وأبهى مدينة عربية في القرون الوسطى، وظلت لخمسمئة عام مقر الخلافة (قارن ص٢٠٩). إنها تمثل بهاء وبؤس، وصعود وأفول الإمبراطورية الإسلامية. وبهذا المعنى فإن بغداد تمثل العالم العربي والإسلامي ككل. بالإضافة إلى ما يمثله العراق وأرض الرافدين، أي بابل[١]: كمسرح لأحداث الكتاب المقدس ومنفى للشعب اليهودي، وواحدة من أولى مناطق استقرار البشر. تأسست فيه ممالك ودول، حيث اختُرعت الكتابة والدين والبيروقراطية، مهد الإنسانية المشهود وأخيراً قلب الإمبراطورية الفارسية القديمة، التي كانت الخصم الإمبريالي القوي للإغريق، الذين قاموا تحت قيادة أثينا المدينة الدولة «الديمقراطية» بطرد الفرس من منطقة بحر إيجه في معارك بطولية عديدة. لكن كل من يتحدثون عن «الغرب» و«الحرية» يستشهدون ليومنا هذا بالإغريق.

«لقد نتج» هكذا ورد في عرض جديد لتاريخ العالم «نموذج تفسير ثنائي القطبية. لم يرتبط الأمر باستقلالية شعب صغير (أثينا)، ولكن بعالمين وطريقتي حياة وأسلوبي تفكير مختلفين. كان الإغريق في المقام الأول هم الأحرار، شعب الأحرار. [...] وفي إطار التفكير في الطرح النقيض كانت إمبراطورية الفرس في مقابلهم هي عالم الطغيان [...] وكان بإمكان المرء أيضاً أن يربط كل شيء مع صور العالم الجغرافية التي كانت بصدد التشكل لتوها، ويضع الطروحات النقيضة وفقاً لذلك: أوروبا ضد آسيا، الغرب ضد الشرق. [...] لكن بقيت ثمة وسيلة للتفسير

---

(١) Mirzoeff ٢٠٠٥: ص ٤ والصفحات التالية.

البسيط ـ أو بدقة أكثر المبسط ـ للعالم بالاستعانة كذلك بنظام إحداثيات واضح وبسيط»[1].

ولكون هذه الأمور كلها تعود إلى زمن بعيد جداً، لا توجد من الناحية الموضوعية إلاّ أشياء قليلة تربطها بالحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، فذلك التاريخ يشكل ليومنا هذا غرفة الصدى للسياسة التي تعرف نفسها بأنها «غربية» ويضع نقاط المرجعية الفكرية لها. ولذلك يجري العمل على إحياء هذه السياسة في الثقافة الشعبية، في الرياضة من خلال سباقات الماراثون، التي تدين بالفضل لاسمها لانتصار الإغريق على الفرس عند ماراثون عام ٤٩٠ قبل الميلاد، وفي هوليود عبر الأفلام عن حروب الفرس.

من يظن بأن الأمريكيين قاموا بممارسة واقعية سياسة إمبريالية فحسب، أو أن ما يحركهم هو توقعات الربح المادية، فإنه يحتال بذلك على التفسيرات العقلانية. فالسياسة الأمريكية والحماسة غير النقدية لمشجعيها في أوروبا تأسسا على «أسطورة الغرب»، على توهم مبطن بعناصر تاريخية. كان من منظور الواقعية السياسية النسخة المخففة لسياسة تاريخ الخلاص، التي ستقابلنا فيما بعد مرة أخرى في صيغتها السوريالية غير المخففة فيما يسمى بـ «الدولة الإسلامية»، وهي أفظع نتاج للسياسة الأمريكية في العراق. (قارن ص٢٠٩).

ليس من الضروري أن يكون للمرء اتصال مباشر بالبيت الأبيض في عام ٢٠٠٢، ليدرك تقريباً ما دار في رؤوس صانعي القرار آنذاك. الأمر واضح ومكشوف. ويمكننا أيضاً تفهمه حتى يومنا هذا، وبقليل من النوايا الطيبة أو الشريرة يمكننا أن نفكر مثلهم تماماً: كان غزو بغداد مساويا في

---

(١) Gehrke ٢٠١٧: ص ٤٧٠.

المعنى لغزو العالم، وهو ما لا يفهم منه الغزو العسكري في المقام الأول، وإنما جعل المسلمين يعتنقون المذهب الكوني الغربي. كانت بغداد، وليست كابول أو مكة، هي التفاحة الذهبية لآخر مشروع تبشير غربي. لكن العطن نفسه كان كامنا في هذه التفاحة مثلما كان الحال مع أفغانستان.

بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول قال بعض المراقبين: إن الطريقة الوحيدة المماثلة رمزيا، للرد على الهجمات على برجي التجارة العالميين، ستتمثل في قصف مكة، مهد الإسلام والمحج الرئيسي للمسلمين بالسعودية. وقد كان واضحاً سبب عدم التفكير في هذا الأمر. فبغداد كانت هدفاً أفضل وأكثر رمزية، بالإضافة أيضاً إلى المكسب من حيث الواقعية السياسية. من منظور ذلك الوقت لم يكن إصلاح العالم العربي الإسلامي انطلاقاً من بغداد دون غيرها بالأمر المستغرب، كما يبدو لنا الآن عندما ننظر للماضي.

وبخلاف ذلك كان لدى العراق بسبب آباره النفطية الكثيرة التي لا تنضب، مؤشرات للتنمية أفضل بمراحل من كثير من الدول العربية الأخرى. وعلى عكس دول الخليج الغنية أيضاً بالنفط، فإن لدى العراق طبقة وسطى مدنية كبيرة من حيث العدد وعلمانية التوجه. ولم يعتمد مثل دول الخليج، على العمالة الوافدة من بلدان فقيرة، لتشغيل مؤسساته. وكان موقعه من الناحية الاستراتيجية مناسباً جداً. ولو أصبح العراق بمثابة ألمانيا الغربية في منطقة الخليج، فلن تتمكن أنظمة دول الجوار الإشكالية، وخصوصاً في سوريا والسعودية وإيران، فعلياً من الصمود أكثر. ولو تمكن المرء من الوصول للنفط العراقي، فلن يكون ثمة اعتماد على النفط السعودي ويمكن للمرء أن يصرح للسعوديين بحق بأنهم لا يحظون بأي تقدير لديه.

ولو اكتسبت إعادة إعمار وتحديث صناعة النفط وإعادة التسليح والتوجه الاستهلاكي المستقبلي للعراقيين صبغة أمريكية، فسيكون من الممكن حتى أن يكون الغزو المكلف مربحا في يوم ما. ولو لم تكن النظرة الاسترجاعية غير جميلة حقاً (اعترف أنا نفسي بذلك!)، فهل كان التدخل الأمريكي سينتهي نهاية طيبة؟ مهما كانت التصورات الأمريكية ذاتية المركز وكونية غربية، ومهما كانت إمبريالية، فقد كانت على الأقل وفقاً لرؤية، ليوتوبيا، هي أفضل بكثير جداً مما سيشهده العراقيون.

في الأساس لم يختلف الحال بالنسبة لرؤية المحافظين الجدد للعراق، عما كان عليه دائماً فيما يخص العلاقة بين الإمبراطوريات والمستعمرات: كان الواقع مختلفاً اختلافاً شديداً عن الطموحات الوردية والبيانات السامية! لقد تعلم البريطانيون ذلك وتخلوا عن كل التصرفات الاستعمارية. كذلك اضطر الشيوعيون، الذين لم يكونوا ـ كما هو معروف ـ أقل إمبريالية، لتعلم التواضع. مع ١١ سبتمبر/أيلول وغزو العراق كان الدور على الأمريكيين والكيان الأورو-أطلسي المسمى «الغرب» لإزالة الأوهام (بعد بضعة عقود سيكون الدور على الصينيين. مرحبا في النادي!).

وإذا كان ثمة شيء مشترك بين الرئيسين الأمريكيين المتنافرين الذين خلفا بوش، أي أوباما وترامب، فهو انتهاج سياسة، في ضوء إزالة الأوهام الإمبريالية وحلحلة التمدد الإمبريالي الزائد عن الحد *imperial overstretch*، والتمدد الزائد للقوة العسكرية والسياسية والنفسية للولايات المتحدة الأمريكية. كانت الغطرسة هي المسلك النمطي لأصحاب النفوذ في التراجيديا الإغريقية القديمة: المغالاة في تقدير الذات والتكبر والخيلاء وتخطي الحدود التي وضعتها الآلهة للطموح البشري. ونتيجة الغطرسة هي دائماً انهيار نظام ما، وفي أغلب الأحيان انهيار نظام

مستبد، قابل لأن يقع بالأخص في غواية خطيئة الغطرسة، لأنها تعطل آليات المراقبة والتصحيح.

لعام كامل روجت إدارة بوش لرؤيتها عن تغيير النظام بالقوة في العراق. كانت ماكينة الدعاية ضخمة، ولم تكد وسيلة إعلامية كبرى بين ضفتي الأطلسي تفلت من «التأطير Framing» الذي ربط بين الحرب على الإرهاب والحرب على العراق. بل وقامت وسائل إعلام جادة وراسخة في ليبراليتها مثل «*نيويورك تايمز*» بالمشاركة في ذلك لبعض الوقت.

تعد التحضيرات لحرب العراق درساً في كيفية السيطرة على الرأي العام العالمي (أي على «الغرب»)، ولكن أيضاً درساً يظهر أن القدرات الدعائية حتى للقوة الكبرى الوحيدة المتبقية هي في نهاية المطاف محدودة، وأن من المحتمل ألا يكون ثمة أساس للكوابيس التي تدور حول عالم مُهيمَن عليه تماماً أو قابل للهيمنة عليه: وحتى أفضل الدعايات ستفشل في لحظة ما في مواجهة الواقع. ويبقى السؤال: كم من البشر يجب أن يموتوا من أجل ذلك؟ على الأقل كان واضحا لمعظم الحكومات الحليفة أن حجج حرب العراق كانت كاذبة، وليس هذا فحسب، بل وعارضت بعضها، مثل الحكومة الألمانية والفرنسية، الدعاية الأمريكية علنا. لم يمنع ذلك نشوب الحرب ولكنه كان موقفاً واضحاً. المعارضة والرفض ممكنان، حتى في مواجهة الشركاء ذوي النفوذ الهائل.

في ٢٠ مارس/آذار ٢٠٠٣ بدأت الولايات المتحدة الأمريكية في قصف العراق؛ في ١ مايو/آيار أعلن الرئيس بوش أن الحرب انتهت بنجاح. لكن كما هي الحال في أفغانستان، سرعان ما تبدأ حقاً المشاكل بعد الحرب التي ظُفر بها بغاية السرعة والسهولة. فاز الأمريكيون في الحرب الكلاسيكية، جيش ضد جيش، بلد ضد بلد، حكومة ضد

حكومة. لكنهم خسروا في الحروب غير التماثلية من أجل تحقيق الأمن والاستقرار في مواجهة الإرهاب والنزعة الانفصالية. وهل كان لهم بأي حال أن يفوزوا فيها؟

لهذا السؤال أهمية مركزية، لأنه بناء على الإجابة عليه سيتبين إن كان تقدير هؤلاء الذين أيدوا الحرب، سواء كانوا أصدقائي العراقيين أو أنا أو حكومة بوش، كان خاطئاً من البداية؛ أو أن الخطأ الحاسم قد وقع بعد ذلك. وعلى هذه الإجابة سيتوقف أيضاً إن كان سيتم اللجوء مرة أخرى لهذه التدخلات والمحاولات العنيفة من أجل تحقيق الديمقراطية في المستقبل وما إذا كان سيتاح لديكتاتوري العالم من الآن فصاعداً أن ينعموا بالأمن. وهذه مسألة ليست تافهة بالنظر إلى عالم يزداد فيه الظلم والطغيان ويحتفل فيه المستبدون بنجاح تلو الآخر.

ولنطرح السؤال بالعكس: هل كان النموذج الألماني والياباني لبناء أمة ناجح تحت الإشراف الأمريكي استثناءً، ربما يعود الفضل في نجاحه فقط للهزيمة والدمار الشاملين لهذين البلدين، وكذلك أيضاً لأنه لم يعد للنازيين في أي مكان أصدقاء أو حلفاء، كان بإمكانهم التدخل كي يستمر الصراع؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد لدى السردية التاريخية الأمريكية الأورو-أطلسية، «الغربية» أي معنى يُقتدى به من أجل المستقبل. فهي لم تعد تصلح كمعيار وكوسيلة للاسترشاد؛ وما كانت لتصلح لذلك قط. يستند تصورنا عن تاريخ الأعوام الخمسة وسبعين الماضية على استثناء تاريخي، حالة خاصة (وهي إعادة البناء الناجحة)، فهجمات نيويورك لم تسقط برجيين إداريين فحسب، وإنما جعلت أيضاً الصورة الذاتية «الغربية» تتهاوى مثل بيت من ورق.

ترتبط الإجابة على السؤال كذلك بما إذا كانت فكرة الإمبراطوريات عموما لا تزال معقولة وذات تطلع مستقبلي وتقدمية، أي يمكن تصورها

بعيداً عن السيطرة المجردة من خلال القهر والعنف. وعلى ذلك يتوقف من ناحية أخرى ما إذا كان لا يزال من الممكن تصور نزعة كونية دون عنف، أي إمكانية أن يتقاسم جميع البشر في العالم تصورات قيمية، دون أن يكونوا مرغمين أو مكرهين على ذلك، أو أن يجري إقناعهم والتحكم فيهم بوسائل أخرى عديدة.

ولنسأل ولنقل بطريقة مغايرة: هل من الممكن إقناع الناس بخير معين، برؤية معينة للعالم وممارسة للحياة وممارسة ثقافية باعتبار أنها تجسيد للخير؟ هل من الممكن إقناعهم، ليس فقط بالطموح الأفلاطوني المحايد قيميا إلى الخير، مهما بدا مختلفاً دائماً من منظورات مختلفة؟ ويمكننا أن نسأل بطريقة أخرى، هل من الممكن أن نقوم بتنوير البشر؟ أم أن التنوير هو مرادف آخر للإقناع والتبشير والدعاية؟ هل يمكننا أن نتقاسم الرؤى والمعارف والكشوف ونروج لها ونقنع الآخرين بها ونحصل من خلال ذلك على أغلبية سياسية، وهو ما يعد في نهاية المطاف فكرة الديمقراطية، وتحديداً من دون أشكال العنف والقهر والإكراه، الحقيقية أو المجازية، ومن دون التحكم بشكل هائل في آراء الآخرين، أو في الرأي العام في مجمله؟

وبذلك نتورط بتأملاتنا في طريق مسدود آخر للأفكار التدخلية والكونية. من الصعب تصور أن تضمن أي قوة، أي إمبراطورية، أي شرطة عالمية تعمل بتكليف من الأمم المتحدة أو أي مؤسسة كانت، مجالاً محايداً بشكل كاف ولا يخضع لتأثيرات من الخارج، يكون فيه بإمكان شعب، أو أمة، أو جماعة من المواطنين تقرير مصيرهم باستقلال تام. كان يجب طرح هذه الأسئلة قبل أن يرسل المرء خبراء العراق للغزو. وكان من الممكن بسهولة التوصل لإدراك مفاده أن المشروع الأمريكي في العراق يناقض كل القوانين الأساسية للاحتمالات السياسية. وأن الفشل كان مآله منذ البداية.

إذا كان غزو العراق مهمة مستحيلة *mission impossible* بأي حال، فإن الأمريكيين قد أسهموا بكل قواهم في إفشالها. كانت المغامرة العراقية ستنتهي على نحو أكثر سلمية، لو نُفذت من قبل فاعلين مسؤولين أقل أيديولوجية وأقل اهتماماً بمكاسبهم الشخصية. كانت الأمور ستجري على نحو أقل كارثية، لو أُشركت دول الجوار، عوضاً عن تهديدها بالحديث عن «محور الشر». كانت المقاومة ستكون أقل، لو لم يعد قطاع من العراقيين ـ والمقصود هنا من تعاونوا مع صدام أو اضطروا للتعاون معه ـ خصوماً ومنبوذين. ولا يُعزى الفشل الذريع في العراق حتى في الأساس إلى الخطط والرؤى الخاطئة فحسب، وإنما أيضاً إلى الافتقار إلى الأخلاق والتميز الشخصي والعظمة الإنسانية، وإلى أعباء تفوق الطاقات على كل المستويات. إنه يُعزى إلى أن الأمريكيين لم يكونوا على مستوى المهمة. وهذا هو ما يجعلهم مختلفين اختلافاً جذرياً عن جيل أجدادهم الذين حرروا ألمانيا واحتلوها عام ١٩٤٥.

بعد أن استولت القوات الأمريكية على بغداد في بداية أبريل/نيسان بفترة وجيزة ـ الصور التي تداولتها كل وسائل الإعلام عن سقوط تمثال صدام كانت بتاريخ ٩ أبريل/نيسان ـ عمت كذلك، إلى جانب الابتهاج العمومي بنهاية النظام، الفوضى التي أحكمت قبضتها على العراق منذ ذلك الوقت. من البداية اتبع الأمريكيون فكرة خوض حرب محدودة بأقصى قدر (مثلما كان الأمر في أفغانستان). أُرسل عدد قليل جداً من الجنود، لفرض النظام أو لتطبيق إجراءات شُرّطية. لكن كان ينقصهم التدريب اللازم وتنقصهم الشرعية. عندما نُهبت كنوز المتحف الوطني التي تعود لآلاف السنين في بغداد، وقف الأمريكيون يتفرجون ببساطة. وملأت الميليشيات الفاعلة محليا والمنظمات الدينية، التي تحتمي بالشبكة الاجتماعية القائمة، فراغ السلطة الذي خلفه الأمريكيون. ومعظم هذه المجموعات كانت ترى نفسها معارضة للاحتلال الأمريكي.

لم يرغب الأمريكيون في البقاء طويلاً ليحكموا العراق بأنفسهم، بل أرادوا أن يسلموا الإدارة للعراقيين بأقصى سرعة ممكنة. وجلبوا معهم بعضاً منهم من المنفى خصيصاً لذلك. وإلى غاية إتمام تسليم السلطة للعراقيين، أسس الأمريكيون إدارة عسكرية، أي أنهم قد حكموا العراق فعلياً لبعض الوقت. بعد النهاية الرسمية للحرب في مايو/أيار ٢٠٠٣، أصبح السفير الأمريكي بول بريمر هو الحاكم الجديد للعراق، وامتدت سلطاته لتشمل حق التدخل في ميزانية الدولة العراقية.

وفي عهد بريمر اتُخذ أيضاً القرار بنقل مليارات الدولارات من الأرصدة العراقية التي كانت مجمدة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية إلى العراق في صورة أموال سائلة، ووضعت الأموال تحت تصرف قادة الجيش الأمريكي والإداريين الأمريكيين، الذين كان ينبغي عليهم شراء رضا العراقيين بها. اختفت الأموال دون أثر، وفقاً للباحث الاستقصائي للصحفي جيمس رايزن James Risen. وقد كتب، قبل نقل السلطة إلى العراقيين في يونيو/حزيران ٢٠٠٤: «أصدرت الإدارة الانتقالية الأمر بنقل ما بين أربعة وخمسة مليارات دولار من نيويورك إلى العراق في رحلات «شارتر مكوكية»، من أجل أن يبرم بسرعة أكثر من ألف عقد مع العاملين الأمريكيين ومع العراقيين الموالين. كانت الإدارة الانتقالية، كما يكتب رايزن، «عالم حُلمي، خليط غريب من المنظرين الأيديولوجيين الجمهوريين ومقاتلين منفردين، عقدوا العزم على أن يصبحوا أغنياء». وكثير منهم أصبح غنياً[١].

وقد وقعت أيضاً في أثناء حكم السفير الأمريكي فضيحة، كشفت على نحو صادم عن تناقضات وعيوب نظام الاحتلال الأمريكي[٢]. في

---

(١) Risen ٢٠١٥: ص ٢٢.

(٢) مراجع: Hersh ٢٠٠٤، Feldman ٢٠٠٥، Eisenman ٢٠٠٧، Binder ٢٠١٣.

يوم ٢٨ أبريل/نيسان ٢٠٠٤ عرضت قناة تلفزيونية أمريكية للتعذيب النفسي والبدني والإذلال الجنسي الذي تعرض له سجناء عراقيون في سجن أبي غريب الذي كان يديره الجيش الأمريكي. ونشرت مجلة «نيويوركر» *New Yorker* بالإضافة إلى ذلك أبحاثا لصحفيين استقصائيين عن انتهاكات شائنة لحقوق الإنسان، كانت موثقة في تقرير سري للجيش. وكانت هذه الفضيحة لقمة سائغة للمتمردين ولمنتقدي النهج الأمريكي. لكن ذلك أظهر أيضاً لأصدقاء الأمريكيين في «الغرب» أنه من الواضح أنهم ليسوا مؤهلين للقيام بمهمتهم ولا لما يطمحون لتحقيقه.

كان حكم السفير الأمريكي قصيراً، لكنه كان على نحو حاسم مؤشراً للمصير الذي ستؤول له البلاد فيما بعد. ومن أجل ذلك اتخذ قراره باجتثاث جذري لأنصار حزب البعث من المؤسسات العراقية، على غرار ما حدث في ألمانيا من اجتثاث للنازية. ومُنع أصحاب أعلى أربع مناصب في التسلسل الهرمي لحزب البعث بقيادة صدام ـ وهو نفسه حزب البعث العربي الذي سيطرت عائلة الأسد على فصيله السوري ـ من مواصلة العمل في الدولة الجديدة. وأُقصي ما يقرب من ٣٠ ألف موظف من عملهم في المؤسسات العامة، ومعظمهم سنيون[١].

وبينما كانت عملية اجتثاث البعث لا تزال تجد ترحيباً لدى كثير من العراقيين، قوبل الخطأ الأمريكي الجسيم الثاني بحل الجيش العراقي الذي بلغ عدد أفراده نحو ٤٠٠ ألف، برفض واسع النطاق، وخصوصاً أن العديد من العائلات فقدت أساس معاشها. وقد انتقل بعض المسرحين لاحقاً إلى العمل السري وحارب القوات الأمريكية.

سعى الأمريكيون عندئذ لتأسيس جيش عراقي جديد، لكنهم وبعد عملية اجتثاث البعث، لم يستطيعوا العثور على أي ضباط لديهم خبرة.

---

(١) أنا أتبع هنا: Marr ٢٠١٧.

ورغم التجهيزات الجديدة عالية التكلفة بمواد أمريكية ـ كانت تلك صفقة رائعة لصناعة السلاح الأمريكية ـ لم يتمكن الجيش العراقي من امتلاك القوة الضاربة. وقد تبين ذلك أمام عيون الرأي العام العالمي المندهشة في يونيو/حزيران ٢٠١٤، عندما قام بضع مئات من جهادي ما يسمى بـ «الدولة الإسلامية» بالاستيلاء على مدينة الموصل بشمال العراق وهرب الجنود العراقيون وتركوا عتادهم للمهاجمين (قارن ص٢١٢). على المستوى الاقتصادي أمكن على الأقل طرح عملة عراقية جديدة وتقليل التضخم؛ لكن نظراً لأنه تم حل أعداد كبيرة من مؤسسات الدولة، لم توجد لحد كبير وظائف كافية. وبهذا كانت المحصلة الاقتصادية للاحتلال سلبية أيضاً بالنسبة لكثير من العراقيين.

لكن الوضع الأمني كان يمثل المشكلة الأكبر. ففي أغسطس/آب عام ٢٠٠٣ وقعت عدة تفجيرات ضخمة في بغداد، دُمر خلالها أيضاً المقر الرئيسي للأمم المتحدة في ١٩ أغسطس/آب. وكان من بين الضحايا مفوض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان سيرجيو فييرا دي ميلو. وكان قد حقق شهرة من خلال عمله في يوغسلافيا وتيمور الشرقية. وبعدها بعشرة أيام وقع انفجار ضخم ثان بعد صلاة الجمعة في مسجد الإمام علي بالنجف وهو مزار شيعي مهم. وقُتل في الانفجار واحد من أهم الشخصيات الدينية لدى الشيعة هو آية الله محمد باقر الحكيم.

كلا الانفجارين كانا من صنع الزعيم الجديد لتنظيم القاعدة في العراق، الأردني أبي مصعب الزرقاوي، الذي سرعان ما عُرف بوحشيته. كانت القاعدة في العراق هي التنظيم السابق على «الدولة الإسلامية». والزرقاوي هو كذلك مثل ابن لادن نتاج للديكتاتوريات العربية. لقد اكتمل تطرفه في ظل التعذيب في السجون الأردنية، من بينها ثمانية أشهر ونصف الشهر في الحبس الانفرادي[١].

---

(١) Gerges ٢٠١٦: ص ٥٥.

في عام ٢٠٠٥ كانت بغداد تشهد بالفعل تطهيراً عرقياً، أثاره عنف الميليشيات والإرهابيين. وقد أدى ذلك لعدد كبير من عمليات الاغتيال والهجمات، وكثيراً ما استهدفت أسواقاً شعبية تضج بالحياة[١]. ومنذ ذلك الحين فُصلت أحياء شيعية وسنية عن بعضها البعض بجدران عديدة تخترق قلب المدينة. وبدا أن خطة المتطرفين بزعامة الزرقاوي، لإثارة حرب أهلية بين الشيعة والسنة، قد نجحت. أضعف موت الزرقاوي في عام ٢٠٠٦ الجماعة لفترة وجيزة فقط، رغم أنه حتى ابن لادن قد سعى لإقناع هؤلاء الذين يتخذونه مرجعاً لهم في العراق، بالعدول عن جعل مهاجمة الشيعة، إخوانهم في العقيدة، هدفهم الأول، عوضاً عن محاربة الأمريكيين[٢].

وبخلاف إرهاب التفجيرات والإجرام الخارج عن السيطرة (كانت عمليات الاختطاف من أجل الابتزاز تثير الخشية على نحو خاص)، كانت تحدث على نحو متكرر تمردات لجماعات مقاومة سنية وشيعية، سيطرت جزئيا على مناطق أو أحياء أو مدن بأكملها. وقد اشتهرت بالأخص مدينة الفلوجة، التي سيطر عليها السنة وأصبحت ملاذا للجهاديين، و«استعادها» الأمريكيون عدة مرات.

فقد نحو ٥٠٠٠ جندي أمريكي حياتهم في العراق. لكن الثمن الأكبر دفعه مع ذلك السكان المدنيون العراقيون. لا توجد أرقام يمكن الوثوق بها. يقدر أنه ما بين ١٠٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف عراقي قد لقوا حتفهم خلال العشرين عاماً الأخيرة في أعقاب الغزو الأمريكي وما تسبب فيه من أوضاع مشابهة للحرب الأهلية. وهُجرت أعداد أكبر بكثير أو سافروا

---

(١) Marr ٢٠١٧: فصل الحرب الأهلية الطائفية: «Sectarian Civil War».

(٢) عن علاقة ابن لادن بالزرقاوي انظر Gerges ص ٧٢ وما تلاها من صفحات. حول نقد ابن لادن للقاعدة في العراق، المصدر ذاته، ص ٧٨ وما تلاها.

إلى الخارج. غادر الكثير من العراقيين المتعلمين جيداً والأثرياء والكثير من المنتمين للأقليات ـ وخصوصاً المسيحيين ـ البلاد متجهين إلى أوروبا أو أمريكا الشمالية أو إلى دول الخليج. وحاول آخرون أن يؤسسوا لحياة جديدة في سوريا أو الأردن.

كان كل شيء جاهزاً للمواجهة الكبرى، عندما خرج الناس فجأة في شمال أفريقيا والشرق الأدنى والأوسط إلى الشوارع مرددين شعاراً جديداً غير مسبوق: «الشعب يريد إسقاط النظام!».

تجربة أولى في طهران

مثلما بدأ عام ١٩٧٩ الذي مثل انطلاقة عصر بعودة الخميني إلى طهران، بدأت قصة ما يسمى بـ«الربيع العربي» في البداية ليس في العالم العربي، وإنما في إيران. في عام ٢٠٠٩ أتمت الجمهورية الإيرانية عامها الثلاثين. وفي الانتخابات الرئاسية التي أُجريت في يونيو/حزيران أُعلن فوز عمدة طهران السابق أحمدي نجاد، وهو يميني شعبوي ومرشح المؤسسة الدينية المحافظ على منافسه حسين موسوي، مرشح الإصلاحيين. وبعد الانتخابات مباشرة ظهرت شكوك في شرعية فوزه. وفي أعقاب ذلك نشأت أكبر حركة احتجاج في تاريخ إيران ما بعد الثورة، وعُرفت باسم «الموجة الخضراء»، أو «الحركة الخضراء» ـ خضراء لأن مؤيداتها ومؤيديها كانوا يرتدون شالات وأغطية رأس خضراء ويلوحون بأعلام خضراء.

من جانب يعد الأخضر هو لون الإسلام، ما يشير إلى أن معظم المتظاهرين لا يشككون في الجمهورية الإسلامية، وإنما في نتائج الانتخابات. لكن الأخضر هو أيضاً لون الربيع والأمل والانتفاض. كانت «الحركة الخضراء» هي أول حركة احتجاج في المنطقة، تستخدم وسائل التواصل الجديدة بذكاء شديد. صورت لقطات فيديو للاحتجاجات بكاميرات الهواتف النقالة وردود الفعل الوحشية لقوى الأمن، ونُشرت في وسائل التواصل الاجتماعي أو عبر وكالات الأنباء، كما حدث لاحقاً

أيضاً في الثورات العربية وحركات الاحتجاج الأخرى في كل أنحاء العالم.

وعلى النقيض من الكليشيهات عن المسلمين الرجعيين المنصاعين للسلطة، رفع المحتجون مطالب بتقاسم قيم، كانت تعتبر حتى ذاك الوقت «غربية»، وبدا أنها مقصورة على الغرب وحده: دولة القانون، وكرامة الإنسان والمساواة في الفرص والمشاركة؛ انتخابات عادلة وحرة، وإمكانية التصريح بالنقد والاعتراض.

وبينما كانت الأحداث في أوجها، تجرأ حميد دباشي أستاذ الدراسات الإيرانية الشهير المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية بطرح نظريته بأن الانتفاضة في طهران هي «غراوند زيرو لحركة حقوق مواطنة، لن تترك بلداً إسلامياً ولا عربياً ولا حتى إسرائيل، دون أن تترك أثراً بها»[1]. يعكس هذا الرأي المتفائل دون أمل لمثقف إيراني نقدي متعطش للتغيير في المنفى الأجواء الحماسية المؤثرة التي سادت لدى الإيرانيين في الداخل والخارج.

لكن الإشارة إلى غراوند زيرو وبالتالي إلى ١١ سبتمبر/أيلول ملتبسة: هل يمكن أن يعني غراوند زيرو شيئاً طيبا؟ من الواضح أن دباشي لا يقصد به فقط «الأرض المحروقة، ولكن أيضاً «الساعة صفر»، الفرصة، وحتمية بداية جديدة مثل ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية: «فجر بداية جديدة مضيئة يعلن عن نفسه لنا ـ ليس فقط في إيران، وإنما في المنطقة كلها. غيرت حركة حقوق المواطنة في إيران الخريطة الأخلاقية في هذه المنطقة من العالم، ومفرداتها المعيارية، ورؤاها، ورأيها في نفسها وآمالها»[2]. كانت حركة الاحتجاجات الإيرانية هي بحسب دباشي البداية

---

(١) Dabashi ٢٠١١: ص ٤٣.

(٢) المصدر ذاته: ص ٨٦.

الحقيقية الصحيحة للقرن الحادي والعشرين، والحدث الأول الذي ليس به آثار باقية من الزمن السابق عليه.

على الأقل: اتضح أيضاً للمراقبين المتشككين في عام ٢٠٠٩ أنه لا يمكن وضع الإيرانيين ونظامهم في سلة واحدة. بل ولفترة قصيرة نشأ الانطباع بأن الاستراتيجية الأمريكية الخاصة عن تساقط قطع الدومينو انطلاقاً من العراق قد نجحت. لكن الأمريكيين مثلهم مثل الحركة الديمقراطية الإيرانية قد غفلوا عن وجود المرشد الأعلى للثورة على خامنئي، الحاكم الفعلي للبلاد، وخليفة آية الله روح الله الخميني المتوفى عام ١٩٨٩. وقد أعلن بعد الانتخابات بأسبوع في خطبة جمعة تأييده لأحمدي نجاد وأنهى بذلك كل نقاش حول نتيجة الانتخابات. فمن يستمر الآن في التظاهر، فإنه يتظاهر ضد السلطة العليا التي لها الكلمة الأخيرة في إيران. من منظور النظام كانت الاحتجاجات من الآن فصاعداً ضد الجمهورية الإسلامية برمتها.

وُضع قناصة لمواجهة المتظاهرين وطارد بلطجية وحراس للثورة وميليشيات أخرى في ملابس مدنية المتظاهرين وهم على ظهور الدارجات البخارية. قُتل العشرات، واعتُقل كثيرون آخرون وعُذبوا. لم تكن لدى المعارضين، الذين لم يضعوا رد الفعل هذا في حسبانهم، أي فرصة لمواصلة احتجاجهم. لم يكن غراوند زيرو القرن الحادي والعشرين ساعة صفر وإنما كان مرة أخرى مجرد أرض محروقة. لم يتمكن القرن الجديد من التخلص من رائحة حريق القرن الماضي.

لذلك لا تعكس «الحركة الخضراء» جوانبها الإيجابية فقط كنموذج اقتدت به الثورات العربية. فقد استشرفت أيضاً فشلها. للأسف نسى المتظاهرون في العالم العربي بعد نحو عام ونصف الدرس المستفاد من إيران. في المقابل استفادت الحكومات من إجراءات نظام الملالي

الناجح. إذا ما حافظت الأنظمة على تماسكها، كان باستطاعتها ـ من خلال جرعات وحشية معدة بعناية تستهدف معنويات وحماس وقوة صمود المحتجين ـ فض الاحتجاجات أو الدفع بالنشطاء إلى المقاومة، وإرغامهم على التصعيد، وإفقادهم المصداقية باعتبار أنهم يمارسون العنف، وهو ما أتاح بدوره اتخاذ إجراءات أشد قسوة بحقهم. وبالأخص تبنى نظام الأسد المتحالف مع إيران هذه الاستراتيجية.

رغم أن المسألة في إيران عام ٢٠٠٩ كانت أبسط في طبيعتها من الاحتجاجات التي اندلعت بعد عامين في العالم العربي. في إيران كانت الشكوك في تزوير الانتخابات واقعة سياسية ملموسة. وكانت فرص الإيرانيين ظاهريا جيدة لأن مرشحهم لم يكن معارضاً للنظام، ولكنه ينتمي مثل المرشحين الآخرين لمؤسسة الجمهورية الإسلامية. كان موسوي مختلفاً عن منافسه أحمدي نجاد، كان رجل دين، مثل الرئيس الإصلاحي خاتمي السابق على أحمدي نجاد، والرئيس روحاني الذي شغل المنصب حتى صيف ٢٠٢١[١].

يجري فحص كل المرشحين لمنصب الرئاسة في إيران (وكذلك المرشحين لمقاعد البرلمان) من خلال لجنة موالية للنظام قبل أن يُجاز ترشحهم. لذلك فإن الانتخابات الرئاسية الإيرانية ليست بانتخابات حرة على الإطلاق. لكن لا بد من الحذر من اعتبار الانتخابات في إيران عموما مهزلة سياسية. لأنه بالطبع يُطرح السؤال في كل مكان عن مساحة الحرية التي يمكن أن تتوفر أساساً وعموماً في الديمقراطيات الراسخة في انتخابات المناصب العليا. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ليست ثمة فرصة حقيقية لمرشح من خارج الحزبين الكبيرين. وإذا ما صدقنا

---

(١) كي لا نقول أن موسوي (كناشط ومؤيد سابق للإسلاميين) «قد قمع طموح الإيرانيين إلى الحرية بيديه» كما يكتب حميد دباشي Dabashi ٢٠١١: ٣٨.

المراقبين النقديين، فسنجد أن الديمقراطية البريطانية نفسها لا تستحق فعلا اسمها[1]. لا شك أن الديمقراطيات العريقة تقلص المساحة المتاحة لهؤلاء الذين يمكنهم تولي مناصب رفيعة وذلك بطرق عديدة، أو أنها تقصي طبقة معينة من الناخبين، عندما لا يعود بإمكان أصحاب السوابق في بعض الولايات الأمريكية مثلاً الانتخاب[2]. لكن المشكلة في إيران ليست متعلقة بتقييد مجال الترشح، ولكن في «الانقلاب الانتخابي»[3] للمحافظين والقوى الدينية الدوغمائية في النظام الإيراني، الذي نُفذ عبر تزوير الانتخابات (المحتمل).

لم يكن القضاء على الجمهورية الإسلامية أو تغييرها على نحو راديكالي هو هدف المحتجين في إيران. لقد أرادوا فقط رئيساً يدعم قدراً أكبر من الانفتاح المجتمعي والتسامح ويعد داخلياً وخارجياً بالحوار

---

(1) https://www.theguardian.com/commentisfree/2020/jun/03/britain-democracy-tories-coronavirus-public-power.

(٢) أمثلة أخرى لدى: Levitsky/Ziblatt ٢٠١٨.

(٣) وفقاً لتعبير جعفري Peyman Jafari ص ١٨٤. لكن الإشكالي هو أنه قد عُثر على أدلة على وجود خروقات، لكن لم توجد أدلة على تقديم السلطات بيانات زائفة تماماً لنتائج الانتخابات. ولكن إذا كانت النتيجة قد جاءت تحديدا لصالح أحمدي نجاد، فلا بد أن الاحتجاجات ستبدو حتما للنظام على أنها تمرد. لا يمكن تحييد السؤال عن النتيجة الحقيقية للانتخابات كما فعل حميد دباشي («it is no longer relevant whether or not the election was rigged»، ص٢٤) بالإشارة إلى أن تزييف الانتخابات هي محض «حقيقة اجتماعية» (المصدر ذاته)، تنتج واقعها. كان الوضع سيصير معقدا أكثر لو وصل الأمر لجولة ثانية، في حال عدم حصول أي من المرشحين على الأغلبية المطلقة. إضافة إلى ذلك ترشح إلى جانب موسوي مرشح مشهور من المعسكر الإصلاحي، هو مهدي كروبي، وهو ما أسهم في خسارة موسوي لأصوات من معسكره. أنا أرجح أن جولة ثانية من الانتخابات بفرص جيدة للإصلاحيين كانت ستشكل مخاطرة للنظام ولذلك تم التلاعب بالنتائج.

والاستعداد للإصلاح. احتج الناس من أجل مستقبل أفضل في إطار النظام القائم، من أجل مشاركة اجتماعية أكبر وإمكانيات أكبر للأفراد لتدبير أمور حياتهم، وقد استندوا في احتجاجاتهم إلى قوانين بلادهم وليس إلى حقوق الإنسان المجردة. لم يطالبوا بدولة علمانية، ولكن طالبوا بالحقوق الممنوحة لهم فعلياً من الناحية القانونية الشكلية، مثلاً حق الاعتراف بأصواتهم في الانتخابات.

يمكن أن نعبر عن ذلك على نحو مبالغ فيه قليلاً بالقول إن المتظاهرين بقبولهم للنظام السائد من ناحية ورغبتهم في التغيير وتحسين الأوضاع من ناحية أخرى، قد رفضوا بذلك منطقاً منتشراً على نطاق واسع، وهو تقسيم المجال السياسي إلى صديق وعدو، وكأنهما فريقان خصمان، لا توجد بينهما أي معابر، ولا وجود لعنصر ثالث. يصيغ الباحث السياسي نويد نيكزادفار Navid Nikzadfar هذا التضاد التقليدي على النحو التالي: «الولايات المتحدة الإمبريالية ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الغرب الاستعماري ضد إيران الثورية [...] التقليدي ضد الحديث والعلماني ضد الديني، الغربي ضد التقليدي، الطبقة الوسطى المثقفة في الأحياء الأفضل في مواجهة الفقراء «منعدمي الثقافي» في الأحياء السيئة، سكان طهران في مقابل الريف، وهكذا»[1].

وبالضبط لهذه الأسباب يجوز لنا أن نخمن أن «الحركة الخضراء قد قُمعت من النظام الإيراني. فالدول والحكومات التي تعتمد في سياستها على التفرقة بين العدو والصديق وعلى الاستقطاب بإما أو، ترى نفسها مهددة، تحديداً عند التشكيك في هذه الثنائية وتجاوزها، مثلما فعل المحتجون في طهران. بقمع النظام «للحركة الخضراء» أُعيد بعنف إنتاج التفرقة الراديكالية بيننا «نحن» (النظام) و«الآخرين» (المحتجين).

---

(١) نويد نيكزادفارز Navid Nikzadfars (اسم مستعار) «مقدمة» لدى: Dabashi ٢٠١١.

منطق العدو والصديق

هذه التفرقة نفسها بين العدو والصديق التي أسس بها النظام الإيراني شرعية وجوده المصابة بالفصام، تحظى أيضاً بتقدير العديد من الأحزاب والحكومات (الديمقراطية أيضاً) في أماكن أخرى، وهي أيضاً طابع مميز لها. وإذا ما ذابت هذه التفرقة، تفقد هويتها السياسية، وأجندتها ومبرر سياستها. من أمثلة هذه السياسة جملة جورج بوش التي اقتبست كثيراً «من ليس معنا فهو ضدنا»، واختزال السؤال عن علاقة البريطانيين بالاتحاد الأوروبي بإجابة بسيطة بنعم أو لا للبريكسيت ـ دون مراعاة أن الأمر لا يتعلق بإما أو، ولكن بضرورة التفاوض على نوع العلاقة مع أوروبا حتى بعد البريكسيت، وسياسة ترامب لتقسيم المجتمع الأمريكي، ومحاولة إظهار أنه لا يمكن الجمع بين الإسلام ودولة الدستور الليبرالية، إلخ....

جعل كارل شميت Carl Schmitt عالم السياسية الألماني اليميني المحافظ، الذي خدم النازية لفترة وكان عنوان مقاله عام ١٩٣٤ (الفوهرر يحمي القانون)[١]، من هذه التفرقة بين العدو والصديق أساساً لنظرية سياسية ذات تأثير بالغ[٢]. وقدرتها على تفسير الأحداث المذكورة هنا

---

(١) نُشر في صحيفة القانونيين الألمان: *Deutsche Juristen-Zeitung* بتاريخ ١٩٣٤/٨/١. حول شميت وعلاقته بالنازيين انظر كذلك: Bendersky ١٩٨٣.

(٢) Schmitt ١٩٦٣.

عالية، خصوصاً لأنها تُستقبل من فاعلين عديدين وتحدد تصرفاتهم. ينطبق ذلك في الأغلب على اليمينيين والمحافظين وجزئيا أيضاً على اليساريين الجدد المعادين لليبرالية ـ يحاجج شميت في مؤلفه «مفهوم السياسي» بحسم ضد الليبرالية.

مثلما يتم التفريق بين الخير والشر في مجال الأخلاق وبين الجميل والقبيح في المجال الجمالي، يفرق شميت في مجال السياسة بين الصديق والعدو. وإذا ما زالت التفرقة بين الصديق والعدو، يزول الصراع السياسي بالمثل. وتظهر هذه التفرقة بوضوح على المستوى الدولي بين الدول المتصادقة والدول المتعادية (لقد طور شميت أطروحاته ما بين الحربين العالميتين). وتمس أيضاً العلاقة بين الجماعات المختلفة داخل دولة ما، ويمكن أن تؤدي في الحالة القصوى لحرب أهلية. تُعرِّف نظرية شميت ما هو سياسي إذن كمجال للتضاد الذي لا يزول، الذي يظل فاعلا باستمرار، حتى لو تم التخلي عن العنف.

يؤكد شميت أنه ليس بالضرورة أن تصل الأمور للعنف، وينبغي أيضاً ألا تصل للعنف. لكن العنف هو نقطة الهروب في كل صراع سياسي. ويستخلص من ذلك اعتبار العنف وسيلة مشروعة ومبررة للسياسة، تماماً مثلما يرد لدى كلاوزيفيتز Clausewitz مؤرخ الحروب، الذي يقتبس منه شميت كثيراً، بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى، بأنها «مجرد أداة للسياسة»[1]. يصبح العنف جزءاً من السياسة وينتمي لها في الأصل، وإنه لمن طبيعة الأمور أن تنتقل السياسة إلى العنف.

تدعو نظرية شميت المستخلصة من خبرات سنوات جمهورية فايمار

---

(١) Schmitt ١٩٦٣: ص ٣٤، هامش رقم ١٠، Stumpf ١٩٩٣: ص ٣٥٧.

المضطربة في عشرينيات القرن الماضي إلى إساءة الفهم والاستغلال وزوال الروادع. إذا ما أصبح العنف جزءاً طبيعياً من السياسة، وأصبحت إمكانية استخدام العنف ضد العدو السياسي هي الشرط السياسي لما هو سياسي عموما، فسيظهر أيضاً بوصفه وسيلة مشروعة. ومن يقف في وجه هذا الرأي، يعد مباشرة ساذجاً، ومثالياً ومسالماً، وغير سياسي أو ليبرالي (للغاية) ـ وفقاً لرأي شميت نفسه.

وكما نرى في تلقي أفكار شميت من قبل مؤسسي مدرسة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أماكن أخرى، فإن نظريته لم تنتقل إلى الشفرة الجينية للقائمين على الحكم في طهران وحدهم، بل وكذلك إلى المسؤولين عن السياسة النيوإمبريالية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر/أيلول بكل عواقبها الوخيمة[١]. ووفقاً للمؤرخ الأمريكي الشهير نيال فيرغسون Niall Ferguson تصرفت إدارة جورج بوش وفقاً لمبادئ «كلاوزيفيتز»[٢]؛ وبعبارة أخرى فقد مارست سياسة وفقاً لوصفات من القرن التاسع العشر، أثرت بدورها على فكر شميت. وفي الصين القوة العالمية الجديدة الصاعدة، ثمة تلقي مكثف لشميت للأسباب نفسها، وبالمناسبة منذ الثلاثينيات[٣].

تساعد نظرية شميت في فهم الأحداث الموصوفة هنا. لكن ليس لكونها عرضاً موضوعياً للأوضاع السياسية ولكن لأنها صبغت الفهم السياسي للفاعلين. وبهذه الطريقة تزيد النظرية من احتمالية استحضار الفوضى القادمة. وفي هذا الصدد لا مجال للشك في أنه يمكن للمرء

---

(١) Mouffe ١٩٩٩.

(٢) Ferguson ٢٠٠٥: ص ١٥٠ وما تلاها.

(3) Mitchell 2020, https://elibrary.law.psu.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1246&context=jlia.

إقرار التفرقة بين الصديق والعدو ويمكنه بذلك أن يبرر الإقصاء والمقاطعة، إن لم يكن شيطنة الآخرين، الغرباء[1].

رغم هذا فلا مجال للشك تماماً في أنه لا يجب على المرء إقرار هذه التفرقة بأي حال، وأن يعارضها ويتمكن بذلك من تأسيس سياسة أخرى ـ وربما ينبغي عليه ذلك؛ لأن هذه التفرقة التي لا تعرف سوى التضاد بين الصديق والعدو، قد قادت بوضوح إلى الكارثة. لكن بغض النظر عن ذلك فهي سياسة لا تهتم بالفروق: فمعظم الناس أو الجماعات ليسوا بهذا ولا بذاك، ليسوا أصدقاء أو أعداء.

وعلى نحو مشابه تصلح إمكانية العنف كنقطة هروب تفرقة الصديق ـ العدو الحاسمة لكل شيء لدى شميت. لأن ما يُعرّف بوصفه عنفاً، يعد مثيراً للجدل وغامضاً. من ناحية أخرى يمكن للمرء أن يخوض الحرب ويمارس العنف السياسي، دون أن يخاطر هو نفسه بشيء، مثلاً باستخدام الطائرات المسيرة. وذلك يُسقط حاجز الردع في استخدام العنف. ويصبح إعلان الخصوم كعدو مطلق أسهل، ومعاملتهم على هذا الأساس دون خوض أي مخاطر تذكر. ومن ناحية أخرى فإن مفهوم العنف من جانبه قد أصبح متداولا ولا يقتصر اليوم بأي حال على مجرد العنف الجسدي، وإنما كذلك العنف اللفظي والخطابي والاقتصادي والنفسي. العنف فاعل في كل مكان، أيضاً هناك، حيثما لا تكون له آثار جسدية مباشرة ـ ولهذا تحديداً يصعب بازدياد رصده كظاهرة خاصة واضحة التعريف؛ تماماً مثل السياسة.

مع القمع العنيف للاحتجاجات في طهران، ظهرت النقطة العمياء في نظرية تأثير الدومينو الأمريكية، فقد انطلقت من أن الدمقرطة والانفتاح

---

(١) يشير شميت بنفسه إلى هذا الخطر.

السياسي، بمجرد أن يكونا أمنية راسخة في عقول الناس، فسيتحققا، دون أي مقاومة من الأنظمة المعنية. وقد تبين أن تصور إمكانية نقل خبرات الدمقرطة والتحرر في شرق أوروبا منذ عام ١٩٨٩ إلى العالم الإسلامي، هو إيحاء ذاتي. وقد أصبح حتى مشكوكا فيه بالنسبة لشرق أوروبا. لكنه كان إيحاءً ذاتيا لا يقتصر على منظري «الغرب» الأيديولوجيين، بل وشمل أيضاً الطبقات الوسطى والعليا المثقفة ذات التوجه «الغربي» في العالم الإسلامي وأماكن أخرى.

وبالمناسبة، فإن نظرية تأثير الدومينو ليست اختراع القرن الحادي والعشرين، بل تعود إلى فترة الحرب الباردة. لقد أطلق الرئيس الأمريكي أيزنهاور هذا الوصف عام ١٩٥٤ على انجراف دول عدم الانحياز تجاه مجال النفوذ السوفيتي، وهو ما كانت تخشاه الولايات المتحدة الأمريكية: إذا ما سقطت قطعة دومينو، فستتلوها قطع أخرى، وتحديداً ستسقط كلها في اتجاه الشيوعية[١]. وكان هذا مبرراً للولايات المتحدة الأمريكية للتدخل في كل أنحاء العالم، أينما ظهرت بوادر لحركات اشتراكية، على سبيل المثال في فيتنام وأمريكا اللاتينية.

تعلم معارضو مساعي الدمقرطة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر/أيلول من ذلك وتصرفوا تماماً مثل الولايات المتحدة في السابق: التدخل وخنق الحركات الديمقراطية، قبل أن يُرمى بالحجر الأول. ومن قبيل السخرية أن هؤلاء المعارضين قد انبثقوا من دول الشرق الأوسط نفسها التي أدت تدخلات المخابرات الأمريكية «سي أي إيه» فيها لإسقاط حكومات ديمقراطية فعلياً، وزُعم أنها شيوعية: في إيران كما ذكرنا عام ١٩٥٣، وفي سوريا حينما دعمت «السي أي إيه» في عام ١٩٤٩ انقلاب قاده قائد

---

(١) Binder ٢٠١٣: ص ٢٥٢.

الجيش ضد الرئيس شكري القوتلي (١٨٩١ ـ ١٩٦٧)، أول رئيس منتخب للبلاد التي استقلت عام ١٩٤٣[١].

كان الانقلاب في سوريا هو أول عملية تغيير حكومي ناجحة تقوم بها «سي أي إيه»[٢] وقد اعتقدت مجلة «تايم» الأمريكية آنذاك أنها تعرف أن الانقلاب لا يهم السوريين: «معظم السوريون يرتشفون القهوة في أسواقهم ويدخنون الشيشة المبقبقة. ولم ينتبهوا تقريباً للتغيير الحكومي»[٣]. وفي الحقيقة كانت تلك «بداية النهاية لسوريا ديمقراطية[٤]. وبداية لسلسلة من الانقلابات العسكرية، انتهت باستيلاء اللواء طيار حافظ الأسد على السلطة.

---

(١) Moubayed ٢٠١٨، الفصل رقم ١٣. Lüders ٢٠١٨، فصل بعنوان («لعبة الأمم») «Das Spiel der Nationen».

(٢) Moubayed ٢٠١٨: ص ٢٣٢. بعد أشهر قليلة من الانقلاب، في ١٤ أغسطس/آب نُحي الزعيم على يد قائد الانقلاب التالي وقُتل على يد فرقة إعدام Moubayed ٢٠١٨): ص ٢٤٢).

(٣) اقتباس من Moubayed: ص ٢٣٢.

(٤) Moubayed ٢٠١٨: ص ٢٣١.

تاريخ دون هدف، واحتجاجات فاشلة

بالطبع لم يأمل «الغرب» وحده، بل وأيضاً كثير من القوى في الشرق الأوسط والأدنى أن يسجل التاريخ آجلاً أو عاجلاً تطوراً ينتهي بالحرية والديمقراطية والمساواة والرخاء للجميع. وكان من بينها أيضاً القوى ذات الصبغة الماركسية والاشتراكية. يتقاسم المحافظون الجدد والاشتراكيون والليبراليون جميعهم تصوراً عن التاريخ، يستند إلى الفيلسوف الألماني هيغل و«جدليته». تثير هذه الجدلية خيالات ثورية تقدمية رومانسية مشتهاة، تتحطم بتكرار قبيح على صخرة الواقع في هيئة الحكم القمعي.

والحقيقة هي أن التاريخ لا اتجاه له، ومساره عشوائي، عارض، ولا يخضع لتوجيه أي عقل، ومع الأسف فإن هذا أمر لا شك فيه[1]. وحيثما نعتقد أننا نرى خطوطاً للتطور، يكون ذلك بسبب منظورنا وبسبب أننا نحاول أن ندرك في مسار الأمور معنى عميقاً وهدفاً. وفي أثناء ذلك يتحتم علينا أن نثبت أنفسنا في مواجهة آخرين لديهم تصورات ورؤى مختلفة بشأن مسار التاريخ، وكثيراً ما يكونون قادرين أيضاً على ذكر أسباب وجيهة لذلك. لذا فالتاريخ في حد ذاته لن يساعد هذا ولا ذاك، حتى لو اعتقد هيغل وماركس وشبنغلر وفوكوياما وكثيرون آخرون في هذا الأمر تحديداً وادعوه بجهد فكري وكتابي كبير.

---

(١) Landwehr ٢٠١٦.

صحيح أن «الحركة الخضراء» قد أكسبت الإيرانيين مزيداً من التقدير لدى الرأي العام العالمي (وخصوصاً الغربي)، وعبرت عن رغبة الطبقة الوسطى الإيرانية، التي قامت بهذه الاحتجاجات، في المشاركة في حداثة التنوير المعولمة. لكن هذه الأمنية لم تعقبها نتائج. ولم يكن ثمة مدد غيبي *deus ex machina*، لم يتدخل إله في اللحظة الأخيرة (ولا حتى «الغرب» فعل ذلك)، من أجل أن ينقذهم أو ينقذ السوريين من بعدهم.

لماذا ينبغي على الأمريكيين أو الأوروبيين حماية الإيرانيين من نظامهم، طالما اتضح أن محاولة مشابهة في العراق ـ حتى رغم تطبيقها بشكل رديء ـ لم تؤت أُكلها. وربما كان الأمر في نهاية المطاف أكثر حصافة بالنسبة للإيرانيين أن يستسلموا أو يرتبوا لتفاهمات أو يهاجروا، إن استطاعوا. ويسري ذلك بالأخص، إذا ما كان هدف الاحتجاجات بأي حال هو النموذج الغربي بقدر أو بآخر، بما في ذلك الفردية، التي يكون للمصير الفردي بموجبها أهمية أكبر من المصير الجمعي أو مصير الأمة. ومن منظور فردي لا يحتاج المرء إذن للاحتجاج. ولو حصل المرء على تأشيرة للدراسة أو تصريح عمل، ما كان الهدف المنشود ليبعد أكثر من خمس ساعات طيران من طهران. ولو لم يحصل المرء ـ مثل معظم الناس ـ على تأشيرة، سيكون الهدف بعيداً جداً: رحلة محفوفة بالمخاطر تدوم أسابيع، عبر طرق اللاجئين وعبر الجبال والبحار ومناطق الحرب الأهلية، والحدود شديدة الحراسة، ومصيرهم سيكون بيد المهربين والمجرمين. بالتأكيد إن في ذلك خطراً على الحياة، لكنه ليس أخطر من الصراع الميئوس منه ضد النظام في الوطن.

علينا أن ندرك الوضع دون أوهام. نظراً لفشل الحركة الاحتجاجية الإيرانية ومعظم الحركات الأخرى بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، نحتاج لتحليل قاس وغير عاطفي لأخطاء هذه الحركات.

كان الخطأ الأول هو أن معظم الاحتجاجات نشأت تلقائيا وكانت مفاجئة حتى للنشطاء أنفسهم. لذلك لم تكن لديها طريقة واضحة للتصرف ولا استراتيجية ولا تحديد للأهداف. كان رد فعل أجهزة الدولة هجوميا، قبل أن تُنظم إضرابات وحصارات فعالة. ويكمن الخطأ الثاني في افتراض أن الحكام لن يفسروا المطالبات البسيطة بالعدالة على إنها إهانة لهم. كان المحتجون يفترضون أن هذا الأمر لا يندرج تحت نمط الصديق ـ العدو، وأنه يمكن بهذه المطالب تجاوز حسم النظام، خصوصاً وأنه من الواضح أنها مطالب محقة.

كيف يمكن للمرء أن يتصرف إذن، إذا لم يرغب في قبول الوضع كما هو عليه؟ إذا لم يرغب في الوقوع في فخ منطق إما أو، وصديق أو عدو، أو «نحن والأخرين»؟ ينطوي ذلك دائماً على خطر مواجهة كبيرة وعنيفة. ويبدو لي أن البديل الوحيد هو تكتيك الخطوات الصغيرة غير الملحوظة تقريباً. ويتكون من رغبات وإشارات ورفض ومطالب محددة لا تبدو مهمة. وهذا خطير بقدر كاف، مثلما يتبين من مصير حماة البيئة الإيرانيين الذين حبسوا بلا رحمة[1]، ومصير النساء الإيرانيات، اللائي كن يصورن أنفسهن في أماكن عامة وهن يخلعن الحجاب، ويُقبض عليهن. أو كما يبين مثال الأطباء الصينيين الذين تجرأوا على الإعلان عن فيروس كورونا دون التشاور مع النظام، وتعرضوا إثر ذلك لإجراءات عقابية.

(١) مثلاً طاهر قديريان:
https://www.igfm.de/taher-ghadirian/.

الشتاء السابق على الربيع

انتهى مآل الرغبة في التغيير في العالم العربي عام ٢٠١١ في معظم الحالات نهاية مأساوية كما في إيران. توجهت الاحتجاجات أيضاً ضد حكام كانوا في السلطة منذ عقود. كان الوضع الاقتصادي صعبا وتدهور منذ التسعينيات. بالإضافة لذلك، فإن شرعية الأنظمة الحاكمة ومبرر وجودها، المستمدين في الماضي من حروب التحرير ومكافحة الاستعمار والإمبريالية أو إسرائيل، قد فقدا المصداقية لدرجة جعلت هذه الأنظمة نفسها تلجأ لوسائل قمعية، للحفاظ على سلطتها. لم تكن ثمة إمكانية للترقي والتطور إلاّ لنخبة محدودة، تبدأ في الطبقة الوسطى العليا. وقد وُضعت حواجز عالية أمام التطلعات السياسية وإمكانيات المشاركة في السلطة أو في الحياة الاجتماعية والتعليم والثقافة[١].

وإلى جانب الهجرة، وهو خيار حقيقي للموسرين والمتعلمين فقط، واللجوء، المخرج اليائس والأخير لكل الآخرين، بقيت حرية التعبير عن الرأي بصورة غير رسمية في أماكن وأوساط معينة، بين الفنانين والمثقفين والكتاب، كصمام تنفيس للناشطين سياسياً. وثمة شهادات جيدة على ذلك في الأدب العربي ما قبل الثورات، مثلاً في النصوص القصيرة المنتقدة للمجتمع وذات الطابع الوثائقي جزئيا في كتاب

(١) Schulze ٢٠١٦: ص ٥٣٠.

«تاكسي» للمصري خالد الخميسي[١]. أو في القصص الساخرة من مجموعة «تفاصيل» للكاتبة السورية ديمة ونوس[٢]. وككثير من النصوص الأخرى المشابهة، صدرت هذه الكتب قبل الثورة، ووثقت لأجواء هذا العصر المقبضة.

وللحادي عشر من سبتمبر/أيلول دور معتبر في عدم وقوع الاحتجاجات في العالم العربي في وقت أبكر، رغم أن التطور في تلك البلدان قد تجمد منذ التسعينيات. لقد أدت هجمات الحادي عشر من سبتمبر إلى تعزيز التعاون الأمني مع أنظمة انتهت صلاحيتها في الحقيقة، واستطاعت من خلال ذلك إطالة أمدها. ومثال على ذلك ما سُمي بمبادرة الاتحاد من أجل المتوسط التي أطلقها الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، وكانت تعول على التعاون المؤسساتي بين الدول[٣]. كانت تهدف لتقوية أنظمة استبدادية وفاسدة ووغير شفافة، لم يصدق أحد جديا نوايا الإصلاح لديها. لكنها حققت الاحتياجات الأمنية الأوروبية، من خلال قيامها بمنع الناس من اللجوء إلى أوروبا أو نقلها لمعلومات عن مشتبه بضلوعهم في الإرهاب. في المقابل حصلت هذه الدول على دعم اقتصادي ومشروعية سياسية، وكان هذا يعني أيضاً أن أوروبا لم تعد تدقق كثيراً فيما يخص حقوق الإنسان. وفي حالات كثيرة، لا يزال هذا التعاون الأمني مستمراً.

اكتسبت الأنظمة مزيداً من القوة من خلال هذا التعاون، وتمكنت من اتخاذ إجراءات ضد الآراء غير المرغوبة وقطاعات معارضة من الشعب،

---

(١) خالد الخميسي. تاكسي. حواديت المشاوير. دار الشروق. القاهرة ٢٠٠٦.

(٢) ديمة ونوس. تفاصيل. دار المدى. دمشق. ٢٠٠٧.

(٣) Schneiders ٢٠١٣.

وخصوصاً الجماعات الإسلامية، من دون أن تخشى من الانتقادات الخارجية. كانت الحرب على الإرهاب متماشية بأي حال مع سياسة معظم الحكومات العربية. وكانت لديها مشاكل مع الإسلام السياسي تعود لفترة أطول من مشاكل الأوروبيين والأمريكيين معه، وكان يحلو لها أن تصم معارضيها بأنهم إرهابيين، كي تطبق بحقهم قوانين مشددة. وقد تم التوسع في هذه الإجراءات في السنوات السابقة على الربيع العربي. وتعطينا ملاحقة الصحفيين غير المحبوبين في تركيا حتى اليوم مثالا على ذلك. لقد أُضعفت القوى ذات التوجه العلماني واليساري والمدني (وأيضاً تلك القوى ذات الخلفية الإسلامية، وهذا مفهوم) في العالم الإسلامي.

وكانت نتيجة ذلك أن نشأ لحد ما انطباع لدى الشعوب في الدول العربية المعنية، بأنه يتوجب عليها إذا ما انتقدت حكوماتها أو كافحت ضدها، أن تكافح في الوقت ذاته ضد «الغرب» وضد العولمة والإمبريالية المدفوعتين من قبله. وأمام هذه الخلفية اكتسب شعار الإسلامويين «الإسلام هو الحل» قدرة جديدة على الإقناع.

كان الجمع بين مواجهة الأنظمة والقوى التي تدعمها في أوروبا وأمريكا وبين إسلام مسيس مهيئ للمقاومة، أسهل من الجمع بين هذه المواجهة وموقف اليسار العربي التقدمي ذي الجذور الأوروبية.

ففي حين كان «الغرب» يتملق القوى التقدمية على مستوى *السياسة الثقافية*، تعزز التعاون الأمني مع الأنظمة الرجعية، وحال دون نشوء هياكل سياسية ـ بعيداً عن نخبة سياسية قليلة الأهمية ـ يمكنها أن تتلقف الموقف ما بعد الثورة وتديره.

نظراً لأن كثيرين فهموا خط المواجهة بعد ١١ سبتمبر/أيلول ووفقاً للكلام عن «صدام الحضارات» بوصفه خط مواجهة ثقافيا وذا حمولة

ثقافية[1]، كان لاستراتيجيات حل النزاع في الإدراك العام الأوسع جانب ثقافي غير متكافئ. في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي الطابع، بادرت أوروبا بإعداد برامج للحوار، واعتبرت الثقافة أداة حيادية وغير مكلفة بالمقارنة، من أجل دعم انفتاح المجتمعات العربية وتحررها، وبالاستعانة بالحوار من أجل التمهيد لل«قضاء على التطرف».

لكن الهدف والإمكانيات وطرق التأثير الحقيقية للثقافة قد قُدِّرت في الأغلب بشكل خاطئ. صحيح أن الهجمات السياسة الثقافية لا تحدث أضراراً كبيرة، لكنها تؤدي لتوقعات مبالغ فيها وكانت في آخر المطاف قائمة على أفكار تبشير حضاري عن تحويل العربي والمسلم إلى شخص أفضل، أي قائمة نوعا ما على إيديولوجيا ليبرالية «غربية»[2].

كان لسياسة أوروبية أكثر حصافة في التعامل مع العالم العربي الإسلامي بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، أن تتخلى عن التعاون الأمني العنيف والإقصائي وأن تقوم عوضاً عن ذلك بتأسيس بُنى منفتحة ومتفاعلة، ليس فقط من أجل المال والبضائع، على غرار ما تسعى له السياسة النيوليبرالية منذ القدم، وإنما من أجل البشر. كان يجب تطبيق أفكار التعاون التنموي المعروفة والصحيحة مبدئيا، مثل الاستدامة ومكافحة الفساد ودعم المجتمع المدني والتجارة العادلة على نطاق أوسع بكثير. وحتى لو كانت كلفة ذلك باهظة جداً، كانت ستكون أسهل وأقل تكلفة بكثير من إدارة الهجرة الكبرى عام ٢٠١٥ وتبعاتها السياسية الداخلية، التي نتجت عن الثورات العربية التي خرجت عن مسارها.

وبالطبع فإن انتهاج سياسة أخرى في الشرق الأوسط بعد ١١ سبتمبر/أيلول، ما كانت أيضاً ستضمن تطوراً إيجابياً. وربما كان الوقت متأخراً

---

(١) Weidner ٢٠٠٨.

(٢) حول ذلك بإسهاب: Kundnani ٢٠١٥، Massad ٢٠١٥.

لانتهاج سياسة أخرى عام ٢٠٠١. كان ينبغي لهذه السياسة أن تتواكب مع التحول والدمقرطة في شرق أوروبا. لكن التطورات في شرق أوروبا حتى عام ٢٠٢١ تظهر أن استمرار الديمقراطية هناك أيضاً غير أكيد. وبالإضافة إلى ذلك جاء تأثير غزو العراق. عوضاً عن تطوير دولة ديمقراطية نموذجية، أوقع الأمريكيون البلاد في الفوضى. كتب روبرت ف. ورث Robert F. Worth الذي كان يعمل آنذاك صحفيا لدى *نيويورك تايمز*: «استغل الحكام الديكتاتوريون الأخبار المفزعة التي كانت ترد يوميا من عن الحرب الأهلية بين الطوائف الدينية في العراق كمثال تحذيري، لم يحتاجوا سوى أن يشيروا باتجاه العراق، ليخرس كل الحديث عن الديمقراطية»[١].

ألم تفقد أيضاً تلك الرؤية الليبرالية «الغربية» عن عالم يسير فيه التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي يداً بيد، مصداقيتها في الغرب نفسه؟ في عام ٢٠٠٨ تسببت ديون متعثرة في سوق العقارات الأمريكي في إفلاسات متسلسلة للبنوك، وانخفضت القدرة الائتمانية لبعض الدول في أوروبا مثل اليونان وإيطاليا انخفاضاً شديداً، بحيث كانت مهددة بالإفلاس، وجعلت استقرار اليورو في خطر. ومجدداً خرجت احتجاجات منتقدة للعولمة، هذه المرة تحت شعار «Occupy Wall Street» أي «احتلوا وول ستريت».

أصبح نموذج المجتمع الأورو-أمريكي ذو النمو غير المكبوح، الذي يدفعه لمزيد من السياسات الليبرالية والتراجع المستمر لدور الدولة، مهدداً بالفشل. وفقد الوعد بالرخاء في الدول الديمقراطية مصداقيته. خضعت اليونان التي تعرضت لأقسى أزمة، لنظام ديون الاتحاد الأوروبي، وهو ما أعاد ممارسات استعمارية إلى الأذهان: لم يعد

---

(١) Worth ٢٠١٦: ص ٧٠.

باستطاعة الحكومة اليونانية أن تقرر باستقلال بشأن ميزانيتها وسياستها. وفي مطلع عام ٢٠١١ دون غيره، حين بدا أن الديمقراطية الليبرالية على الطراز الغربي قد وصلت للحضيض، ضجت الصيحات المطالبة بهذه الديمقراطية من أفواه هؤلاء الذين تضاءلت الثقة فيهم بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول لأقصى حد: من أفواه العرب نساء ورجالاً.

الثورات العربية

هل كانت ثورات حقيقية؟ أم مجرد انتفاضات أم تمردات، أم أيام فوضى؟ لم يُحسم الأمر بعد. في عام ٢٠١٩ شهدت عدة بلدان عربية ـ السودان والجزائر ولبنان والعراق ـ مظاهرات سلمية امتدت لأسابيع للمطالبة باستقالة حكومات هذه البلدان. وفي إيران اشتعلت في العام نفسه أيضاً احتجاجات كبيرة على رفع أسعار البنزين، سرعان ما قُمعت بعنف؛ وفي يناير/كانون الثاني ٢٠٢٠ تواصلت بعدها الاحتجاجات بعد قصف طائرة ركاب مكتظة بالركاب بالخطأ لدى إقلاعها في طهران، تم التستر عليه باعتباره خطأ تقنياً.

كل هذه الاحتجاجات تأتي ضمن سلسلة الانتفاضات التي اندلعت عام ٢٠٠٩ في إيران وعام ٢٠١١ في العالم العربي، وتسببت في السنوات التالية في اهتزازات عالمية. في بدايتها كان حرق بائع الخضر محمد بوعزيزي لنفسه في مدينة سيدي بوزيد في ١٧ ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠١١. وتحولت الاحتجاجات التي تلت ذلك إلى انتفاضة عمت أنحاء البلاد، وأطلق عليها التونسيون «ثورة الياسمين». يؤكد الاسم على الطابع السلمي للاحتجاجات. وقد استند إلى ثورات أُطلقت عليها أسماء مشابهة مثل «ثورة القرنفل» في البرتغال عام ١٩٧٤ و«الثورة

البرتقالية» في أوكرانيا عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، و«الحركة الخضراء» في إيران عام ٢٠٠٩[١].

وعندما انتقلت الانتفاضة من تونس إلى دول أخرى، سرعان ما جرى الحديث عن «الربيع العربي». وكان ذلك ينطبق على الأجواء الثورية في تلك الأيام. على أي حال كان الحديث عن «الربيع العربي» لا يبشر بخير، فبه تلميح إلى حركة الديمقراطية التشيكوسلوفاكية «ربيع براغ» عام ١٩٦٨ التي قُمعت بعنف على يد قوات حلف وارسو، أشقائهم الاشتراكيين. ولم يكن مصير «الربيع» السياسي في العالم مختلفاً عن ذلك. لقد قُمع كذلك بدعم فعال من الخارج، خصوصاً بدفع من الدول العربية الغنية «الشقيقة» في الخليج العربي.

كثير من النزاعات والحروب الأهلية التي بدأت منذ ٢٠١١، ما زالت مستمرة أيضاً بعد مرور عشر سنوات، كما هو الحال في سوريا وليبيا واليمن. وفي مصر انتصرت في عام ٢٠١٣ الثورة المضادة بعد عامين مضطربين وقذفت برئيس إلى السلطة، كان في السابق رئيساً للمخابرات الحربية، وأيقظ لدى كثير من المصريين الحنين إلى حسني مبارك (١٩٢٨ ـ ٢٠٢٠) الذي أُطيح به عام ٢٠١١، إذ كان حكمه مكبِلا ولكنه أقل استبداداً. وحدها تونس الدولة الصغيرة غير المهمة للاقتصاد العالمي خاضت بعد عام ٢٠١١ الطريق المجهول الذي تواكب مع إصلاحات واقتصادية حقيقية. أما في تلك البلدان التي اندلعت فيها موجة احتجاجات جديدة ضخمة، فقد كبحت أزمة كورونا عام ٢٠٢٠ ديناميتها السياسية بعنف. لكن على الأقل تولت في هذه البلدان حكومات جديدة، وعُزل حكام ظلوا يحكمون لعقود مثل عمر البشير في السودان وعبد العزيز بوتفليقة في الجزائر.

---

(١) Schulze ٢٠١٦: ص ٥٢٩.

ورغم أن كثيرين لم يتوقعوا اندلاع الاحتجاجات في ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٠، عندما أحرق محمد بوعزيزي نفسه (لقد تُوفي في ٤ يناير/كانون الثاني ٢٠١١)، فقد كان متوقعاً منذ ١١ سبتمبر/أيلول على أقصى تقدير، أن العالم الإسلامي وصل لنقطة، لم يعد استمرار الأمور على منوالها بعدها ممكناً. لم يعد مجدياً تجميل الأمور أو اللجوء لمناورات الإلهاء. وكان لا بد من تفريغ شحنات النزاعات بصورة انفجارية. كان يكفي أن تكون ثمة مناسبة، شرارة وفتيلها. وقد عملت الوسائط الجديدة التي ظهرت في السنوات السابقة على الاحتجاجات كفتيل اشتعال: القنوات الفضائية والإنترنت والهواتف الذكية ـ وجهاز الأيفون الأول هو أيضاً جزء من هذا التاريخ وقد ظهر في عام ٢٠٠٧.

وفي مقدمة وسائل الإعلام كانت مجدداً قناة الجزيرة القطرية. لقد ميزت القناة نفسها من خلال تقاريرها المناهضة للأمريكيين بحسم في حرب العراق وعُدت صوتاً للجماهير العربية ـ كان العديد من مراسليها يقومون بالتغطية إلى جانب المتمردين السنة ويخاطرون بحياتهم. لكن يقال إنه في السنوات التي أعقبت الثورات العربية تمادت القناة في تغطيتها المنحازة باضطراد لصالح الإخوان المسلمين. وقد دفع هذا بقطر إلى عزلة إقليمية، أدت في عام ٢٠١٨ إلى قيام دول الخليج الأخرى بمقاطعتها اقتصادياً[١].

في ١٤ يناير/كانون الأول عندما تنحى الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، الذي كان يجسد الدولة البوليسية التونسية، بعد ٢٣ عاماً من الحكم ولجأ على نحو لافت إلى السعودية، حيث تُوفي عام ٢٠١٩، هلل التونسيون. وحدس المصريون أن فرصتهم قادمة. عندها دقت ساعة

(١) انتهت المقاطعة الاقتصادية لقطر في ٤ يناير/كانون الثاني ٢٠٢١ من خلال بيان العلا الذي أعلن عنه أمير الكويت (المترجم).

النشطاء الذين كان لبعضهم في السابق نشاط سياسي علني وبعضهم الآخر كان ينشط في السر. وتشكلت الشبكات الضرورية وجُربت استراتيجيات المقاومة. وانضم إليهم وسط من الشباب كان حتى ذاك الحين غير مسيس وعلى صلة بالتكنولوجيا. واستخدموا جميعهم وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة، آنذاك كان فيسبوك يُستخدم بالأخص لتعبئة المحتجين.

في عام ٢٠١١ تعضدت الآمال في كل مكان في أن ينتهي عصر ١١ سبتمبر/أيلول ويبدأ عصر أفضل (ويتم التخلص من كابوس ١١ سبتمبر/أيلول)، بأن عثرت فرقة عمليات خاصة أمريكية على ابن لادن في الثاني من مايو/أيار ٢٠١١ في مخبئه في مدينة أبوت آباد الباكستانية ذات الحامية العسكرية وقتلته. كان ثمة شعور وكأن التاريخ قد راجع نفسه في آخر لحظة وأراد أن يتخذ منعطفاً إيجابياً. لكن ما حدث هو العكس. فأسوأ الأحداث في زمن ما بعد ١١ سبتمبر/أيلول لم تكن قد وقعت بعد.

أصبح ميدان التحرير الواقع بالقرب من المتحف المصري، أحد أهم المعالم السياحية بالقاهرة، منذ ٢٥ يناير كانون الثاني ٢٠١١ مركزاً لتجمع المحتجين واكتسب شهرة عالمية كرمز للربيع العربي. وأطلقت الاحتجاجات العنان لموجة ضخمة من الإبداع والثراء الابتكاري. لقد نشأ فن شارع مثير وفن غرافيتي خلق تاريخاً بصرياً للثورة وتحولاتها. ومن أجل القضاء على النشاطات الثورية، دُمرت جداريات مبهرة بعد الانقلاب الثوري المضاد للمشير عبد الفتاح السيسي عام ٢٠١٣. واليوم لم يتبق سوى آثار منها في الأرشيفات الإلكترونية والأفلام الوثائقية أو الكتب المصورة الفخمة[١].

(١) Hamdy/Stone 2014; www.wallsoffreedom.com.

في البداية بدا كل شيء على مايرام. بعد ثلاثة أسابيع من الاحتجاجات في ميدان التحرير والقليل من الصدامات العنيفة بالمقارنة مع بلدان أخرى، نُحي حسني مبارك الذي تولى الرئاسة منذ ١٩٨١ في ١١ فيراير/شباط ٢٠١١ وهو بالتأكيد نوع من الانقلاب ولكن (كما حدث في السودان بعد ثمانية سنوات) فقد كان واضحا أنه كان مطلبا شعبيا.

من المفترض أن أكثر من مليون شخص قد شاركوا في التظاهرات. وشكل الجيش مجلساً عسكرياً انتقالياً بقيادة المشير محمد حسين طنطاوي. وللمرة الأولى في التاريخ المصري تم التمهيد لإجراء انتخابات برلمانية ورئاسية حرة.

لكن الفاعلين السياسيين لم يكونوا مستعدين للانتخابات بشكل كاف. فلم يكن ثمة وقت متبق لبناء خريطة أحزاب تعمل بفعالية واكتشاف الهوية السياسية وتنظيم قوى سياسية. لذلك سيطرت على المجال السياسي جماعة «الإخوان المسلمون» المنظمة جيداً والمدعومة من قطر، وأنصار النظام القديم، والناصريون ذوو الوجود السياسي الراسخ، والسلفيون المدعومون من السعودية. وفي الانتخابات البرلمانية الأولى حصل الإسلامويون والسلفيون على أكثر من ٦٠ في المئة من الأصوات ـ وذلك مع نسبة مشاركة مخيبة للآمال لم تتعد ٥٤ في المئة[١].

خيبة أمل مشابهة جاءت بها الانتخابات الرئاسية التالية عليها. ففي جولتها الثانية في منتصف يونيو/حزيران ٢٠١٢ شارك المرشحان اللذين حصدا أكثر الأصوات في الجولة الأولى. وكانا هما مرشح النظام أحمد شفيق (رئيس الوزراء الأخير في عهد مبارك)، ومحمد مرسي وهو مرشح قليل الكاريزما توافقت عليه جماعة «الإخوان المسلمون». ما بين إعادة

---

(١) Schulze ٢٠١٦: ص ٥٣٣.

النظام القديم إلى السلطة أو تسليم البلاد للإخوان المسلمين، اختارت أغلبية بفارق ضئيل جداً خوض التجربة: انتخب مرسي رئيساً للبلاد بنسبة ٥١ في المئة من الأصوات.

كان العام التالي هو العام الأكثر اضطرابا في تاريخ مصر. لم تشهد البلاد قط مثل هذا القدر من حرية الصحافة. كان بإمكان الكل قول وكتابة كل شيء، وقد حدث ذلك بالفعل. خلق فوز مرسي في الانتخابات الرئاسية فراغا في السلطة. من الناحية الشكلية كان هو الرئيس وحاول تعزيز منصبه من خلال دستور جديد ومن خلال التغلغل في المؤسسات. لكنه تصرف دون حصافة وظل دائماً ـ وهذا ما كان محسوساً ـ رئيساً للإخوان المسلمين أكثر من كونه رئيساً للمصريين. وعلى أي كانت السلطة لا تزال في معظمها في قبضة الجيش والنخبة القديمة. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك النفوذ الخارجي. دعمت قطر كما هو متوقع «الإخوان المسلمون». أما السعودية والإمارات العربية فدعمتا الجيش المصري والنخبة القديمة، خوفاً من إمكانية انتشار دعوات الدمقرطة (وبالتالي انتشار الإخوان المسلمين) في ممالك الخليج. فقد طالت الاحتجاجات مملكة البحرين الصغيرة في فبراير/شباط ٢٠١١. ولم يفلح قمعها إلاّ بتدخل قوات خاصة سعودية وإماراتية في منتصف مارس/آذار.

وبين صيف ٢٠١٢ وصيف ٢٠١٣ كانت مصر لا تزال تعيش حالة صراع خال من العنف بين الإخوان المسلمين والجيش. وكل القوى الأخرى رأت نفسها مضطرة للانحياز إلى أحد الطرفين. ووسط هذه التوليفة لم تكن ثمة فرصة لنشطاء اللحظة الأولى، الذين كافحوا من أجل أن تصبح مصر مجتمعا مدنيا، لا يحكمه العسكر أو الإسلامويون. وأمام الخيار بين حكم الإسلامويين والإخوان المسلمين الفوضوي المنتقد من أطراف عدة أو إنهاء الفوضى وانعدام الأمن، وبين عودة

حكم العسكر في المقابل، خرج المصريون مجدداً في حشود ضخمة إلى الشوارع، ولكن في هذه المرة ضد أول رئيس منتخب ومن أجل الجيش بزعم أنه ولي أمر محايد للـ«شعب».

لم يفوت الجيش ـ ممثلاً الآن في عبد الفتاح السيسي، وزير الدفاع الذي عينه مرسي ـ الفرصة: عُزل مرسي في ٣ يوليو/تموز عام ٢٠١٣ وألقي القبض عليه مع سياسيين آخرين من جماعة «الإخوان المسلمون». لقد حصل المصريون قبل عامين على الديمقراطية عبر الاحتجاجات وقضوا عليها بالطريقة نفسها[١]. رغم أنه ليس من المستبعد في الاحتجاجات ضد مرسي، أن يكون الجيش وممولوه في شبه الجزيرة العربية كانوا يمسكون بالخيوط من وراء الكواليس[٢].

قام الإخوان المسلمون بعد الانقلاب بتعبئة أنصارهم الباقين، الذين أنشأوا مخيما احتجاجيا في ميدان رابعة العدوية في الطريق المؤدي للمطار. كان كل شيء يسير باتجاه المواجهة. وعندما انقضت مهلة الجيش لإخلاء الميدان، حاصر الجيش الإخوان المسلمون والأخوات المسلمات في ١٤ أغسطس/آب وأطلق عليهم الرصاص. لقد كانت مذبحة رابعة هي خاتمة التجربة الديمقراطية في مصر. فقد قضى خلالها عدة مئات على الأقل ووفقاً لبيانات أخرى أكثر من ألف[٣]. ومنذ ذلك الحين يحكم عبد الفتاح السيسي البلاد دون منازع، ورغم سجله الفادح في ملف حقوق الإنسان، فإنه يُعامل دوليا بتملق، تماماً كما كان يحدث مع حسني مبارك في السابق. أما محمد مرسي فقد مات في السجن (أثناء جلسة محاكمة) في ١٧ يونيو/حزيران ٢٠١٩.

---

(١) Feldman ٢٠٢٠: فصل (الوكالة والخطأ) «Agency and Error».

(٢) Hessler ٢٠٢٠: الفصل رقم ١٢.

(٣) Hessler ٢٠٢٠: الفصل رقم ١٤.

«في الجبهة الغربية» كل شيء يرتعد!

في البداية رحب معظم السياسيين والمعلقين الأوروبيين والأمريكيين دون تحفظات تقريباً بالتغيرات الثورية. وفعلياً قبل أن يتضح الوضع السياسي ولو مبدئيا فقط، مهد الجانب الألماني لبرامج لدعم معالجة الماضي والتصالح بين كافة فئات المجتمع. وكان النموذج الذي يحتذى في ذلك هو لجنة الحقيقة في جنوب أفريقيا وهيئة وثائق «شتازي» لمعالجة الانتهاكات في جمهورية ألمانيا الديمقراطية[1]. مثل هذه الأمور لم تتسبب في ضرر مباشر، لكنها أثارت توقعات خاطئة وأدت إلى استنتاجات متعجلة. وسرعان ما أصبحت المؤسسات السياسية الأوروبية والأمريكية التي نشطت إلى جانب الثوار، في مرمى نيران قوى النظام القديم التي ازداد نفوذها. وكان على هذه المؤسسات أن تدرك أن الماضي الذي يرغب المرء في معالجته، يبدأ فعلياً لتوه الآن. فإزاء الجرائم السياسية والإنسانية التي ارتكبت منذ عام ٢٠١١، يبدو الزمن قبلها وكأنه مشهد طبيعي خلاب.

وبغض النظر عن هذه النشاطات الحسنة النية، والأقرب للرمزية مع ذلك، لم تستطع أوروبا وأمريكا التوصل لموقف واضح وللدعم غير المشروط لتلك القوى التي كانت تعد تقدمية أو مؤيدة للغرب. وبعبارة

---

(١) Gerlach ٢٠١٣.

أخرى: مارست أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية (باستثناء التدخل العسكري في ليبيا، أنظر أدناه) سياسة رمزية ودبلوماسية الغرف الخلفية. أما الفاعلون الآخرون، وخصوصاً دول الخليج العربي وإيران، فكانوا يترقبون في المقابل بسياسة قوة عدوانية وباستخدام مكثف للموارد المالية. كان الأمر بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت. فلو حقق الثوريون في مصر وتونس وسوريا وليبيا واليمن النجاح المنشود، فسينتفض الناس أيضاً في منطقة الخليج، كما تبين من مثال البحرين. لذا كان ينبغي الحيلولة دون ذلك بكل قوة.

من المنظور الأورو-أطلسي كان للتردد في التدخل بحسم أكثر في الأحداث التي شهدها العالم العربي، أسباب وجيهة وأخرى سيئة. من بين الأسباب الوجيهة أنه في الوقت الذي كانت الأمور تتعلق فيه في العالم العربي بالكرامة والمساواة، كان من الصعب انتهاج سياسة لا تُفهم على أنها إمبريالية ولا تحي ذكريات عن الماضي الاستعماري. وكما تبين من الخبرات في العراق وفي أفغانستان وفي ليبيا لاحقاً، كانت مثل هذه السياسة ستصطدم بمقاومة عنيفة، وستُرفض أيضاً من القوى التقدمية. بالإضافة إلى أنه كان من الضروري الحصول داخليا على شرعية ديمقراطية من الشعب لهذه التدخلات، في حين أن الحكام المستبدين في السعودية ودول الخليج وإيران وتركيا وروسيا، ليسوا في حاجة لأخذ رأي شعوبهم بشأن ما تقوم به حكوماتهم من مغامرات سياسية خارجية.

لكن كانت ثمة أسباب سيئة للتحفظ الأورو-أطلسي، وهي أسباب متعلقة مباشرة بالحادي عشر من سبتمبر، وتُعزى إلى الخوف من الإسلام ومن الإرهاب والريبة العمومية من العرب والمسلمين.

وإجمالاً قوى ذلك وجهة النظر المتداولة والعنصرية في نهاية المطاف عن أن المسلمين ليسوا جاهزين ولا قادرين على ممارسة الديمقراطية.

وقد أيقظت التوجهات المعادية للإسلام التي تنامت في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، المخاوف من أن الثورات قد تجلب موجة جديدة من التطرف. ولأن المساعدات الملموسة للقوى العلمانية والتقدمية قد غابت ـ أيضاً بسبب هذه المخاوف ـ فقد حدث ما كان يُخشى منه: لقد تأسلمت الثورات. لقد كانت نبوءة حققت نفسها بنفسها.

بالنسبة لكثير من الفاعلين المتنفذين في الفضاء الأورو-أطلسي، كان ثمة سبب سيء آخر *لعدم* مناصرة القوى التقدمية والتحررية: فقد كانوا ببساطة تقدميين للغاية أو اشتراكيين ديمقراطيين أو اشتراكيين للغاية، ولم يكونوا ميالين للحرية الـ(نيو) ليبرالية بالمعنى «الغربي»، وإنما طمحوا للتكافؤ الاجتماعي والتضامن ومشاركة أكبر عدد ممكن من الناس في المجتمع الجديد المنشود.

وبعبارة أخرى: كانت القوى التقدمية في العالم العربي شديدة الشبه بالحركات الاحتجاجية الجديدة المعادية للرأسمالية في النصف الشمالي من الكرة الأرضية مثل منتقدي العولمة الذين احتجوا عام ١٩٩٩ في سياتل ضد مؤتمر منظمة التجارة العالمية أو حركة «احتلوا وول ستريت»، التي قويت بعد أزمة البنوك عام ٢٠٠٨.

وفي الحقيقة كان هذا الشبه موجودا، ولسبب وجيه: فالثورات التي تجلب الحرية وحدها دون العدالة الاجتماعية، تعد في الدول الفقيرة والأقل تنمية في أفضل الأحوال ثورات للأغنياء. وبالنسبة للقاعدة العريضة من الجماهير لا تستحق بذل الجهد من أجلها. لكن إذا جلبت الثورة العدالة الاجتماعية والاقتصادية، فإن الخاسر سيكون هو رأس المال المعولم ومحركاته أي منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي.

لو كانت القوى التقدمية قد وصلت حقاً إلى السلطة، لكانت ستطالب بالتجارة العادلة وبانتهاج سياسة شبيهة بسياسات التأميم في الفترة ما بين الخمسينيات والسبعينيات. لكن هذا كان سيلقى مقاومة شديدة من الولايات المتحدة الأمريكية والكتلة الرأسمالية. لأنه من الأسهل بالطبع المتاجرة مع أمراء أو جنرالات فاسدين، من المتاجرة مع أناس يمثلون مصالح الأغلبية. لم يكن هذا سبباً كافياً للـ«غرب» لوقف الثورات، مثلما فعلت دول الخليج. لكنه كان السبب في عدم دعمه لها بحسم كاف، ولهذا لم تعرقل إدارة أوباما ولا الأوروبيون ممارسات الدول العربية الرجعية، وإنما سمحت بها.

مع أنه كان من الممكن اتخاذ موقف واضح من التوجهات والأنظمة القمعية واتخاذا إجراءات اقتصادية ودبلوماسية، خصوصاً إزاء السعودية والإمارات العربية. فقد لعبتا دوراً حاسماً في دعم الثورة المضادة للجيش في مصر والقوى الإسلاموية المتطرفة في سوريا. كما أنهما تتحملان مسؤولية كبيرة عن إرهاب الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وما بعده[1].

(١) Sohns ٢٠١٦.

من ليبيا إلى سوريا

تضع ثورات مثل الثورات العربية كل سياسة تسترشد بالديمقراطية وحقوق الإنسان في مأزق، فالتدخل إشكالي تماماً كالتخلي عن التدخل. وقد جُرب كلاهما. وكلاهما فشل فشلا مريعا. في مارس عام ٢٠١١، عندما كانت دينامية الثورة لا تزال إيجابية، فرضت فرنسا وبريطانيا وكندا والولايات المتحدة منطقة حظر فوق ليبيا، من أجل حماية الثوار في شرق البلاد. في السابع عشر من فبراير/شباط بدأت هناك احتجاجات مستلهمة من الانتفاضات في تونس ومصر. جاءت المبادرة التي تقف وراء قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٩٧٣ بفرض منطقة حظر جوي على ليبيا من قبل دول الخليج التي كان تناصب ديكتاتور ليبيا المشاغب معمر القذافي العداء منذ فترة طويلة، ودعمت الجامعة العربية القرار أيضاً وأصبحت له بذلك شرعية دولية وإقليمية معتبرة. وخلال الصيف استغل الثوار الدعم الجوي من أجل التقدم باتجاه العاصمة طرابلس، رغم أن الحظر كان فقط لأغراض الحماية. شعرت روسيا التي امتنعت عن التصويت على القرار، مثلها مثل ألمانيا، بأنها خُدعت وخشيت على نفوذها في شمال أفريقيا. في أغسطس/آب تمكن الثوار من الاستيلاء على العاصمة طرابلس في عملية تمت في جنح الليل. وهرب القذافي وأتباعه المخلصين. وفي ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول عُثر عليه في مخبئه في سرت وقُتل وتم تداول أشرطة الفيديو عن اعتقاله في شبكة الإنترنت.

مع الإطاحة بالقذافي الذي لم يبك عليه أحد، انتهت المصالح المشتركة لدول الخليج والقوى والغربية في ليبيا. وانهارت البلاد الشاسعة المساحة التي يغلب عليها الطابع الصحراوي ويصعب السيطرة عليها، ولا زال يحكمها منذ ذاك الحين أمراء حرب بدعم من قوى أجنبية[١]. تساند قطر وتركيا «الحكومة الشرعية» التي تشكلت بصعوبة، وتعد ذات صبغة إسلامية. وتدعم السعودية والإمارات ومصر وروسيا اللواء خليفة حفتر المنشق في بنغازي بشرق ليبيا. أصبحت مناطق كثيرة تحت سيطرة أمراء حرب أو عصابات، وتتعيش من تهريب اللاجئين أو من دعم الجماعات الإرهابية مثل القاعدة وتنظيم «الدولة الإسلامية».

تطور الوضع في ليبيا ـ رغم التدخل الغربي المكثف أو بسببه ـ إلى أسوأ سيناريو. والأسوأ هو وضع المهاجرين الأفارقة والعرب الذين يطمحون للوصول إلى أوروبا. ونظراً لعدم وجود سلطة مركزية، فإن الطريق الأسهل لأوروبا يمر في المقام الأول عبر ليبيا: لا توجد سلطة أو شرطة أو موظفو جمارك يمكن أن يوقفوا المهاجرين، مثلما هي الحال في دول الجوار التي أبرمت جميعها اتفاقات مع أوروبا ضد المهاجرين. أما في ليبيا، فيضطر المهاجرون للترتيب «فقط» مع مهربين للبشر ومجرمين، يختطفون المهاجرين ويبتزون أهاليهم من أجل دفع فدية لهم[٢]. وبقدر ما كانت تبعات التدخل العسكري في ليبيا كارثية إلى اليوم، فإن الوضع كان أيضاً سيتجه للفوضى أيضاً دون تدخل غربي، كما ثبت من مثال آخر وهو سوريا.

عندما درست في سوريا في عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ لمدة سنة، تبين لي أنني لا أعيش فقط في بلد في الشرق الأدنى، في نظام ديكتاتوري

---

(١) Zakharov ٢٠٢٠.

(٢) Kingsley ٢٠١٦.

عربي، وهو ما قد وضعته في حسباني، وإنما في واحدة من آخر الدول الاشتراكية التي تعاني من نقص في الورق وانقطاع متكرر للكهرباء ونقص زيت الدفئة في شتاء قارس البرودة. خضعت الصحافة لرقابة صارمة، ولم تكن ثمة حياة تستحق الذكر، بغض النظر عن المقاهي التي كانت قصراً على الرجال، وبعض الفنادق الدولية وبعض المطاعم القليلة. كل الأمور كانت تجري في المحيط الخاص، نظراً لعدم توافر أماكن للخروج، كما كان الحال في الدول الاشتراكية الأخرى عام ١٩٨٩. كان لدي شعور أن هذا جزء من التجربة الاشتراكية، وخصوصاً وأن سوريا بدت معزولة عن العالم. وفي لبنان المجاور كانت الحرب الأهلية قد انتهت لتوها، وفي العراق انتهت حرب الخليج التي طُرد خلالها صدام حسين من الكويت.

صحيح أن جورج و. بوش لم يذكر سوريا بالاسم في خطاب حالة الأمة في ٢٩ فبراير/شباط ٢٠٠٢ ضمن محور الشر ـ فقد ذكر فقط كوريا الشمالية وإيران والعراق. لكن ثمة مؤشرات على أن سوريا كانت بعد ١١ سبتمبر/أيلول هدفاً لأصحاب النزعة التدخلية ومؤيدي تغيير الأنظمة في أوساط وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائبه بول وولفوفيتز ونائب الرئيس ديك تشيني[١]. كانت سوريا التي يحكمها بشار الأسد منذ وفاة والده حافظ عام ٢٠٠٠ جارة للعراق وحليفة لإيران وعدوة لدوداً لإسرائيل وممولة للمقاومة الفلسطينية وداعمة لحزب الله في لبنان وموطنا للقواعد العسكرية الروسية، ما جعلها قريبة للغاية من محور الشر أكثر من أي بلد آخر في المنطقة ولذا اعتبرها ممثلو الإدارة الأمريكية «دولة مارقة»[٢].

ورغم أن مثل هذه النبرة لا تسعف كثيراً في إطار الدبلوماسية الدولية، فإن الوصف لم يكن خاطئاً تماماً. ففي فبراير/شباط عام ٢٠٠٥

---

(١) Lüders ٢٠١٨: فصل بعنوان («المطرقة والمسمار») «Hammer und Nagel».

(٢) Abrahaminian ٢٠٠٤.

اتضح بجلاء أن النظام السوري أيضاً تحت قيادة الابن الشاب، الذي بدا ظاهرياً عصرياً ومتنوراً (لقد درس طب العيون في باريس ولندن) كان عازما على اللجوء لأي وسيلة من أجل تحقيق مصالحه، وذلك عندما قُتل رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري، أحد أهم الشخصيات السياسية في الشرق الأوسط، على الأرجح على يد حزب الله بالتعاون مع المخابرات السورية[١].

أذكر أن صديقة كانت تسافر لدمشق كل عام تقريباً، قد حكت بعد عودتها عام ٢٠١٠ أن الوضع الاقتصادي للبشر الأكثر فقراً في البلاد قد تدهور بشكل مريع. عاد النظام مجدداً للتشدد في قمع المعارضين وتهديدهم علنيا بالحبس، إذا ما استمروا في تصريحاتهم النقدية. وبالإضافة إلى ذلك جاء تأثير التغير المناخي، حيث شهدت البلاد جفافاً مستمراً في السنوات السبع السابقة على عام ٢٠١١، ما تسبب في نزوح أكثر من ٣٠٠ ألف شخص من المناطق الريفية: كانت سوريا تقف على حافة أزمة عصيبة، أيضاً من دون الثورات العربية. وبهذا عانت البلاد من مشكلات اقتصادية وسياسية شبيهة بالدول العربية الأخرى، ولكن بالطبع مع الفارق أن الرئيس الجديد بشار الأسد، قد فكك في الأثناء اشتراكية الدولة القديمة التي عايشتها بنفسي في التسعينيات، بدعم قوي من الأوساط النيوليبرالية في أوروبا.

وقد أسهم عالم الاقتصاد الألماني بيرند لوكه Bernd Lucke الذي أسس لاحقاً حزب «البديل من أجل ألمانيا» بدور هامشي في جهود الإصلاح الاقتصادي. كان يعمل ما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٧ في الشرق الأوسط وتخصص تحديداً في تحرير الاقتصاد السوري[٢]. وتمثلت نتيجة

---

(١) Harris ٢٠١٨: ص ٢٠.

(٢) Lucke ٢٠٠١، Gaitan ٢٠٠٧.

مساعي التحرير (بالمعنى الاقتصادي)، التي كانت مدعومة من البنك الدولي ومجموعة البحث الألمانية ومنتدى أورو-متوسطي للمعاهد الاقتصادية FEMISE في القضاء على الدعم الحكومي في مجالات حيوية. وقد أدى هذا إلى إهمال المناطق الريفية لصالح قطاعات اقتصادية مدرة للربح. وقد جلب هذا لسوريا ازدهاراً اقتصادياً، افتقر بالطبع بشدة للتوازن في توزيع عائداته. وقد أسهم ذلك على أي حال في زيادة الظلم الاجتماعي القائم، وأدى في نهاية المطاف لاندلاع الانتفاضات. ارتفعت الأسعار، لكن دعم الدولة كان قد ألغي تماماً وفق السيناريو النيوليبرالي. في عام ٢٠٠٧ اعتبرت دراسة لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي أن ثلث السوريين يعانون الفقر[١].

ولنبقى قليلاً هنا عند الارتباطات بين السياسات (النيو-) ليبرالية والثورات العربية! كان الرئيس المؤقت لمنتدى المعاهد الاقتصادية الأورو-متوسطية هو الاقتصادي المصري أحمد جلال، الذي كان وزيراً للمالية في أول حكومة تشكلت بعد الانقلاب في يوليو/حزيران ٢٠١٣. وهي مهمة لا يُفترض أن يحسد عليها. فمن ناحية، كانت الحكومة الانتقالية منذ مذبحة رابعة ملوثة بالكثير من الدماء. ومن ناحية أخرى، كانت كل المساعي تهدف بعد انقلاب السيسي في صيف عام ٢٠١٣ إلى إبقاء سيطرة الجيش المصري على الاقتصاد، إذن لم يكن ثمة طموح لإصلاح اقتصادي ليبرالي. أي حكومة ولو شبه ديمقراطية كانت ستقوم بالضرورة بالقضاء على امتيازات وفساد الجيش.

لكن القصة متواصلة: في عام ٢٠١٩ أصبح إبراهيم البدوي، المدير السابق لمنتدى المعاهد الاقتصادية الأورو-متوسطية، وزيراً للمالية في الحكومة الانتقالية السودانية بعد إسقاط الرئيس البشير الذي حكم البلاد

---

(١) هذه الأرقام وفقاً لـ Armbruster ٢٠١٣: ص ٥٦ وما تلاها.

لعقود ومنح اللجوء لأسامة بن لادن في التسعينيات. وكنا نأمل فقط أن يطبق البدوي سياسته المالية وفق احتياجات السودانيين وليس وفق طلبات البنك الدولي والمؤسسات البحثية النيوليبرالية. وتظهر الأمثلة من سوريا ومصر والسودان كم هو مكثف تأثير والمؤسسات الشبكات المالية الأورو-أمريكية القريبة من الحكومات على العالم العربي، ولا يزال. ومن يتطرق إلى ذلك في سياق الممارسات النيو-كولونيالية، فلن يجانبه الصواب تماماً.

وتطرح توصية حديثة من منتدى المعاهد الاقتصادية الأورو-متوسطية، شارك البدوي في التوقيع عليها[1]، أفكاراً مستقبلية بشأن إعادة اللاجئين العرب إلى بلادهم. والهدف هو إرجاعهم رغم أن معظم اللاجئين سيبقون في أوروبا أو يرغبون في البقاء. تسير السياسة النيوليبرالية التي تزعزع استقرار المنطقة اقتصاديا وتجعلها تنزف يداً بيد مع سياسة الأحزاب والحكومات الشعبوية المعادية لليبرالية والمعادية للاجئين في أوروبا. من خلال هذه الشراكة المتنافرة ظاهريا بين القوى النيوليبرالية والمعادية لليبرالية، لا تعود السياسة «الغربية»، التي عادة ما تكون نيوليبرالية، مضطرة لتحمل مسؤولية ما تتسبب فيه في أماكن أخرى، ولا لتحمل العواقب المترتبة على ذلك والمتمثلة في الاضطرابات والحروب الأهلية وتفاقم حركات الهجرة. تعيد السياسة اليمينية الشعبوية الأوروبية إغلاق الحدود، التي فتحتها النيوليبرالية من أجل تدفق الأموال، في وجه البشر.

من دون أن تكون سوريا متورطة في هجمات ١١ من سبتمبر/أيلول انجرفت البلاد مع الغزو الأمريكي للعراق في تيار الأحداث التي تسبب

(1) http://www.femise.org/wp-content/uploads/2019/09/FEMISE_EuroMed4-FINAL-small-upd.pdf.

فيها الإرهاب. حمت إيران، التي كانت مهددة بالانجراف في التيار أيضاً، نفسها وتمكنت من استغلال الاحتلال الأمريكي للعراق لأغراضها. لقد دعمت العراقيين الشيعة واستخدمتهم بفعالية لأغراضها. وبالطريقة نفسها لجأت سوريا لإجراءات لمواجهة النفوذ الأمريكي: لقد سمحت للجهاديين ـ وبالأخص من السنة وأنصار صدام السابقين ـ الذين يهاجمون القوات الأمريكية، بالانسحاب إلى سوريا عند الحاجة والعمل من هناك. كانت تلك وسيلة بسيطة وفعالة لممارسة الضغط على الأمريكيين. تحكم السوريون من الآن فصاعداً في الحركة الجهادية مثلما يتحكمون في صنبور، يغلقونه ويفتحونه حسبما يعن لهم[1]. ومع ذلك كانت الحكومة السورية تتحجج بأنه يصعب التحكم في الحدود الطويلة مع العراق التي هي في معظمها صحراء.

وبهذا سددت سوريا وخزة مؤلمة للقوات الأمريكية، دون أن تتحمل أي مسؤولية عن ذلك، وحالت دون استقرار العراق، ودمرت محاولة الدمقرطة الأمريكية. ودون الحاجة إلى أن يتفقوا معاً، اجتمع السوريون والإيرانيون وممالك الخليج الغنية، التي لم تكن لها مصلحة لها أيضاً في دمقرطة المنطقة، على الهدف نفسه. وبقدر ما كان المسلك الأمريكي في العراق غبيا وغير كفوء ـ فإنه نظراً لهذه الجيرة الجيو-استراتيجية كان سيكون من الصعب أيضاً مع سياسة أكثر حصافة، تحويل هذا البلد بالذات إلى منارة للديمقراطية.

لقد جعل الإحساس بالتهديد الناجم عن الوجود الأمريكي في العراق السياسة الداخلية للنظام السوري أكثر تشددا، فكل شكل من أشكال الانفتاح يمكن أن يتسبب في طوفان. لم تتحول سوريا إلى ملجأ للجهاديين وحدهم. لقد هاجر العراقيون، طالما كان ذلك في

---

(١) Harris ٢٠١٨: ص ٢٠.

استطاعتهم، إلى سوريا للهروب من الوضع الخطير الذي أصبح أكثر فأكثر غير محتمل. ولم يلق اللاجئون العراقيون ترحابا من الشعب السوري. فقد ارتفعت الأسعار، وكانوا بمثابة نذير، لما تنتظره سوريا من مصير.

لم يقتصر الأمر على الأمريكيين في العراق، فقد مثل الإسلامويون السنة تهديداً لحكم حزب البعث العلماني الذي تهيمن عليه مع ذلك الطائفة العلوية. كان النظام على دراية بتهديد الإسلامويين منذ فترة طويلة. في عام ١٩٨٢ اندلعت انتفاضة للإخوان المسلمين في مدينة حماة قمعها حافظ الأسد بأقصى درجات الوحشية، وقُتل في الأحداث أكثر من ١٠ آلاف شخص. لذلك لم تقم سوريا فقط بدعم الحركة الجهادية في العراق في صمت، بل كانت تتخذ في الوقت نفسه إجراءات بحق الإسلامويين في الداخل، وألقت القبض على أعداد كبيرة منهم.

عندما خرجت أولى الاحتجاجات في نهاية مارس/أذار ٢٠١١ في سوريا، كان الأسد وجماعته حاسمين في عدم تقديم أي تنازلات للمعارضة. لقد تبين أن النظام أكثر وحشية وانغلاقاً وتماسكاً من ديكتاتورية بن علي ومبارك اللذين كانا قد نُحيا بالفعل. ورغم أن التعذيب كان موجوداً في تونس ومصر (ولا يزال موجوداً في مصر)، كان حجم الانتهاكات في سوريا قبل الثورة بالمقارنة أكبر بكثير وأكثر منهجية[١].

لذلك انطلقت الاحتجاجات في مطلع عام ٢٠١١ في البداية في بعض مدن الأقاليم الأكثر معاناة من الوضع الاقتصادي في سوريا. ونظراً لأن المتظاهرين كانوا يتجمعون بعد صلاة الجمعة، وصفتهم صحافة

---

(١) Khalifa ٢٠١٩.

الدولة بأنهم إسلاميون وإرهابيون. لقد نجح النظام من خلال إطلاق الرصاص على مسيرات المتظاهرين في وضع المقاومة التي كانت في البداية سلمية تحت ضغط شديد للغاية، بحيث انشقت عناصر من الجيش ـ في كثير من الأحيان بعد رفض إطلاق النار على المتظاهرين، وانتقلوا بعد ذلك إلى جانب المعارضة التي تسلحت شيئاً فشيئاً. وبثت وسائل الإعلام العالمية، وخصوصاً قناة الجزيرة، أشرطة فيديو للنشطاء في سوريا إلى كل أنحاء العالم العربي، وروجت للثورة. التحمت التظاهرات في مدينتي حماة وحمص المهمتين الواقعتين على المحور الرئيسي بين دمشق وحلب ببعضها البعض. وفي أعقاب ذلك سرعان ما أعلن المتمردون مدنا أو مناطق كاملة باعتبارها «محررة».

بعد شهرين من اندلاع الاحتجاجات صرح الشاعر السوري أدونيس الذي كتب قبل أربعين عاماً الأبيات التنبؤية في قصيدة «قبر من أجل نيويورك»، في صحيفة الحياة اللندنية: «كان منتظراً أن يحدث ما حدث في سوريا، في شكل أو في آخر. أن يستيقظ النائم أو المنوم. أن يتحرك الناس في طلب الحرية، والكرامة البشرية، والقضاء على الظلم وتوزيع الثروة بعدالة، وإلغاء الاعتقالات بسبب الرأي... إلخ»[1]..

ثم لجأ النظام إلى حيلة كان قد جهز لها منذ فترة طويلة: لقد أطلق سراح الجهاديين المعادين للكل من السجون[2]. ما يبدو الآن عبثيا يسهل شرحه: بمنطق غادر اعتمد النظام على أن المسلحين الإسلامويين سيضعفون القوى العلمانية الغربية التوجهات وسيقومون بأسلمة الانتفاضة وعسكرتها. وقد نجحت الخطة ومنحت النظام الفرصة المنشودة لتصوير مسلكهم الوحشي بحق الثوار أمام الرأي العام العالمي بوصفه مكافحة

(١) Adonis ٢٠١٢: ص ٢٩٣. نُشر الأصل العربي في ٢٠١١/٥/٥.

(٢) Harris ٢٠١٨: ص ٢٨.

للإرهاب الإسلاموي المسلح. عندما كان النظام السوري يقوم بمحاربة المتمردين، لم يكن وفقاً لهذا المنطق يفعل شيئاً مختلفاً عما كان يفعله الأمريكيون أيضاً، عندما كانوا يطاردون الجهاديين حتى آخر زاوية في أفغانستان.

وبقدر ما كان الأمل كبيراً لدى قطاعات واسعة من الشعب في سقوط النظام، كان هناك بعض المتشككين. ومنهم أدونيس، رغم تفهمه للاحتجاجات. لقد رفض اعتبار هذه الانتفاضة ثورة. وكما أوضح لي في أحاديث عدة، إن ما ينقص من أجل ثورة حقيقية هو وجود إستراتيجية حقيقية وتنظيم وقيادات. كانت الثورة بالنسبة لأدونيس هو ما طمح إليه كناشط في الحزب القومي السوري الاجتماعي. وهو يدين لهذه الحركة باسمه (قارن ص٢٣)، وأيضاً يدين لها بعدة أشهر قضاها في السجن للاشتباه في مشاركته في محاولة انقلابية. ووفقاً له تحتاج الثورة إلى زعيم، يشبه أنطون سعادة زعيما للحزب القومي السوري الاجتماعي[١]، أو ماو زعيما للحزب الشيوعي الصيني أو كاسترو زعيما للكوبيين أو الخميني زعيماً للإيرانيين، مهما كان المرء نقديا أيضاً تجاههم جميعا.

في المقابل كان الثوار في العالم العربي مزيجاً متنوعاً، يكاد يكون فرقة غير مسيسة، تجتمع فقط على معارضة الأنظمة. وكل التوجهات الفكرية والطبقات الشعبية ممثلة فيها. لم يكن ثمة حزب أو منظمة أخرى في الخلفية، تستطيع أن تمسك بالخيوط كمحرك دمى. لقد أشاد كثيرون، وبالأخص المثقفين الأوروبيين ومراقبين في المنفى مثل حميد دباشي[٢]، بالثوار العرب (وكذلك الإيرانيين) لتلقائيتهم وغياب الإيديولوجية الواضحة الموحدة والزعامة لديهم.

---

(١) Cresswell ٢٠١٩.

(٢) Dabashi ٢٠١٢.

لكن بالنسبة لأدونيس وكثيرين من جيله كان غياب المنظمة في الخلفية عيباً واضحاً. وبالإضافة لذلك فقد خشي من أن يقوم الإسلامويون بإضعاف الثورة. وكما تبين لاحقاً، كانت هذه الخشية أكثر من مبررة. لكن المعارضة السورية، وحتى العلمانية منها، فسرت تشكك الشاعر بوصفه خيانة. بالإضافة إلى اتهامه بأن عدم تحمسه للثورة له صلة بأصوله العلوية: ينتمي الرئيس السوري وزمرته أيضاً للطائفة نفسها.

في نهاية عام ٢٠١٢ اقتصرت سيطرة النظام على دمشق والمناطق الساحلية المأهولة ومحور الطريق الرئيسي المؤدي إلى حلب، حيث توجد مدينتا حمص وحماة الكبيرتان المتنازع عليهما بشدة. وعندما رأى مراقبون كثيرون أن النظام لن يعمر طويلا[1]، بدأ تدويل النزاع وغير ذلك تدريجيا علاقات القوة لصالح بشار وزمرته وشبيحته.

كانت قوات الأسد قد تقلصت بسبب الانشقاقات بأعداد كبيرة؛ التحق شباب كانوا يواجهون خطر تجنيدهم بالمقاومة وفروا إلى خارج البلاد. في هذا الموقف كان لتحالف النظام مع حزب الله الشيعي في لبنان فوائده. إذ أن قواته ذات الخبرة القتالية والقوة الضاربة، تمكنت في التسعينيات من طرد إسرائيل من جنوب لبنان. ومن الآن فصاعداً صار يؤيد الأسد بميليشياته عوضاً عن محاربة إسرائيل.

كما أن إيران بدأت في مساندة النظام ماليا ولوجيستيا وعسكريا. خاضت قوات الحرس الثوري الإيراني المعارك إلى جانب الأسد، تحت

---

(١) ومن بين آخرين رئيس جهاز الاستخبارات الألمانية غيرهارد شينلدر Gerhard Schindler ومؤسس منظمة كاب أنامور Cap-Anamur روبرت نويديك Rupert Neudeck:

https://www.faz.net/aktuell/politik/inland/bnd-chef-gerhard-schindler-das-regime-assad-wird-nicht-ueberleben-11986739-p2.html;

و Neudeck ٢٠١٣: ص ٢٨ وما تلاها.

قيادة اللواء قاسم سليماني المعروف بسمعته السيئة، والذي قُتل في هجوم بطيارة مسيرة أمريكية في مطلع عام ٢٠٢٠. وكقوات مشاة وطُعمة للمدافع أرسلت طهران شيعة أفغان، كان كثير منهم يعيشون كلاجئين في إيران، للقتال في سوريا مع وعود هزيلة (مثلاً بإعطائهم إقامة مفتوحة). وأخيراً حصل النظام السوري على دعم الميليشيات الشيعية في العراق المتحالفة أيضاً مع إيران.

ونظراً لأن الأسد والعديد من المنتسبين للنظام السوري والقيادات العسكرية ينتمون للطائفة العلوية الشيعية، فقد كان التحالف الاستراتيجي مع إيران الشيعية تقليديا مبرر أيضاً دينياً.

ولأن المتمردين في المقابل مدعومين من خصوم إيران، أي من دول الخليج ذات الصبغة السنية، تحول النزاع في سوريا على حرب بالوكالة. إن ما مارسته دول الخليج من دفع للمعارضة السنية في سوريا إلى التطرف الديني، خدم الرواية السالف ذكرها التي كان الأسد يسعى من البداية لنشرها وهي أن الانتفاضة أطلقها إسلامويون وإرهابيون، ولو كسبوا الحرب، فسيكون وضع الأقليات الدينية والعرقية، كالمسيحيين والعلويين والدروز والأكراد والدروز وغيرهم، في سوريا سيئاً.

وفي حين تهيب الحلفاء الأورو-أطلسيون من تدخل عسكري جديد، بعد أن تسببت العملية في ليبيا في إغراق البلاد في الفوضى، سرعان ما ساندت روسيا بحسم الأسد أيضاً، إلى جانب إيران وميليشيات حزب الله. يعود التحالف السوري الروسي إلى فترة الحرب الباردة. وتأوي سوريا القاعدة البحرية الروسية الوحيدة في البحر المتوسط. مقابل ذلك تدعم روسيا بطائراتها منذ عام ٢٠١٥ الحرب الجوية للنظام على المتمردين. بالإضافة إلى ذلك أرسلت مرتزقة من «مجموعة فاغنر» سيئة السمعة.

وعلى عكس المجاهدين في الثمانينات في أفغانستان، لم يحصل المتمردون في سوريا على صواريخ دفاع جوي، خشية أن تقع في أيدي الإرهابيين وتستخدم في قصف طائرات مدنية. كما كانت ثمة خشية من رد الفعل الروسي، ومن استخدام صواريخ دفاع جوي غربية الصنع ضد طائرات روسية. ومن خلال هذه السيادة الجوية المضمونة وغير المحدودة، أصبح ثمة عدم تكافؤ عسكري، كان من شأنه أن يحسم مصير الثورة.

وبذلك أصبح المدنيون في المناطق التي يسيطر عليها المتمردون دون حماية من الهجمات الجوية. وقد دفع ذلك بالمتمردين إلى الانسحاب من منطقة تلو الأخرى. وبعد أن سيطرت فصائل المعارضة السنية المختلفة على ثلثي سوريا، اضطرت في عام ٢٠٢٠ للانسحاب إلى مدينة إدلب في المنطقة الحدودية الشمالية. وهناك أيضاً لم تستطع الصمود إلاّ بدعم تركيا التي احتلت أجزاء من المنطقة، وتريد الحيلولة دون استعادتها. فهذا من شأنه أن يؤدي إلى فرار مئات الآلاف خوفاً من قوات الأسد إلى تركيا ـ وغالباً إلى أوروبا.

كل الأرقام الخاصة بحصيلة ضحايا الحرب الأهلية في سوريا هي تقديرات. حتى نهاية عام ٢٠٢٠ قُدرت أعداد الضحايا بشكل مباشر أو غير مباشر بـ ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف قتيل أو ربما أكثر. ملايين من السوريين هُجروا داخل بلادهم وعدة ملايين آخرين لجأوا إلى الخارج، ومعظمهم لم يأت إلى أوروبا، وإنما إلى البلدان المجاورة، أي تركيا ولبنان والأردن.

وكان النزاع قبل أزمة كورونا يعد إلى جانب النزاع في العراق أكبر أزمة إنسانية في القرن الحادي والعشرين. لكن الاختلاف عن أزمة كورونا، هو أن هذا النزاع من صنع البشر من الألف إلى الياء ـ وهو

نتيجة سياسة بائسة يتحمل الفاعلون المحليون والعالميون مسؤوليتهم عنها بالقدر نفسه.

لا توجد بدايات مطلقة. ودون شك كان ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ هو اليوم الذي اتجه فيه العالم نحو الكارثة.

ثمن الوقوف متفرجين: الهجرة الجديدة

كما هي الحال مع الثورات العربية في مجملها، كان رد فعل المجتمع الأورو-أطلسي فيما يخص سوريا، وبعد موجة أولية من التعاطف مع الثوار، متردداً ومنقسماً، إن لم يكن منافقا. صحيح أنه لم تكن ثمة حكومة من الكتلة الأورو-أطلسية ترغب في دعم رئيس مثل بشار الأسد، يقصف شعبه بالقنابل، لكنها لم تستطع حتى أن تحسم القرار بشأن تدخل عسكري، عندما استخدم النظام على الأرجح الغاز السام ضد المعارضة المسلحة والمدنيين عام ٢٠١٣[١]. ظل الخط الأحمر الذي وضعه باراك أوباما لمنع استخدام أسلحة كيمياوية عديم الأثر، لأن خطورة التصعيد بدت كبيرة جداً[٢]. وعوضاً عن التدخل العسكري، تم التوصل إلى اتفاق بوساطة روسية لتدمير ترسانة الأسلحة الكيماوية. لكن النظام استخدم على الأرجح الغاز السام عدة مرات متفرقة فيما بعد. وخلال رئاسة ترامب نُفذت بالاتفاق مع بريطانيا وفرنسا هجمات انتقامية. لكن ذلك ظل دون جدوى فيما يخص التطور الإجمالي في سوريا.

وفي نهاية المطاف بُرر انسحاب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من النزاع في سوريا أيضاً بأنه بسبب أسلمة الثورة التي جرت عبر ضخ

---

(١) حول النقاش عن المسؤول عن الهجمات قارن:
https://www.tagesschau.de/faktenfinder/giftgas-false-flag-101.html.

(٢) للمزيد: Feldman ٢٠٢٠.

أموال كثيرة من دول الخليج، لم يعد ثمة شريك معتدل يمكن التواصل معه. كما ذكرنا، كانت المعارضة العلمانية المؤيدة للغرب بحسم، من البداية هدفاً رئيسياً للإجراءات القمعية للنظام. فهي تمثل له أكبر خطر، لأنها مدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. ولذلك كان يجري عن قصد اعتقال أو تعذيب أو قتل أو ببساطة إخفاء الناشطين العلمانيين، وفي كثير من الأحيان يكونون من الطيف السياسي اليساري. ومن ينجح في مقاومة النظام، يجد نفسه في مواجهة الأعداد المتزايدة من الجهاديين، وفي آخر المطاف في مواجهة تنظيم «الدولة الإسلامية».

ينضاف إلى ذلك أن المعارضة العلمانية التقدمية، وبالذات بسبب طابعها الليبرالي، لم تكن مستعدة بشكل جيد لمواجهة مسلحة مع النظام. وبوصفهم تلاميذ جيدين «للغرب» لم تكن سوى قلة قليلة منهم قادرة على الإمساك بسلاح في يدها. فمن الصعب الجمع بين الفردية المستلذة بالحياة في أسلوبها «الغربي» والاستعداد للتضحية الضروري في الحرب من أجل أهداف سياسية أكبر.

ومن المفهوم جداً طبعاً أن هؤلاء الذين لم يكونوا قادرين على هذه التضحية، قد اختاروا اللجوء، عوضاً عن الخسارة في معارك ميئوس منها ضد النظام أو ضد الإسلامويين. كان أكبر جيش أفرزته الحرب الأهلية في سوريا مكوناً من شباب في سن التجنيد، انسحبوا من الحرب عبر الفرار، وفقاً للشعار السلمي القديم المأخوذ من بيت للشاعر الأمريكي كارل ساندبرغ Carl Sandburg: «تخيل، إنها الحرب ولا أحد يذهب إليها».

«السوريون سيس»[1]، هكذا قال طالب أردني بعد عدة كؤوس من

(١) تعبير بالعامية المصرية يقصد به شخص جبان يفتقد للجرأة. (المترجم).

البيرة في إحدى الحفلات بالقاهرة في نهاية ٢٠١٢. في البداية يقومون بالثورة ويحتفلون، ثم لا يجرؤون على القتال ويفرون.» ومهما كان هذا الحكم دون شك ظالماً ومثيراً للجدل ومهيناً ـ فقد قاتل كثير من النشطاء ذوي التوجه العلماني وضحوا بحياتهم ـ فقد مس جرحا سيظل مزعجاً للحركات الاحتجاجية التحررية: طالما أن النظام الجديد المنشود ينبغي أن يكون ما بعد بطولي وسلمي، حسبما يُوصى بذلك، يُطرح السؤال عمن سيظل للنضال من أجل فرض أهدافه والدفاع عنها في مواجهة خصم لا ضمير له؟ الخيار المطروح ليس أقل إشكالية: أي خوض الحرب بالاستعانة فقط بالطائرات المسيرة والمرتزقة والجيوش الخاصة، مثلما تقوم الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وإيران بذلك في العراق وسوريا.

كان الأكراد هم الفاعلون الوحيدون الذين قاتلوا النظام والإسلامويين بحسم وتلقوا من أجل ذلك دعما عسكريا من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وقد تولوا عمليا مهمة القوات البرية في معركة التحالف ضد داعش، وهو نموذج تمت تجربته في أفغانستان، عندما طُردت طالبان بالاستعانة بميليشيات أفغانية، في حين اقتصر الدور الأمريكي على الضربات الجوية وتدخل الفرق الخاصة. وبقدر ما هو عملي أن تترك الآخرين يقاتلون من أجلك، فإن سياسة كهذه تعد غير مسؤولة: فمثلاً حصلت قوات حماية الشعب الكردية، وهي منظمة مقاومة لينينية، على دعم عسكري، وهي لا تمثل أي تطلع ديمقراطي، ناهيك عن تمثيلها القيم «الغربية»، فيما يُصنف حزب العمال الكردستاني، وهو المنظمة الشقيقة لوحدات حماية الشعب في تركيا، في كثير من البلدان الأوروبية كمنظمة إرهابية محظور نشاطها.

لقد شهد النزاع السوري تدويلاً دراماتيكياً، اتسع ليصبح حرباً بالوكالة ما بين إيران والسعودية وروسيا وتركيا (مع وجود «الغرب»

كمتفرج)، عندما ازدادت أعداد اللاجئين بسبب الحرب الأهلية في عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥ ازدياداً حاداً لدرجة أن بعض الدول الأوروبية قد قررت الموافقة على عبورهم عبر أراضيها للوصول إلى البلدان التي ينشدونها ـ وكانت ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ والدول الاسكندنافية وبريطانيا هي الدول المفضلة. وقبل اتخاذ هذا القرار كان على طالبي اللجوء تقديم طلب في أول بلد آمن يلجؤون إليه. وبفضل فتح الحدود أمكن تجنب «تكدس» عنيف للاجئين في دول جنوب أوروبا التي تحملت فوق طاقتها. كان هذا من ناحية تحركاً تضامنياً أوروبياً من منطلق الواقعية السياسية، وبهدف تجنب أزمة أكبر داخل الاتحاد الأوروبي، ومن ناحية أخرى كان تحركا إنسانياً تجاه لاجئي الحرب الأهلية. لمرة واحدة يظهر «الغرب» على قدر قيمه التي يروج لها.

وقد قاد النبأ عن إمكانية عبور الحدود إلى زيادة مضطردة في أعداد المهاجرين وشجع ذلك أناساً من العراق وأفغانستان وشمال أفريقيا لدخول الاتحاد الأوروبي من الطريق البري عبر تركيا. لا يحتاج السفر إلى تركيا من معظم البلدان المسلمة إلى تأشيرة. وبإمكان المرء أن يسافر بتذكرة طيران ببضع مئات اليورو من الدار البيضاء إلى إسطنبول ومن هناك يصل عبر الطريق البري إلى الاتحاد الأوروبي بطريقة آمنة أكثر من عبور طريق البحر القصير عند مضيق جبل طارق.

وقد تطور ما يسمى بـ«فتح الحدود» و«سياسة اللجوء» في ألمانيا وأماكن أخرى ليصبحا في السنوات التالية قضيتين سياسيتين رئيستين وسبباً رئيسياً لنجاح حركات اليمين الشعبوي في جميع أنحاء أوروبا. لكن صعود الشعبوية اليمينية العنصرية في كثير من الأحيان ليس نتاجاً لموجة الهجرة الكبيرة في عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥. لقد كانت هذه الشعبوية موجودة من قبل ونمت في أعقاب الأجواء المعادية للإسلام بعد ١١ سبتمبر/أيلول التي عمت أجزاء كبيرة من المجتمع.

لقد أعطى ١١ سبتمبر/ أيلول والإرهاب الإسلاموي فرصة لهؤلاء الذين يكرهون المهاجرين والأجانب، لعقلنة مبادئهم والتظاهر بأنهم يقدمون أسباباً موضوعية: ونظراً لأن غالبية اللاجئين قادمين من بلدان يغلب عليها الطابع الإسلامي، كان بإمكانهم منذ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول تبرير رفضهم بالخوف من الإرهاب. فجأة أصبحت هذه الحجة القديمة العنصرية تجاه الثقافة مقنعة والقائلة، بأن الإسلام غريب في جوهره عن الغرب ذي الطابع «المسيحي» أو «المسيحي ـ اليهودي»، أو ببساطة ليس متنوراً بما يكفي، كي يجد مكانا في قلب المجتمعات الأوروبية.

صرف التركيز على الإسلام الأنظار عن الانتباه لمشاكل وقضايا سياسية أكثر إلحاحا وأهمية بكثير ـ مشاكل أعقد لأنه لم يكن ممكناً إلصاقها بالأجانب، وإنما كان يجب على المرء الانشغال بحلها بنفسه، كالتساؤل مثلاً عن مقدار العولمة والتنافس وتدمير العالم (وبالتالي أيضاً قضية اللاجئين) الذي يمكن للمرء أن يقبل به. أو ألم يحن الوقت لتغيير الوضع الحياتي ليصبح أكثر حرصاً وأقل توسعا وكلفة واستعراضاً للذات، وإتاحة الموارد التي تم توفيرها من خلال ذلك، لاستقبال موجات صدمة التغير الهيكلي الناتج عن ذلك، هناك حيث يعيش الناس في أقسى الظروف[١].

في المقابل بدا أن ١١ سبتمبر/أيلول قد قدم سببا معقولا، لكي يصبح المرء غير عقلاني وغير متسامح وعدوانياً ومستبداً. بدا ١١ سبتمبر /أيلول أشبه تفويض، مثل تذكرة مجانية ـ لإدارة بوش وكذلك للمواطن العادي المستعد لتقبل مشاعر الحقد. ومن أجل الحماية من عدم التسامح المزعوم في الإسلام، أصبح المرء ذاته غير متسامح. إذن لقد ترك المرء

---

(١) Lessenich ٢٠١٦.

نفسه يصاب بعدوى كان يرفضها رفضاً صارخاً، عندما يلاحظها عند شخص غريب. ومن أجل إنقاذ الحرية، قُلصت الحرية، وخصوصاً حرية المهاجرين الجدد، وغالبيتهم مسلمون؛ لكن ذلك شمل بالطبع أيضاً تقليص الحرية الذاتية أيضاً، دون أن يعترف أحد بذلك.

وقد تغلغل ذلك في السياسات الكبرى: في عام ٢٠١٣ كشف المسرب إدوارد سنودن[١] من خلال نشر وثائق سرية على موقع ويكيليكس أن وكالة الأمن الوطني الأمريكي NSA، تشغل برنامج تنصت، يرصد تقريباً بشكل عشوائي أي مواطن أمريكي، وورؤساء دول وحكومات أجنبية، ومن المحتمل أن يرصد الاتصالات الدولية برمتها: «عندما جلست على مكتبي، كان بإمكاني أن أتجسس على أي شخص، أريد أن أتجسس عليه، عليك أنت أو على زملائك في العمل، على قاض فيدرالي أو حتى على الرئيس، بشرط أن يكون لدي البريد الإلكتروني الخاص بالشخص»[٢]. بحجة حماية المجتمع تُقوضُ دولة القانون التي تضمن هذه الحماية.

وقد شمل هذا أيضاً التعامل مع كاشفي الأسرار أنفسهم، فإلى جانب سنودن، يأتي جوليان أسانج في المقام الأول، فهو الذي أسس منصة ويكيليكس[٣]، وتشيلسي (برادلي سابقا) ماننغ التي سربت وثائق عن انتهاكات الحرب في العراق وأفغانستان. وفيما حُكم على ماننغ بعقوبة السجن لسنوات طويلة، يقبع أسانج، بعد سبع سنوات من «المنفى» في سفارة إكوادور، في سجن بريطاني في لندن. وسنودن موجود في روسيا. ونظراً لأن ثلاثتهم لم يكتفوا فقط بإفشاء الأسرار، بل وكشفوا أيضاً

---

(١) Harding ٢٠١٤.

(٢) اقتباس من: Acemoglu ٢٠١٩.

(٣) Leigh/Harding ٢٠١١.

جرائم الحرب الكبيرة التي ارتكبتها الولايات المتحدة الأمريكي وحلفاؤها، فإن قضيتهم تسير باتجاه تقويض آخر للثقة الأساسية في المؤسسات وفي أهمية القانون والحرية في المنطقة الأورو-أطلسية وتلتحم مباشرة ضمن تاريخ العواقب السلبية للحادي عشر من سبتمبر/أيلول.

تشير جرائم الحرب التي كشفها المسربون إلى عدم القدرة على تحمل الأعباء وسوء التدريب، ولكن أيضاً إلى الغضب والرغبة في الانتقام والتجبر. ويعود ذلك إلى نهج المواجهة الذي تنامى بعد ١١ سبتمبر/أيلول، مع تفضيل أن تكون تلك المواجهة مع خصوم ضعاف مهمشين ومنهارين طبقيا. مثل هذه السلوكيات التي كانت حتى ذاك الوقت طابعاً مميزاً للأنظمة والبيئات المستبدة، غاصت تماماً في التيار السائد للديمقراطيات الليبرالية، ما لم تكن قد عششت هناك تماماً منذ وقت بعيد. وقد سهلت وسائل التواصل الاجتماعي الجديد والمجال الأشبه بالرأي العام الذي خلقته، نشر مثل هذه المواقف.

لم يكن النقاش والتوعية مطلوبين كثيراً في الأجواء المحتدمة[١]. فالتوازن غير مثير، وهو بذلك يعد بالنسبة لوسائل الإعلام التي تتعيش بشكل أساسي من لفت الانتباه، إن لم يكن الإثارة، غير جذاب. ولا يقتصر ذلك على البرامج الحوارية والصحف الصفراء والإنترنت، ولكن أيضاً في سوق الكتاب، حيث تُجنى أموال طائلة بعناوين مثيرة عن الإرهاب والإسلام وتغلغل الثقافات الأجنبية.

وبذلك هيمن موضوع الإسلام باضطراد منذ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول في ألمانيا أيضاً على السياسة الكبرى. وقد أدى الجدل

---

(١) ثمة معالجة جيدة لدى: Bahners ٢٠١١.

حول الإسلام إلى الإطاحة بالرئيس الاتحادي كريستيان فولف Christian Wulff (تولى المنصب ما بين عامي ٢٠١٠ ـ ٢٠١٢) الذي اتسم بالعقلانية. لقد تجرأ على قول ما هو بديهي، وتحديداً إنّ الإسلام والمسلمين جزء لا يتجزأ من ألمانيا. وإثر ذلك بدأت الصحافة الصفراء في حملة تشويه له. وبعد أن تمكنت فعلا من إرغام فولف على الاستقالة، لم يمر وقت طويل، حتى تبين أن حزباً جديداً قد تأسس يسعى لجمع أصوات مؤيديه من خلال أجواء معاداة الإسلام. وتبين أن هذا الحزب الذي أسسه بيرند لوكه عام ٢٠١٣ (قارن ص١٨٦) بأهداف معادية للوحدة الأوروبية هو حزب «البديل من أجل ألمانيا» (AfD).

العنصرية والإرهاب الأبيض

سرعان ما استثارت الأجواء العنيفة المسمومة، التي انتقلت من الشرق الأوسط والأدنى عبر المتوسط في صورة إرهاب، الإرهاب «الغربي» المضاد. لقد ظل لفترة طويلة غير ملحوظ، لأنه يتحرك أسفل المستوى الذي يعد عموما إرهابا. مثلاً في حالة جريمة قتل مروة الشربيني في قاعة المحكمة في دريسدن ذات الدوافع العنصرية، في ١ يوليو/تموز ٢٠٠٩، وحالات منفردة كثيرة جداً.

وقد وقعت أولى أبرز جرائم الإرهاب «الأبيض» العنصرية التي لا يمكن إغفالها، في النرويج، عندما قام أندرس بريفيك Anders Breivik بقتل ٧٧ شخصاً في هجومين أحدهما بقنبلة في أوسلو والأخرى بإطلاق الرصاص على الناس في جزيرة أوتويا. بالطبع تعود نظرية تفوق البيض *White Supremacy* التي استند إليها بريفيك بوضوح، إلى زمن أبعد من الحادي عشر من سبتمبر بكثير. ونحن نعرف ذلك من إشعال الحرائق والهجمات على ملاجئ طالبي اللجوء والبشر ذوي الملامح الأجنبية في التسعينيات، ونرى ذلك لدى ما يسمى بـ«المجموعة النازية السرية» (NSU) التي نشطت منذ عام ١٩٩٨ ونفذت اغتيالات منذ عام ٢٠٠٠. ومثال على استمرارية هذه المواقف، بغض النظر عن الوضع السياسي، هو صعود وانهيار هانس غيورغ ماسن الذي، كما أسلفنا، نصح رئيس مكتب المستشارية آنذاك فرانك فالتر شتاينماير بعدم السماح بعودة مراد

كورناز الذي ثبتت براءته، لكنه كان متأثراً بالسلفية، من غوانتانامو إلى ألمانيا، حيث يقيم.

كرئيس لهيئة حماية الدستور خلال الفترة التي ارتُكبت فيها اغتيالات المجموعة النازية السرية، يتحمل ماسن جزءاً من المسؤولية عن غياب التحقيقات أو إفشالها عمداً (لقد جندت هيئة حماية الدستور جواسيس في أوساط القتلة). وبذلك جعل ماسن وكل المسؤولين الآخرين الدولة في دائرة الاشتباه، لكونها تتقبل أعمال العنف المعادية للإسلام وتغطي عليها وتمولها، في شكل مكافآت لمرشدين مشبوهين في هذا الوسط.

ولا يتبين فقط من خلال منصب ماسن، الذي كان مسؤولا فيه عن مكافحة الإرهاب الإسلاموي، أن لديه أجندة معادية للمسلمين، بل ويبدو أيضاً، على غرار كثيرين في مناصب مماثلة، أن لديه اهتماماً شخصياً بالأمر. وقد ظهر ذلك في عام ٢٠١٨، عندما قلل من شأن أعمال الشغب المعادية للأجانب في مدينة كيمنتس، وعارض بذلك موقف الحكومة الألمانية وتسبب في أزمة حكومية، لم تنته إلاّ بإقالته.

من الواضح أن التركيز على الإرهاب الإسلاموي قد جعل أقساما من هيئة حماية الدستور تغض بصرها عن الإرهاب اليميني. وهو ما يدفع المرء للاعتقاد بأن ثمة منظاراً ملوناً بصبغة عنصرية (ثقافية) هو الذي يحدد مدى خطورة الأوضاع.

لم يعد التهديد اليميني موجها إلى المهاجرين الجديد وذوي الملامح المختلفة والمختلفين، ولكن أيضاً ضد المؤسسة السياسية داخل البلاد. لقد ظهر شكل من الإرهاب اليميني ذي كثافة غير مسبوقة منذ عقود ويقلد في جوانب كثيرة خصمه متمثلاً في الجناة الإسلامويين المنفردين، يتطرف عبر الإنترنت، كما الإسلامويين، ويُظهر بشكل مشابه ملامح تحكم روحي وهمي عن بعد، مثلما كان الحال لدى إرهابي الدولة

الإسلامية. ومثال نموذجي على ذلك هو بيان منفذ هجوم هاناو، حيث وقعت أكبر عملية إرهابية يمينية في ألمانيا قبل أزمة كورونا. في ١٩ فبراير/شباط ٢٠٢٠ قُتل تسعة أشخاص، استهدفهم الجاني لاعتقاده بأنهم لا ينحدرون من أصل ألماني[١].

في ١ يونيو/حزيران من هذا العام السابق على ذلك وصل الإرهاب اليميني عبر اغتيال السياسي فالتر لوبكه Walter Lübcke المنتمي للحزب المسيحي الاجتماعي ورئيس حكومة مدينة كاسل إلى مستوى جديد من التصعيد، وجعل السلطات تنتبه لمدى خطورة الوضع. وقد عارضت سلطات التحقيق طويلا، كما في قضية اغتيالات المجموعة النازية السرية، اعتبار أن الجريمة ذات دافع سياسي، رغم أنه من المعروف أن لوبكه كان شخصية مكروهة لدى اليمينيين. إضافة إلى ذلك، فقد حاول جانٍ آخر اقتحام كنيس مدينة هالّه يوم ٩ أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠١٩ وارتكاب مجزرة هناك، وعندما لم يتمكن من ذلك أطلق النار بعشوائية على المارة، والمواطنين ذوي الملامح الأجنبية. قُتل شخصان في الهجوم وأُصيب عدة أشخاص، بعضهم بجراح بليغة.

كان الإرهاب «الأبيض» قد أصبح منذ هجوم بريفيك على أقصى تقدير ظاهرة عالمية. لقد ضرب أيضاً ضربته في الولايات المتحدة في٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٨ في كنيس في بيتبرغ (١١ قتيلا)، وأخيراً في نيوزيلندا، عندما قُتل ٥١ شخصاً في ١٥ مارس/آذار ٢٠١٩ في هجوم على مسجدين في مدينة كرايست-تشيرش. مثل هذا التطور كان متوقعاً في أوروبا قبل إرهاب تنظيم «الدولة الإسلامية» في أوروبا، وليس له أي

(١) لم يعد البيان متاحا على شبكة الإنترنت، لكن النص موجود لدي. وهومهم في سياق موضوعنا لأنه يشير بوضوح إلى الحروب في الشرق الأوسط بعد ١١ سبتمبر/ أيلول ويتضمن نصائح للأمريكان.

صلة سببية به. يصف الباحثان السياسيان توماس غريفن وتوماس غرومكه Thomas Greven und Thomas Grumke في عام ٢٠٠٦ التطرف اليميني بوصفه شكلا من أشكال «حركة العولمة المعولمة»[١] وقد رُصدت منذ عام ٢٠٠٠ محاولات لمجموعات يمينية متطرفة لجعل موضوع نقد العولمة الذي هو موضوع يساري تقليديا، هو قضيتها[٢]. وقد تحقق ذلك بنجاح منذ ترامب والبريكسيت ـ مع أن ابن لادن وجهادييه المناهضين للعولمة يتمكنون من تصدر عناوين الصحف أسرع من أقرانهم الغربيين.

(١) Greven/Grumke ٢٠٠٦: ص ٩ وما تلاها.

(٢) المصدر ذاته: ص ١٥ وما تلاها.

«الدولة الإسلامية» والرعب الجديد

لم يكن «فتح الحدود» المزعوم أو تحفظات الشعب على الهجرة المتزايدة هي وحدها السبب في الأجواء السياسية المشحونة في عام ٢٠١٥ وما بعده. لقد استعرت الأجواء السيئة بشدة بسبب أسوأ موجة إرهاب ذات خلفية إسلامية منذ ١١ سبتمبر/أيلول. كان الأمر وكأن الإسلام المسلح أراد أن يقدم الدليل على عالم لا يزال في قلب عصر ١١ سبتمبر/أيلول و«صدام الحضارات».

وبينما فقد تنظيم القاعدة الكثير من أهميته منذ تصفية ابن لادن على يد فرقة عمليات خاصة أمريكية في عام ٢٠١١، برز تحت اسم «الدولة الإسلامية» (أو داعش، الدولة الإسلامية في العراق والشام) تنظيم إسلامي أكثر وحشية بمراحل، وسيطر على منطقة شاسعة من شرق سوريا وشمال العراق بما في ذلك عدة مدن مهمة. ولم يكن هدف الجهاديين هو الاستيلاء على الدولة القائمة، مثلما فعل الملالي في إيران، بل كان هدفهم بالأحرى تأسيس دولة جديدة من الأساس، لا تقع ضمن الحدود التي رسمتها القوى الاستعمارية، وتخضع لقوانين إسلامية بحتة. بالإضافة إلى أنهم أعادوا إحياء الخلافة كشكل تقليدي للحكم في الإسلام.

لقد ألغى مصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الدولة التركية منصب الخليفة الذي كان يتولاه السلطان العثماني منذ عام ١٩٢٤. ومنذ ذلك

الحين لم يطالب أحد بها بشكل جدي. ونظراً لأن المنصب يجلب معه السلطة الاعتبارية على كل المسلمين، فسيصعب الجمع بينه وبين نظام الدولة القومية الحديثة في العالم الإسلامي، وهو ما فهمه الإسلامويون. في المقابل أراد تنظيم الدولة الإسلامية نظاماً جديداً تماماً لا يقوم على أساس قومي.

يرتبط صعود تنظيم «الدولة الإسلامية» سببيا بالسياسة الأمريكية في العراق بعد ١١ سبتمبر/أيلول. بعد سقوط صدام حسين عام ٢٠٠٣، قرر الأمريكيون كما ذكرنا، تسريح كل النخبة العسكرية والسياسية السابقة، بما يعني عمليا كل ضباط جيش صدام وكل الموظفين، الذين كانوا في حزب البعث. وكانت غالبيتهم من السنة. وقد حُرموا من التوظيف في الوظائف الرسمية، ومنذ ذلك الحين كان عليهم تصفية حساباتهم مع الأمريكيين.

كثير منهم انضم للمقاومة السنية التي تطرفت بمرور الوقت وأصبحت مسؤولة عن العديد من الهجمات الانتحارية على القوات الأمريكية والعراقية، ولكن أيضاً تنامى استهدافها للشيعة والمسيحيين ولأهداف مدنية أخرى كثيرة، كالأسواق والمصالح الحكومية وما إلى ذلك. وكان يقود هذه العمليات فرع تنظيم القاعدة في العراق تحت قيادة الجهادي الأردني المتعطش للدماء أبو مصعب الزرقاوي (١٩٦٦ ـ ٢٠٠٦ قارن ص١٤٩). لقد أفرط في القتل والتدمير حتى أن أيمن الظواهري نائب ابن لادن قد طالبه بوقف سفك الدماء العشوائي والهجمات على الشيعة[١]. ومن هذا الفرع العراقي الذي سرعان ما سينشق عن القاعدة تشكل التنظيم السابق على تنظيم الدولة الإسلامية. لقد اعتقل الأمريكيون كثير من المتطرفين والبعثيين السابقين والعسكر الذين انضموا لهذا التنظيم.

---

(١) Gerges ٢٠١٦: ص ٧٨ والصفحات التالية عليها.

وكان خليفة تنظيم الدولة الإسلامية أبو بكر البغدادي من بينهم. وقد وسعوا شبكاتهم داخل السجون وجندوا أتباعاً جدداً وأسسوا لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق السابق على تنظيم داعش، حسبما يذكر أستاذ العلوم السياسية الأمريكي ـ اللبناني فواز جرجس: «قارن سجناء سابقون سجن بوكا (أحد أكبر معسكرات الاعتقال الأمريكية) بمدرسة لتنظيم القاعدة ـ إنه مؤسسة تشبه مصنعا لإنتاج الإرهابيين. لقد أوى سجن بوكا حوالي ٢٤ ألف سجين، من بينهم الكثير من الضباط البعثيين والمقاتلين ذوي التوجهات القومية الذين عملوا مع نظام صدام. وفي سجن بوكا جلس هؤلاء عند أقدام السلفيين الجهاديين الذين طووهم تحت أجنحتهم وجعلوهم يعتنقون أيديولوجيتهم الإسلامية المتطرفة»[1].

جلب هؤلاء الضباط السابقون في جيش صدام خبرة عسكرية وتنظيمية عالية، ولم يكن لديهم إلاّ القليل من الروادع الأخلاقية، وتمكنوا أن يؤسسوا لقاعدة حكمهم فيما يعرف بالمثلث السني المحيط بمدينة الفلوجة شمال غرب بغداد. وعندما بدأت الانتفاضات في سوريا في ٢٠١١، استغلوا فراغ السلطة الناشئ وسيطروا على منطقة شاسعة من شرق سوريا، من ضمنها مدينة الرقة، التي أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية. سقط كثيرٌ من المناطق الصحراوية قليلة السكان في أيدي الدولة الإسلامية دون مقاومة. كما تم الاستيلاء على بقاع وأماكن كثيرة في معارك مع جماعات متمردة ومتطرفين. لكن اللافت أن تنظيم الدولة الإسلامية لم يدخل تقريباً في قتال مباشر مع قوات الأسد. وقيل إن الطرفين يتعاونان سراً مع بعضهما البعض. فالعدو المشترك كانوا معارضو النظام المعتدلين وإسلامويون آخرين مثل تنظيم جبهة النصرة القريب من تنظيم القاعدة والذي يعتبره داعش منافساً مباشراً له.

---

(١) Gerges ٢٠١٦: ص ١٣٣.

في يونيو/حزيران ٢٠١٤ استولى تنظيم الدولة الإسلامية، كما أسلفنا، في جنح الليل وببضع مئات من الرجال على مدينة الموصل الواقعة وسط العديد من آبار النفط في شمال العراق. فرت القوات الحكومية، وسقط في يد التنظيم الإرهابي الكثير من العتاد الحرب الأمريكي والعراقي والأزياء العسكرية ومبالغ ضخمة من فرع المصرف الوطني العراقي. لقد سيطر أيضاً على آبار النفط ومصافي التكرير في المنطقة واستطاع جزئياً أن يمول نفسه عبر تهريب النفط.

ولم يتمكن التحالف المكون من الحكومة العراقية والأكراد والشيعة وبدعم جوي غربي، من طرد آخر مقاتلي داعش من الموصل إلاّ في صيف ٢٠١٧. لكن ثمن استعادة المدينة كان باهظا: وهو التدمير الواسع النطاق للمدينة القديمة (يعود تأسيسها إلى العصر الآشوري قبل أكثر من ٨٠٠ عام قبل الميلاد) وآلاف الضحايا من المدنيين الذين منعهم داعش من الهروب لاستخدامهم كدروع بشرية، أو وقعوا بخلاف ذلك بين الجبهتين.

نال داعش اهتماماً دولياً واسعاً من خلال وحشيته المبالغ فيها، على غرار قطع رأس الصحفي الأمريكي جون فولي John Foley الموثق بالفيديو في ١٩ أغسطس/آب ٢٠١٤ أو مشهد الحرق العلني للطيار الأردني معاذ الكساسبة في ٣ يناير/كانون الثاني ٢٠١٥ بعد انتشاله حيا من طائرته التي سقطت، والذي تم إخراجه بشكل فني معقد. هذا الاستعراض الاستفزازي العلني للوحشية كان متعمداً ويهدف للترهيب وأيضاً للدعاية. وهذا المسلك يستند إلى استراتيجية سياسية وعسكرية رسمها أكثر رواد الفكر الجهادي تطرفاً عند منعطف القرن الحادي والعشرين[١] وفي بياناتهم ينصحون بشدة بقطع الرؤوس والحرق وكذلك

---

(١) Gerges ٢٠١٦: ص ٣٠٠.

الصدمات الكهربائية المتواصلة كتكتيك فعال للتخويف ويقدمون مبررات لذلك.

وبالاستعانة بالعمل الإعلامي النفسي المخادع والفعال على نحو مذهل ـ وخصوصاً في الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي[١] ـ لم يتمكن تنظيم الدولة الإسلامية من تجنيد أنصار له في العالم الإسلامي وحده، بل وجند مسلمين في أوروبا. وبهذا أصبح التنظيم مركز التجمع للإسلامويين والرومانسيين والرومانسيات السلفيين المستعدين لممارسة العنف. بل إن التنظيم قد شكل فرقة من النساء[٢]. وبين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٨ حكم داعش دولة أعلن عن قيامها بنفسه، وهي دولة افتراضية من جوانب عدة (رغم وجود أرض حقيقية تتواجد عليها)، مع مواطنين افتراضيين، وهذا يعني كل هؤلاء الذين «انضموا» كما يقال للتنظيم وأقسموا على الولاء له وشعروا بالانتماء له: أناس حالمون، وواهمون، ومخابيل، ومتعصبون، ومتهورون، ومرتزقة، أو يدعون أنهم مرتزقة. لم يبد تأثير داعش مدمراً في سوريا والعراق وبهجماته في أوروبا فحسب. لقد أسس بالإضافة إلى ذلك فروعا في دول أخرى غير مستقرة: في أفغانستان، حيث تفوق في الأثناء في وحشيته على حركة طالبان، وأصبح يتنافس معها، وفي ليبيا ونيجيريا وأماكن أخرى.

لا يزال الخبراء في التطرف والإرهاب وعلماء النفس حائرون ليومنا هذا بشأن سر هذه الجاذبية لجماعة دينية فاشية، تستعرض أقصى قدر من السادية واحتقار الإنسانية والحياة والقيم عموما، حتى الإسلامية منها. كان داعش ربة انتقام، كان انتقام الحداثة، ويصعب فهم بطشه ووحشيته فكريا أو نفسيا.

---

(١) Theine ٢٠١٦.

(٢) Mohagheghi ٢٠١٥.

وعلى النقيض من هذه الفعالية الخطيرة التي كان التنظيم يستعرضها عسكريا وإعلاميا، والتي عبرت عن نفسها من خلال استيلائه على الأراضي والأعداد الكبيرة لأنصاره ووصولا إلى القوة العسكرية الضاربة التي وصلت لأوروبا، غاب عن التنظيم على نحو غريب أي شكل من أشكال الواقعية السياسية أو الرؤية بعيدة المدى: وكأن كل هذا قد بُني ومُهد له دون أن يكون أمام أعين التنظيم ثمة لحظة أو مستقبل أو تطلع أو توقع، أو هدف ملموس وقابل للتحقق.

في الحقيقة أراد تنظيم داعش إقامة ما يشبه خلافة الألف عام[١]. ترتبط أيديولوجية التنظيم، وأيضاً ممارساته الوحشية بحركات سياسية أخرى تعتقد في الألفية وتعتبر نفسها جزءاً من تاريخ الخلاص، كالنازية مثلاً. صحيح أن مثل هذه الحركات الألفية كانت موجودة في عصر ما قبل الحداثة، لكن ليس بهذا الارتباط الكارثي بدولة شمولية الفكر تتوفر على وسائل سلطة فائقة الحداثة.

ليس المنحى الأخروي غير المفهوم ظاهريا هو المقلق في ظاهرة داعش، كما في «الأديان السياسية» الشبيهة لها[٢]، وإنما المقلق هو ما يربط التنظيم بالسياسة والأفكار والأيديولوجيات في «الغرب: وللأسف هناك الكثير! ففكرة الغرب تعود إلى فكر علماني قائم على تاريخ الخلاص، ويمتد من هيغل إلى فوكوياما (قارن ص٧٢) عبر التاريخ الفكري «الغربي». يصبغ هذا الفكر أيضاً ظاهريا السياسات الليبرالية، مثلاً في آلياتها الإقصائية ونزعتها الكونية المهيمنة، وطابعها الكولونيالي الكامن تارة والظاهر تارة أخرى.

الفكر الحديث القائم على تاريخ الخلاص، أي الأديان السياسية،

---

(١) McCants ٢٠١٥.

(٢) Voegelin ٢٠٠٧.

كما نعتها إريك فوغلين Eric Voegelin في السابق، لم تُبتكر في «شرق استبدادي مظلم، وإنما في وسط أوروبا، في باريس وتوبينغن وبينا وبرلين وزيورخ وموسكو وفيينا ـ واللافت أن ذلك تكرر كثيراً في المنطقة الناطقة بالألمانية. وإذا كانت هذه التصورات للعالم تأتينا الآن عدائية ومهددة من العالم العربي أو من أي مكان آخر ـ وقريباً على الأرجح من الصين ـ فإن هذا لا يعفينا من حقوق ملكية هذه الأفكار ومن شراكتنا في المسؤولية عنها.

يفسر بعض المراقبين نشأة داعش وجاذبيتها كنتيجة لفشل الثورات العربية. وقد قاد هذا إلى فكرة تطوير نظام سياسي جديد، وفقاً لما يُزعم أنه الإسلام في عهد النبي محمد. وبهذا فإن داعش هي أيضاً نتيجة محتملة، إن كانت مفزعة للطموح إلى الاستقلال السياسي، الذي اتسمت به الثورات العربية. إيمان داعش بمذهب الألفية ورغبته في تطبيق يوتوبيا (حتى ولو كانت ديستوبيا بالنسبة لمعظم الناس) يمثل محاولة يائسة ومنحرفة، للنشاط السياسي ونقل الآمال إلى الواقع. هكذا يكتب الصحفي الأمريكي روبرت ف. وورث Robert F. Worth «من وجهة نظر معينة، يتصرف الآلاف من الشباب والشابات الذين التحقوا بداعش من الدافع نفسه الذي حرك المحتجين في ميدان التحرير: إنها الحاجة إلى وطن يعاملون فيه كمواطنين»[1]. كما يتحدث الباحث الأمريكي في العلوم السياسية جوشوا فيلدمان Joshua Feldman بوصفها «طوباوية، سلفية جهادية، وإصلاحية على نحو ثوري»[2]. تذكر سياسة تنظيم «الدولة الإسلامية بتشوهات الثورة الفرنسية، بإرهاب الفضيلة لسان-جوست وروبيسبيير. وهذا صحيح حيث أنه يصعب التفكير في داعش

---

(١) Worth ٢٠١٦.

(٢) Feldman ٢٠٢٠: الفصل الرابع.

دون التفكير في الثورة الفرنسية وكذلك دون التفكير في فلسفة التاريخ من هيغل إلى ماركس. سواء أعجبنا ذلك أم لا، فإن تاريخ الإرهاب السياسي لداعش لم يبدأ فكريا فحسب، بل وأيضاً على نحو ملموس جداً في قلب «الغرب»، في باريس. ومثلما انتهى الحال بالمطالبة بالحرية والمساواة والإخاء في باريس عام ١٧٨٩ بعد أربع سنوات لاحقة إلى إرهاب الفضيلة، انتهى الحال بالثورات العربية على المنوال نفسه تماماً بعد ثلاث سنوات بداعش وإرهاب الفضيلة الخاص بها.

ليست الأيديولوجية الإسلاموية الغليظة ووحشيتها الاستعراضية، التي يمارسها كل الفاعلين الآخرين بالأحرى في الخفاء بهجمات الطائرات المسيرة أو العمليات السرية، هي ما يزعج في ظاهرة داعش. المزعج بالأحرى هو ما يبدو بالنسبة لنا مألوفا: إنه الفكر الثنائي، الإيمان بالخير والشر الذي يؤدي للقناعة بأن داعش أو الإرهاب هما الآخر المختلف تماماً، هما الشر (أو العكس من منظور داعش «للغرب» وللولايات المتحدة الأمريكية). وفي إسار هذا الفكر لا نعود ندرك أننا في اللحظة نفسها التي نصم فيها الشر بأنه الآخر الغريب وغير المفهوم، فإننا نشترك معه في منطقه ونترك نفسنا للإصابة بالعدوى منه، وبالتالي لخطر تكراره.

تبدو المحاولات العديدة لوصف ظاهرة داعش على أنها شيء «آخر» مختلف تماماً خارج «عنا» مثل ذر الرماد في العيون والكبت. وعلى وجه الخصوص توضح التشابهات بين المجتمعات «الغربية» والضمير الجمعي المحسوس «نحن» من جهة، وبين داعش من جهة أخرى، لماذا انضم أيضاً شباب يأتون من وسط أوضاع مستقرة في مجتمعات الرخاء الأوروبية إلى هذه المنظمة الإرهابية. فخلال فترة قصيرة نسبيا ما بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٧ استطاع داعش خلق شعور بالانتماء ومجتمع خيالي وسط أناس مستعدين لتلقي هذا الشكل من الاندفاع والغلو والعنف والعدمية.

وقد نجح داعش بالأخص مع الشخصيات المضطربة نفسيا. ينتمي أيضاً كثير من إرهابي التفوق الأبيض، مثل منفذ هجوم هاناو، إلى هذا الوسط. وعوضاً عن أن نحط من شأنهم بوصفهم مضطربين نفسيا، ربما سيكون أذكى لو اعترفنا بأن هؤلاء الناس لديهم بالأخص قابلية لتلقي هذه الأفكار المتداولة والإيديولوجيات والأحكام المسبقة وخيالات العنف، ويواجهونها بحماية أقل من الشخصيات المتماسكة.

وهذا يعني أنهم جزء «منا»، ظاهرة من ظواهر المجتمع ككل، لأوهامه ورُهابه ومكوناته الإيديولوجية. وتقريباً يبدو أن داعش وقرينه الإرهابي اليميني الشعبي قد وجداً عبر الخداع الحاذق عبر الإنترنت وسيلة للاستحواذ فكرياً على الناس والتحكم فيهم لحد ما عن بعد. أو بعبارة أخرى، هدم وإزالة العتبة الفاصلة بين واقع افتراضي خيالي وأرض الحقائق.

نجح ذلك من خلال سياسة ذكية لاستخدام الصور: لم يخلق داعش بوحشيته الهائلة صوراً جديدة، وإنما «عرض» صوراً مختلقة بوصفها حقيقية، خيال متحقق: ألعاب تصويب المنظور الأول Egoshooter وأفلام الرعب وخيالات اللذة الجنسية وملاحم الأبطال. وحتى أبو بكر البغدادي الذي أعلنته داعش خليفة في الموصل كان يقلد بخطبه (الحقيقية) من المسجد الكبير في الموصل دور الخليفة في زيه وزينته، كما يظهر في المسلسلات والأفلام التاريخية العربية المبتذلة. وهذه المحاكاة انتصرت على الواقع ـ إنها ظاهرة أكدها الفيلسوف الفرنسي جان بودريار فيما يخص صور برجي التجارة العالميين (قارن ص١٠٢)، التي بدا أنها استُلهمت من أفلام كوارث مشهورة.

إن ظهور داعش منذ عام ٢٠١٥ قد أدى لشكل جديد من أشكال الإرهاب مع تأثير نفسي كارثي في أوروبا. إلى جانب الناس الذين

جندتهم داعش في أوروبا دون بذل أي مجهود تقريباً، تمكن أيضاً بعض مرتكبي العمليات الإرهابية الذين تلقوا تدريباً في المنطقة التي تسيطر عليها داعش من الدخول خلسة إلى أوروبا عبر طرق دخول اللاجئين. وتقريباً كان من الممكن تأويل أي عمل عنيف ينخرط فيه مسلمون، بأنه هجوم إرهابي، حتى لو لم يتضح وجود أي صلات واضحة مع مقر قيادة داعش في سوريا والعراق. كان يكفي أن يقوم الجناة من تلقاء أنفسهم بذكر داعش كمرجعية لهم، أو يخلفون آثاراً تدل على أنهم متعاطفون مع داعش.

وقع الاعتداء الدراماتيكي الأول في ٧ يناير ٢٠١٥ الذي كان عام الإرهاب الشنيع في فرنسا، عندما اقتحم جريدة «شارلي إبدو» الفرنسية الساخرة مهاجمان تلقيا تدريباً لدى القاعدة في اليمن. وقتلا عشرات الأشخاص ومن بينهم رسامون ومحررون من أسبوعية «شارلي إبدو» ورجال شرطة. وفي اليوم التالي قام مهاجم آخر قال إنه ينتمي لداعش باحتجاز رهائن في متجر يهودي وقتل خمسة أشخاص آخرين.

كانت الهجمات صادمة لأنه تم انتقاء الضحايا. لقد كانت اعتداءات سياسية، موجهة ضد الصحافة وحرية التعبير وضد اليهود في فرنسا. اكتسبت «شارلي إبدو» شهرتها من خلال استفزازات موجهة ضد مرجعيات كثيرة أخرى ومن بينها الإسلام. ومجدداً احتدم النقاش ـ مثلما حدث بعد هجمات أخرى في عام ٢٠٢٠ ـ حول ما يسمى بالرسوم الكاريكاتورية للنبي محمد، وطرح السؤال، إلى أي مدى يجوز أو يمكن تقديم الإسلام بشكل مهين. وكان ذلك النقاش لقمة سائغة لليمين الشعبوي ولكل الآخرين الذين كانوا يرون في الإسلام والمسلمين شيئاً مخيفاً.

في الثالث عشر من نوفمبر عام ٢٠١٥ وقعت في باريس أسوأ

الاعتداءات الإرهابية وأكثرها وحشية ونفذها تنظيم داعش في أوروبا. ولم يقتصر تنفيذها على استخدام الأحزمة الناسفة المعتادة (من بين الأهداف كانت مباراة كرة قدم بين ألمانيا وفرنسا، بحيث يمكن رؤية التفجير عبر البث التلفزيوني المباشر)، وإنما تم أيضاً إطلاق الرصاص باستخدام بنادق رشاشة على مقاهي وعلى حفل لموسيقى الروك في مسرح باتاكلان في باريس. قُتل ١٣٠ شخصا. وقد فاقت هذه العمليات، التي نفذها في المجمل تسعة إرهابيين، في تنظيمها ووحشيتها كل ما كان معتاداً من حيث الكم والكيف.

ولم تتوقف سلسلة الهجمات في فرنسا عند هذا الحد، ففي ١٤ يوليو/تموز ٢٠١٦، أي في يوم العيد الوطني الفرنسي قام إرهابي منفرد باستخدام شاحنة مستأجرة باقتحام كورنيش الشاطئ في مدينة نيس وقتل ٨٦ شخصاً وأصاب المئات. كانت السهولة التي يمكن بها ارتكاب جريمة قتل جماعي باستخدام وسيلة نقل عادية صادمة، وأدى ذلك لعدة محاولات لتقليدها، وإحدى هذه المحاولات كانت في برلين، حيث اقتحم التونسي أنيس العامري في ١٩ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٦ سوق عيد الميلاد الواقع عند محطة حديقة الحيوان بشاحنة وقتل ١٢ شخصا. وفي لندن وأماكن أخرى أيضاً وقعت عدة هجمات باستخدام سيارات.

ثم وقعت هجمات انتحارية أخرى في إسطنبول (١٢ يناير ٢٠١٦، ١٢ قتيلا) وفي مطار بروكسل (في ٢٢ مارس/أذار ٢٠١٦، ٣٥ قتيلا)، ثم استهدفت زوار حفل في مانشستر (٢٢ مايو/أيار ٢٠١٦، ٢٣ قتيلا)، وسياحا في إسطنبول وأربع كنائس في كولومبو في أحد الفصح عام ٢٠١٩ (٢٥٣ قتيلا)، وكذلك عدة اعتداءات «أصغر» ومحاولات اعتداء خلقت في أوروبا وجميع أنحاء العالم أجواء مروعة. وقد حفز ذلك الأجواء المعادية للسامية وحفز في آخر المطاف الإرهاب «الأبيض» المضاد، وأدى في فرنسا على وجه الخصوص إلى عسكرة الحياة

اليومية، إذ بدأت دوريات بجنود مدججين بالسلاح تتحرك في قلب المدينة وعند التقاطعات السياحية. حتى ١ نوفمبر/تشرين الثاني سرت في فرنسا حالة الطوارئ لمدة عامين.

محاكاة الحياة العادية

انعكس التدهور الجوهري للأجواء السياسية في صورة حركة «السترات الصفراء» الاحتجاجية في فرنسا، التي سرعان ما تغلغل فيها اليمينيون الشعبويون. وقد خدم هذا التدهور في الولايات المتحدة انتخاب ترامب في نوفمبر عام ٢٠١٦، وأسهم في ألمانيا في صعود حزب «البديل من أجل ألمانيا»، وما تبع ذلك من تهديد لقدرة المؤسسات المنفردة على العمل ـ مثلما كان حال السلطة التشريعية والتنفيذية في ولاية تورينغن بعد انتخاب رئيس وزراء الولاية بأصوات حزب البديل في الخامس من فبراير/شباط ٢٠٢٠، وكما كان الحال مع هيئة حماية الدستور والحكومة الائتلافية بين حزبي الاتحاد المسيحي والحزب الاشتراكي الديمقراطي بعد الأزمة التي تسبب فيها رئيس هيئة حماية الدستور هانس غيورغ ماسن عام ٢٠١٨ (قارن ص٢٠٦).

أسهمت الأجواء نفسها في بريطانيا في قرار خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي، أي البريكسيت، الذي كان العداء للأجانب من بين الأسباب التي استُخدمت للترويج له. يعد البريكسيت مثالا نموذجيا على تحالف غريب، يمكن العثور عليه كذلك في بلدان أخرى، وقد صبغ أيضاً سياسة ترامب: فمن ناحية يعد البريكسيت نتيجة وتعبيراً عما يزعمه اليمين الشعبوي من إنهاك العولمة. إنه يمثل سياسة الجناح اليميني القومي لحركة مناهضة العولمة المتشعبة. ومن ناحية أخرى فإن حكومة

المحافظين بزعامة رئيس الوزراء بوريس جونسون التي انتخبت من أجل تطبيق اتفاق البريكسيت ملتزمة لأقصى حد بالعولمة النيوليبرالية، وتأمل من خلال الخروج من الاتحاد الأوروبي في زيادة قدرتها التنافسية العالمية. من ناحية الاقتصاد السياسي، لا يمكن الجمع بين تياري تحالف البريكسيت. يكمن القاسم المشترك بينهما في العداء للاتحاد الأوروبي، الذي يبرز تقاطعات مع المشروع النيوليبرالي[1]. كان الاتحاد الأوروبي بالنسبة لليمينيين الشعبويين بين مؤيدي البريكسيت نيوليبرالياً ومؤيداً للعولمة *للغاية*.

وبغض النظر عن البريكسيت، ورغم الأجواء المتأزمة فقد أدركت كل المجتمعات الأورو-أطلسية تقريباً التطورات السلبية خلال العشرين عاماً التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بوصفها خللاً خطيراً، لكن هذا لم يؤد إلى تغيير فكري عميق وجذري. فلو أوقف المرء انتشار العوامل المسببة للخلل مثل الإرهاب والفكر اليميني الشعبوي، لأمكن بهذا القدر أو ذاك مواصلة العمل كما كان في السابق، حسب الرأي والتوقعات السائدة على نطاق واسع، والتي كانت تحدد أيضاً المسلك السياسي.

بحسب الأماني الشائعة، فإنه يمكن مع الزمن تعويض البريكسيت بمرور الوقت من خلال دمج البريطانيين على نحو مختلف في الشراكة الأورو-أطلسية، ولو لم ينتخب ترامب ثانية بعد انتهاء فترته الأولى في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٢٠، فسيكون من الممكن للولايات المتحدة الأمريكية أيضاً إعادة التحالف عبر الأطلسي إلى مسار عمله العادي. وسيكون من الممكن استمرار قدوم اللاجئين، ولكن مع تقييد

---

(١) حول مسألة موقف الاتحاد الأوروبي من النيوليبرالية قارن Ther ٢٠١٤، .u.a: ص٨٨ وما بعدها.

تدفقهم باستمرار، بقدر ما هو محتمل. وسيتم إدخال اللاجئين في دولاب العمل العادي للمجتمع، دون أن يلفتوا الانتباه. ستنتهي الحروب والانتفاضات في الشرق الأوسط، وتنقضي، إنها مسألة وقت. وبحسب الموقف الليبرالي، فإننا على أي حال في وضع أفضل مما كنا عليه منذ خمسين عاماً أو مئة، وقبل خمسمئة عام، وعلي أي حال أفضل مما كنا عليه في العصر الحجري، مثلما يدافع مؤيدو الاستمرار الأبدي على النهج نفسه دون كلل[١].

بعبارة أخرى: منذ عشرين عاماً يفعل الحادي عشر من سبتمبر/أيلول مفعوله، لكن آثاره وتأثيراته، مهما كانت سلبية، تعاش كجزء من الحياة اليومية وفي كثير من الأحيان لم تعد تُدرك بوصفها من آثار ١١ سبتمبر/أيلول. وليس من المعروف، أي قوة وأي مجهود ضائع قد كلف هذا التطبيع الزائف المصطنع الكاذب مع الحدث، ولا يزال يكلف. وقد أُزيحت كل الموضوعات والنقاشات والمشاكل المهمة الباقية من خلال ذلك إلى الهامش. وتقلص المجال المتاح من رؤى بديلة وتغير للنهج الاجتماعي. وطالما أن الإرهاب والحرب على الإرهاب يعطيان تأثير المحاكاة هذا، أي الوضع الطبيعي الزائف، فإنهما يتحالفان مع القوى التي تهيمن على الأوضاع الاجتماعية منذ فترة طويلة. ولا تهتم بالتغييرات، لأن التغييرات تمثل خطراً على وضعها المهيمن. إذن لقد فتح الإرهاب والحرب عليه الطريق أمام مجتمع عالمي إقطاعي جديد[٢]. وهذا المجتمع تغلب عليه الفوارق والهيراركيات وأشكال عدم المساواة.

وقد حان الوقت لتوديع هذه السياسة وإنهاء عصر ١١ سبتمبر/أيلول.

---

(١) Deaton ٢٠١٣.

(٢) Kotkin ٢٠٢٠.

خاتمة:

من الحادي عشر من سبتمبر
إلى إعادة التشغيل العالمي

أحداث غراوند زيرو

كان ١١ سبتمبر/ أيلول بالنسبة للسياسة الأمريكية والتحالف الأطلسي، أي «الغرب» ساعة صفر تشبه بالنسبة لألمانيا الاستسلام عام ١٩٤٥ أو سقوط جدار عام ١٩٨٩، أو بالنسبة للعالم العربي عام ١٩٦٧ والهزيمة أمام إسرائيل، أو عام ١٩٧٩ مع الثورة الإيرانية والثورات العربية عام ٢٠١١. في مثل هذه اللحظات يحدث تحول، ويتوجه الناس والسياسة نحو قطب جديد، إلى نقطة مرجعية جديدة. إن ١١ سبتمبر/ أيلول هو كما يقول الفيلسوف الفرنسي جان بودريار هو «حدث مطلق»[١]: حدث صفري الأساس Ground-Zero-Ereignis.

من الممكن للحدث الصفري الأساس أن يعني بداية جديدة راديكالية، تحولا حقيقيا؛ لكن أحياناً تعززه وتسرعه فقط توجهات، كانت موجودة من قبل على نحو محسوس. عندئذ تسير الأمور في الاتجاه نفسه كما في السابق، ولكن فقط على نحو أسرع بكثير. وفي نهاية المطاف يمكن أن تجرى محاولة لتجاهل الحدث بقدر الإمكان، والتقليل من شأنه أو التصرف وكأنه لا يتمتع بمعنى سياسي أعمق. وفي نهاية المطاف تتوقف نهاية الرحلة على الفاعلين، وعلى من يمسك بالدفة ويستطيع فرض رؤيته على الأحداث.

---

(١) Baudrillard ٢٠٠٢: ص ٩.

يصف الباحث في العلوم السياسية بن رودس Ben Rhodes وهو ديمقراطي وأصبح فيما بعد مستشاراً أمنياً في عهد أوباما لحظة الـ «غراوند زيرو» عام ٢٠٠١ كما يلي: «بعد عقد اتسم بغياب المهمات ذات المعنى، لدى أمريكا الآن تحد وطني، في مستوى الحرب الباردة. وهو يتمثل في الجهد الذي من شأنه أن يشغل جيلاً بأكمله لجعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية»[١].

يسود اتفاق يتجاوز كل الحدود بين الأحزاب بأن ١١ سبتمبر/أيلول كان يتطلب رد فعل. وكما يبدو من حديث رودس، فإن المؤسسة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية كانت ممتنة لكل الإمكانيات التي أتاحتها هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول لها. لذلك فقد أصبحت نقطة الانطلاق بنشاط كبير لسياسة إمبريالية تُمارس بلذة تقريباً من أجل «قرن أمريكي جديد». (قارن ص٩٤).

وفي هذه الانطلاقة لم يحدث تحول من النوع الذي تمت به الأحداث الأخرى صفرية الأساس المذكورة في البداية. بالأحرى لقد سُرعت فقط وتيرة سياسة كانت ملامحها مرسومة من قبل، وازدادت تطرفا. تكتب ناعومي كلاين Naomi Klein في كتابها «استراتيجية الصدمة»: «تغطي تعويذة «١١ سبتمبر/أيلول قد غير كل شيء» بأناقة على حقيقة مفادها أن شيئاً واحداً قد تغير بالنسبة لإيديولوجي السوق الحرة والشركات التي يعملون من أجلها: لقد أصبح الآن من الأسهل بشكل لافت تطبيق أهدافهم الطموحة»[٢].

هكذا تفسر الرد المتعجل دون تدبر على هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، وغياب التردد والتأمل. ولهذا السبب كان لنظريات المؤامرة بشأن ١١

---

(١) Rhodes ٢٠٢٠.

(٢) Klein ٢٠٠٧: ص ٥٣١.

سبتمبر/أيلول وقع مقنع: فالإرهاب كان مناسبا للغاية لمخطط السياسة الأمريكية السابقة ومثل لإدارة بوش فرصة ذهبية، كانت تنتظرها بفارغ الصبر. لكن عوضاً عن «جعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية»، كما يكتب بن رودس، أُزيحت الديمقراطية خلال الأعوام العشرين الماضية في أماكن عدة إلى الهامش وأصبحت في خطر. ومن منظور سياسة مستقبلية جيدة، فإن غراوند زيرو هو فرصة ضائعة. وكما يؤكد رودس: «قرب نهاية ولاية بوش [...] كان من الممكن تجاهل حقيقة أن رد فعل أمريكا على ١١ سبتمبر/أيلول قد تسبب في أضرار أكثر من تحقيقه لأشياء جيدة.» وقد فهم الأمريكيون ذلك أيضاً وانتخبوا في عام ٢٠٠٨ أول رئيس أمريكي من أصول أفرو-أمريكية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

الوباء الفائت

عندما تفشى فيروس كورونا في مختلف أنحاء العالم في ربيع عام ٢٠٢٠، رأى كثير من المراقبين أن عصر ١١ سبتمبر/أيلول قد انتهى وأن عصراً جديداً قد أتى[١]. لقد ذكر الوباء والإجراءات القاطعة التي اتخذت لوقف تفشيه، والحضور الكثيف والسلطوي للدولة والخسائر المادية، وبالأخص الوباء والموت، بأحداث ١١ سبتمبر. لقد أعلن حدث جديد صفري الأساس عن نفسه.

وبالفعل فهمت بعض الحكومات الأزمة على هذا النحو. وتشهد على ذلك بدايات لتضامن أوروبي داخلي أكبر، والعديد من إجراءات السياسة الاجتماعية ونهاية سياسة التقشف النيوليبرالية، أي نظام الميزانية الصارم، الذي صبغ أوروبا منذ إدخال اليورو وفرض قيوداً على إمكانيات

(١) Weidner ٢٠٢٠.

التخطيط الحكومية. كما بدا أن ثمة مجالا أكبر لإجراءات السياسة البيئية. أجل لقد بدا وكأن الوباء قد جاء لصالح السياسة الإيكولوجية. خلال الإغلاق خلت حواضر العالم الكبرى فجأة من العادم. وقد كتب مراسل من القاهرة: «لفيروس كورونا أحكام. أخضعت ثلاثة أشهر من الإغلاق بما في ذلك ١١ ساعة من حظر التجول الليلي القاهرة لعملية تنظيف عميق أكسبتها نضرة. الشوارع التي كانت في السابق مكتظة بالسيارات كثيرة النفير، أصبحت خالية. كان الهواء خالياً من العوادم وبدا وكأنه يبرق. فيض من السكون غمر الشوارع»[١].

وكما كان الحال مع ١١ سبتمبر/أيلول جلب التحول المفاجئ للعالم أيضاً مخاوف: حذر بعض من ثورة يسارية خضراء، بل وربما نباتية (فقد تبين أن مصانع اللحوم كانت بؤراً للوباء)؛ وخشي البعض الآخر من عودة الدولة المستبدة، أو من إلزامية التطعيم أو من نظم قمعية بيوسياسية (تفرض سلطتها على الحياة)، مثل الفيلسوف الإيطالي جورجو أغامبين Giorgio Agamben الذي عبر عن مخاوف مشابهة من ١١ سبتمبر/أيلول[٢].

كذلك انتعشت نظريات المؤامرة من جديد. وراحت المزاعم باتجاه أن ملياردیرات مثل بيل غيتس (مؤسس شركة ميكروسوفت) والنخبة العالمية ووسائل الإعلام التي يزعم أنها طوع أمرهم، قد حولوا بمبالغتهم وباء إنفلونزا خطير (في كل الأحوال) إلى مرض جديد. وتحت هذا الغطاء يمكن تبرير فرض أي قيود، وتنفيذ مشروعات سرية[٣]. لكن بالنسبة لهؤلاء الذين تعاملوا مع الفيروس بجدية، فكانت أمنيتهم هي

---

(١) Walsh ٢٠٢٠.

(٢) Agamben ٢٠٢٠، Agamben ٢٠٠٢.

(٣) Hackenbroch/Pitzke ٢٠٢٠.

العودة بأسرع قدر ممكن إلى الحياة العادية ـ ولم يكن المقصود عموما حياة عادية على وشك التشكل من جديد، وإنما العودة إلى زمن ما قبل الفيروس: «محاكاة الحياة العادية» التي كانت قائمة. (انظر ص٢٢٣).

صحيح أن وباء كورونا يعد من منظور موضوعي حدث صفري الأساس. لكن بقدر الإمكان لا ينبغي أن يكون كذلك. فبينما فهم كل الفاعلين الهجمات الإرهابية بوصفها مناسبة لانتهاج سياسة نشطة وفعالة، لا يوجد سوى قلة قليلة تدعي ذلك فيما يخص وباء كورونا. ويا حبذا لو تجاوز المرء أزمة الوباء خلال بيات شتوي. وفي ربيع ما بعد الوباء يتبنى اللقاح وظيفة آلة زمن، تعود بنا إلى عام ٢٠١٩ الذي لم ينقض قط.

كان للكاتبة والناشطة الهندية أروناتي روي، التي قرأنا عن رد فعلها المثير للجدل فيما يخص أحداث الحادي عشر من سبتمبر (قارن ص١٠٧)، رأي حاسم وبعيد عن التيار السائد فيما يخص وباء كورونا. إنها تلمح طابع التحول في الحدث: «تاريخيا أرغمت الأوبئة البشر على القطيعة مع الماضي وتصور عالم جديد. والحال كذلك مع هذا الوباء. فالوباء بوابة، معبر بين عالم وعالم آخر قادم»[١].

إن أي موقف أو سياسة لا تتعامل مع أزمة كورونا باعتبارها نقطة تحول، ترتكب خطأ يشرحه عالم الكوارث الفرنسي (باحث في انهيار المجتمعات الصناعية) بابلو سيرفين Pablo Servigne كما يلي: «يكمن الفخ في اعتبار هذه الأزمة أزمة صحية فحسب. إن لديها في الحقيقة أسباب وتأثيرات تتخطى ذلك بكثير: ومنها ما هو اقتصادي وإيكولوجي وسياسي ومادي. إنها أزمة عالمية شاملة»[٢]. ويكمل المفكر البريطاني جون غراي قائلاً: «إن الأزمة التي نعيشها حالياً، هي منعطف تاريخي.

---

(١) Roy ٢٠٢٠.

(٢) اقتباس من: Garric ٢٠٢٠.

لقد انقضى عصر ممارسات العولمة التي بلغت أوجها»[1]. وبالتأكيد تختلط في هذ التعليقات أيضاً الأماني مع التحليل. من المعروف أن روي وغراي من الكتاب ذوي التوجه الإيكولوجي. لكن غراي درَّس لفترة طويلة في كلية لندن للاقتصاد London School of Economics وكان هو نفسه في السابق نيوليبراليا عن قناعة[2].

كان التردد في الاعتراف بالوباء كأزمة موجوداً منذ البداية، وإليه تعزى مسؤولية تفشي الوباء عالميا. لقد بدأ الأمر بالرقابة الصينية على الأنباء الأولى عن الوباء، والعزل المتأخر جداً لمدينة ووهان، التي كانت أول مكان يتفشى فيه الفيروس، وانتهى بمعارضة الكثير من الحكومات لاتخاذ إجراءات عاجلة: إلى أن اكتظت المستشفيات وأصبح حفارو القبور في شغل شاغل، بحيث لم يعد إنكار الأمر ممكناً.

لم تكن الأحزاب والحكومات المحافظة واليمينية الشعبوية ترغب أو تستطيع تقبل طابع الحدث. ويرجع السبب في ذلك ببساطة إلى أن الوباء، وعلى عكس الإرهاب، لا يناسب نمط تفكير السياسة اليمينية (الشعبوية). فهذه السياسة لا «تخاطب» الوباء ولا تفهمه. إغلاق الحدود الوطنية كان هو الفعل السياسي الوحيد الذي وجد فيه الوباء والشعبوية قاسماً مشتركاً. وقد اتخذ هذا القرار كثيراً. وبغض النظر عن ذلك فقد أخفقت النماذج التي حددت السياسات بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول.

في عام ٢٠٢٠ فشل التكتيك الذي مورس بنجاح بعد ١١ سبتمبر/أيلول بجعل فئة معينة من الناس، وهم المسلمين، كبش فداء. ولم تنجح محاولات تحميل الصين مسؤولية نشر الفيروس، مهما كانت الإشارة إلى

---

(١) Grey ٢٠٢٠.

(٢) Horton ٢٠٠٦.

أصل الوباء مبررة. وأيضاً لم ينفع استخدام نمط الصديق ـ العدو الذي أصبح معتاداً في عصر ما بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، مع الفيروس.

كذلك لم يكن المجاز الحربي[١]، الذي كثر اللجوء إليه، مقنعا. لكنه كشف أشياء كثيرة عن عقلية الفاعلين السياسيين وما اتسموا به خلال عصر الإرهاب، وغياب الاستراتيجيات السياسة، التي لم تعد تهدف فجأة إلى المواجهة. ويتبين هذا من الأداء السياسي البائس للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وهما البلدان اللذان قادا حرب العراق. أنكر كل من بوريس جونسون ودونالد ترامب الوباء في البداية، وقللا من مخاطره[٢].

لم يتفاعلا مبدئيا على نحو حاسم، كما فعلت بلادهم في السابق في الحرب على الإرهاب[٣]. بالمقارنة مع ١١ سبتمبر/أيلول، بدا الأمر وكأن المرء يرى الإرهاب قادما ويتركه يحدث، لأن الإجراءات الدفاعية معقدة ومكلفة وغير مريحة. أو وكأن حكومة يسارية سلمية وصديقة للهجرة لن تتفاعل مع الإرهاب، لأن هذا لا يناسب تصورها عن العالم، أو أنها لا تريد مطلقاً استخدام وسائل عسكرية لأسباب تتعلق بالمبادئ. لقد اعتبر إنكار خطر الفيروس أكبر هزيمة لأجهزة المخابرات الأمريكية منذ ١١ سبتمبر/أيلول[٤]. لكن ربما تكون هذه «الهزيمة» أيضاً، أي التقليل من خطر الفيروس، متعمدة. وفي هذا الاتجاه يشير ما كشف عنه بوب وودورد Bob Woodward الذي أجرى مقابلة مع ترامب في بداية

---

(١) Weidner ٢٠٢٠.

(٢) Gorman ٢٠٢٠.

(٣) Shear ٢٠٢٠.

(٤) Zenko ٢٠٢٠.

أزمة كورونا. ووفقاً له فإن ترامب اعترف بأنه كان على دراية منذ البداية بمدى خطورة الفيروس، لكنه لم يرغب في اتخاذ أي إجراءات ضده[١].

كيف يمكن تفسير هذا التردد وهذا الرفض للتفاعل بحسم مع حدث مثل الوباء، حدث القرن؟ ما هو السبب في هذه الممانعة في اعتبار الوباء حدث صفري الأساس، *غراوند زيرو*، كساعة صفر لبداية جديدة؟ وبماذا يخبرنا ذلك عن الزمن والعالم الذي وضع الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ميسمه عليه؟

مخصر اسمه الحرية

كرد على الإرهاب لم يقتصر الأمر في العقدين التاليين على ١١ سبتمبر/أيلول على الحروب فحسب. لقد استمرت أيضاً ممارسة العولمة بحسم شديد، واستمر أيضاً التشبيك الاقتصادي والسياسي المالي وأخيراً أيضاً الاجتماعي والإعلامي. وبنظرة سطحية، فقد استمرت وتكثفت سياسة اتبعها رونالد ريغان في الولايات المتحدة الأمريكية ومارغريت ثاتشر في بريطانيا في الثمانينات وفي التسعينات من قبل حكومات ليبرالية واشتراكية ديمقراطية في غرب أوروبا (كلينتون وبلير وشرودر)[٢].

لم يكن من المفترض أن تمضي السياسة النيوليبرالية بعد ١١ سبتمبر/أيلول قدما بالتوسع الاقتصادي فحسب، بل كان يفترض أيضاً أن تسهم في زيادة قدرة الاقتصاد العالمي على مقاومة الإرهاب والعوامل المشوشة الأخرى[٣]: كلما كان الاقتصاد العالمي في ظل القيادة الأمريكية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدولار الأمريكي كعملة رئيسية، سيكون من الصعب على الدول المنفردة أو الفاعلين الخروج على هذا النظام، أو تغييره أو هدمه

---

(١) Woodward ٢٠٢٠.

(٢) Ther ٢٠١٤: الفصل الرابع.

(٣) Brunner ٢٠١٤: ص ٢٤٢.

وتأسيس نظام جديد، كالاشتراكية مثلاً أو الإسلام السياسي أو الفاشية الجديدة.

يعود تاريخ فكرة جعل الاقتصاد مقاوما للأزمات عبر قواعد وتشبيكات عبر وطنية، وحمايته من الهجمات العشوائية، إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. مع نهاية الإمبراطوريات الكبيرة وتفتت أوروبا إلى عدة دول وطنية صغيرة، نشأت حدود جمركية عديدة وتوقفت تجارة العصر الإمبريالي الحرة[١]. وفي العقود التالية وقعت عمليات معطلة مشابهة في إطار التخلص من الاستعمار، عندما نشأت كذلك دول جديدة. وقد تبين أن تطور هذه الدول الجديدة لم يكن في الحسبان، كما كان الأمر في أوروبا من قبل. كانت ثمة ثورات وانقلابات، وتدخلات من الخارج، ولكن أيضاً تغييرات حكومية ديمقراطية بعواقب غير مرغوبة ـ وأكثر الأمثلة إفزاعا كان انزلاق ألمانيا إلى الحكم النازي.

ومن أجل ممارسة علاقات اقتصادية، كتلك التي اعتاد المرء على ممارستها في عصر الإمبراطوريات والمستعمرات، في عالم قائم على أساس الدول القومية، كان ثمة احتياج لاتفاقات وبنى دولية لتحصين الاقتصاد ورأس المال وعلاقات الملكية من التدخلات والاضطرابات ذات الوازع السياسي. واللافت أن رواد الفكر النيوليبرالي ينحدرون في كثير من الأحيان من إمبراطورية النمسا والمجر سابقا، مثل فريدريش أوغست فون هايك Freidrich August von Hayek ولودفيج فون ميزيس Ludwig von Mises وكارل بولاني Karl Polanyi. إن انهيار امبراطورية النمسا والمجر، كان هو صدمة الميلاد التي أسسوا عليها نظريتهم. لقد اجتمعوا عام ١٩٣٨ مع مفكرين ليبراليين ـ محافظين في مؤتمر شهير في باريس، كان يطلق عليه «منتدى فالتر ليبمان Walter- Lippmann-Symposium»[٢].

---

(١) Slobodian ٢٠١٨: ص ٥؛ Cockett ١٩٩٤.

(٢) Reinhoudt ٢٠١٨؛ Lippmann ٢٠١٨.

يكتب المؤرخ الاقتصادي الكندي كوين سلوبوديان Quinn Slobodian: «ركز المشروع النيوليبرالي على تصميم مؤسسات ـ ليس من أجل تحرير الأسواق وإنما من أجل إحكام القبضة عليها، من أجل تحصين الرأسمالية ضد خطر الديمقراطية. من أجل تحجيم السلوك العقلاني البشري، وبعد انهيار الإمبراطوريات خلق العالم من جديد كفضاء واحد، تؤدي فيه الحدود وظيفة ذات مغزى»[١].

إذن ثمة علاقة ضدية ومتوترة قديمة بين النيوليبرالية والديمقراطية. لا تثق النيوليبرالية في الديمقراطية، وتعتبرها «تهديداً» مثلما يكتب سلوبوديان، وتريد أن تضعها في مخصر. ففي أيام منتدى فالتر ليبمان عام ١٩٣٨، وهو عام ضم النمسا إلى ألمانيا وفي أوج حكم ستالين، قد يكون هذا التفسير للديمقراطية باعتبارها «تهديداً» مقنعاً. لكنه يبدو اليوم غريباً، ولا يزال مع ذلك قائماً، مثلما سنرى.

لقد ترك الموقف المتشكك للنيوليبرالية (التي كانت الصيغة الألمانية منها هي الليبرالية المعتمدة على الدولة والتي تسمى أيضاً بـ«الليبرالية المنظمة Ordoliberalismus») تجاه الديمقراطية بصمته أيضاً على الاتحاد الأوروبي، فطابعه التكنوقراطي لم يكن سهوا أو خطأ في التصميم. فعليه بالأحرى ضمان أن يكون أهلاً لمهمته: توفير السلام والاستقرار والنمو، من خلال تقليل مجال الحركة مؤسساتيا لسياسة غير محسوبة العواقب[٢]. وبذلك يتقلص مجال الحركة للديمقراطية. وقد استُبدلت في قطاعات واسعة بالبيروقراطية والتكنوقراطية[٣].

---

(١) Slobodian ٢٠١٨: ص ٢ وأيضاً ص ٤.

(٢) Cercas ٢٠٢٠.

(٣) Storey ٢٠١٩.

«على المرء أن يحمي الديمقراطية من نفسها»[1] إنها جملة شهيرة لفريدريش هايك بهذا الخصوص. وهي مقولة ملتبسة: بالطبع يمكن لقرارات ديمقراطية أن تجعل استقرار ورشاد المجتمعات في خطر. وقد أظهر البريكسيت، الذي تم بفعل ديمقراطي، أن الديمقراطية مزاجية وقابلة للتلاعب بها. لكن ألا يضر نقص الشرعية الديمقراطية، كما يظهر في حالة الاتحاد الأوروبي، النظام ومؤسساته وبالأخص الاتحاد الأوروبي نفسه: وتحديداً عندما يشعر الناس أنهم غير ممثلون ويحتجون على نقص الشرعية الديمقراطية.

وبقدر ما يمكن للمرء أن يوجه من انتقادات للنظام الاقتصادي النيوليبرالي، فإن الاقتصاد العالمي وخصوصاً أسواق رأس المال، قد أظهر أنه مقاوم للأزمات السياسية على نحو مذهل. وحتى هجمات ١١ سبتمبر/أيلول لم تترك عليه سوى تأثيرات محدودة[2]، رغم استهداف المركز المالي للولايات المتحدة بشكل مباشر. ولم يتحول الانهيار في التجارة العالمية وأسواق الأسهم في ربيع عام ٢٠٢٠ إلى دوامة مستمرة في الهبوط نحو القاع. قُضي على كثير من الوظائف، لكن نظام اقتصاد السوق العالمي في حد ذاته ظل متماسكا، بل عوضت مؤشرات البورصات انهياراتها الأولية.

وهذا يوضح لماذا أصبحت الحروب الكبيرة بين الدول نادرة. فالنخبة المتشابكة دولياً التي تدير التجارة مع بعضها البعض تعتبر الحروب مكلفة. وعلى هذا الأساس يسهل للفنانين والمثقفين أن يدعموا التبادل الثقافي والتسامح والدعوة لخفض التصعيد والسلام. وهم بذلك يشتركون

---

(١) Hayek ١٩٩٣، Vol. ٣: ص ١٥٠، فصل بعنوان («إسقاط السياسة عن عرشها») «The Dethronement of Politics».

(٢) Morgan ٢٠٠٩.

في الأهداف مع النخب الاقتصادية، سواء رغبوا في ذلك أم لا، وحتى لو كان موقفهم السلمي بعد ١١ سبتمبر/أيلول قد أثار أيضاً غضب الشعبويين. وحيث أن الحرب قد أصبحت غير جذابة، فإن النظام العالمي القائم على اقتصاد حر يسجل بذلك تقدما حضاريا حقيقيا. لكن ثمة وجه آخر لممارسات الاقتصاد الليبرالي وللخطاب السلمي الثقافي الخاص بها. وقد كان كارل شميت الذي يعد من أكثر المنتقدين للهيمنة الليبرالية على دراية بها: «ما هو غير حربي جوهرياً وتحديداً من جوهر الأيديولوجية الليبرالية، هو المصطلح فحسب. بالطبع ستسعى الإمبريالية القائمة على أساس اقتصادي لاستحضار وضع للأرض، تستطيع فيه دون قيد استخدام وسائل النفوذ الاقتصادي، من منع للقروض أو منع لتوريد المواد الخام أو تدمير العملة الأجنبية وما إلى ذلك وأن تواصل تقدمها بهذه الوسائل»[١].

وبالنيابة عن الحروب الكبيرة التي لم يعد خوضها ذا مغزى، تتكاثر النزاعات الأصغر، والحروب بالوكالة وحروب العصابات وحروب الإرهاب، وحروب الطائرات المسيرة وحروب المرتزقة والحروب الأهلية، خصوصاً في المناطق التي تعد من الناحية الاقتصادية غير «ذات صلة بالنظام». كسوريا مثلاً، ولكن أيضاً أفغانستان وكثير من الدول الأفريقية. والتأثيرات السلبية لمثل هذه النزاعات يبقى محدوداً بفضل بنية الاقتصاد العالمي القادرة على المقاومة، كما أسلفنا. لم تعد الحروب الكبيرة مجدية، لكن ربما تكون الجدوى من الحروب الصغيرة. والخاسرة هي مجدداً دول «الجنوب العالمي» الأكثر فقراً.

وتعزز التطورات التكنولوجيا والإعلامية، التي واكبت أحدث موجة عولمة منذ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، مقاومة الاقتصاد حتى في

---

(١) Schmitt ١٩٦٣ : ص ٧٧.

حالة الكوارث التي لا تعزى إلى البشر. لقد جعلتنا قادرين على التخفيف من قيود وباء كورونا: فقد جعلت مؤتمرات الفيديو العمل من المنزل ممكناً، وأتاحت الحلقات الدراسية عبر الويب إمكانية الدراسة في الخارج، حتى لو لم يعد مسموحا بالسفر، واستمرت الدراسة في المدارس عبر الإنترنت وكذلك دورات اليوغا.

ومن استفاد من التحديثات والإمكانيات التقنية، كان يعد من أصحاب الامتيازات. كان المرء يعيش في محيط آمن ويواصل كسب المال، دون أن يخاطر بشيء، على عكس الموظفين في مجال الخدمات، والأطباء والطبيبات والقوى العاملة في مجال التمريض والرعاية وتوصيل الطرود، والعمال في الحصاد أو مصانع اللحوم. وعلى عكس معظم الناس في الدول الفقيرة، الذين لم يكن في مقدرتهم تحمل كلفة الإغلاق، وكانوا يفضلون التعرض للمخاطر الصحية على ألا يعملوا. ومن الممكن أن يكون عدد من سيموتون جوعاً بعد الوباء أكبر من عدد من سيموتون بالفيروس[1].

لقد وقع ما تنبأ به أولريش بيك فيما يخص «مجتمع المخاطرة» وحادث تشرنوبل النووي عام ١٩٨٦ من «نهاية كل إمكانيات تباعدنا المتأنقة»[2]، ولكن فقط بشكل محدود. كلما كان المرء أغنى، كان

---

(1) https://www.nytimes.com/2020/09/11/business/covid-hunger-food-insecurity.html.

(٢) Beck ١٩٨٦: ص ٧.

موقف بيك في هذه المسألة متأرجح. ففي حين أنه يعترف بأن الفقر يجعل الناس أكثر عرضة للمخاطر البيئية (المصدر ذاته: ص ٤٦ وما تلاها/ «مخاطر خاصة بالطبقات»، ص٥٤ والصفحات التالية عليها، «عدم مساواة عالمية جديدة») يصر في الوقت ذاته على أن «أوضاع المخاطر ليست أوضاعاً طبقية» (ص ٥٢). «الضباب الدخاني ديمقراطي» (ص٤٨). للأسف فإن هذا لم يعد صحيحا بعد ٣٥ عاما. لقد أصبحت القدرة على تجنب=

محميا أكثر حتى فيما يخص الكوارث البيئية والأوبئة. وهذا للأسف ليس عزاء وإنما يزيد من الأخطار في المستقبل. لأن هذا يؤدي إلى جعل كثير من البشر على استعداد لتقبل مثل هذه المخاطر ـ مع العلم أو مع توقعهم بأن لديهم وسائل كافية لتجاوزها. إنهم في أغلب الأحيان البشر أنفسهم الذين يتمتعون بنفوذ سياسي واقتصادي أكبر من الآخرين.

تصيب كل مخاطرة وكل أزمة، وكل محاولة تحكم في النظام القائم، أولا وبأقصى عنف الآخرين الأضعف. وبهذا يتحول التغيير إلى خطر، بالذات لهؤلاء الناس الذين لديهم أكبر اهتمام للتحول إلى الأفضل. وكان لهذا تأثيرات مأساوية على الحركات الاحتجاجية والإصلاحية. والثورة في مصر مثال على ذلك: فالرغبة في الحرية والكرامة والعدالة شلت قطاع السياحة وتسببت في تراجعات ملموسة في مداخيل الطبقة الوسطى والدنيا. وفقد الجنيه المصري الكثير من قيمته. وبسبب ذلك عانت مجدداً وبالأخص الطبقة الوسطى التي خرجت للاحتجاج، في حين ظلت ثروات كبيرة، استثمرت في أسهم أو عقارات أو أُودعت في حسابات بالدولار، مستقرة. ومن دون أن يضطر أي فاعل سياسي لاتخاذ أي قرارات، كان هؤلاء الذين أطلقوا الثورة وتحملوا مسؤوليتها هم من تضرر من دينامية الأحداث. وفي عام ٢٠٢١، نجد أن حال المصريين ووضع حقوق الإنسان في بلادهم أسوأ مما قبل الثورة. إنه مثال مفزع لكل من يرغب في الاحتجاج في موقف مشابه.

وهذا مطابق للسيناريو، حسبما يكتب كوين سلوبوديان: «في الرؤية

=المخاطر سمة تميز جديدة. فالشخص الغني الذي يسكن في الجبل الواقع شمال طهران يتربع على عرشه فوق الضباب الدخاني، حيث ينظر إليه من عل، وسكان دلهي الموسرين يركبون أجهزة لفلترة الهواء، يشترونها من متاجر التسوق الكبرى الغالية، حيث يمكن للمرء أن يتجول في مكان خال من الضباب الدخاني والحرارة.

النيوليبرالية لنظام عالمي يمارس الاقتصاد على كل أمة بمفردها وظيفة الضبط والربط. وهذا يحدث من خلال التهديد المستمر بأزمة ما، ومن خلال هروب رأس المال الاستثماري، الذي يضرب التوسع في السياسات الاجتماعية، ومن خلال هجمات المضاربين على العملات، عندما تقوم الحكومات برفع نفقاتها»[1]. يجب أن نضيف أن الأمر لا يقتصر على الاقتصاد العالمي وحده، وإنما تسعى الأنظمة المستبدة أيضاً لإلحاق الضرر بمن تمردوا عليها. وفي هذه الحالة أو تلك تختبئ وراء ذلك سياسة مقبولة رغم مخاطرها، إن لم تكن متعمدة.

ينتج «التهديد المستمر بأزمة» العالق في الجو، في حالة اندلاع ثورات أو حروب أو ظهور سياسات إصلاحية اجتماعية وتحررية جديدة، التأثير المعادي للإصلاح ذاته، وإن لم يكن في صورة سياسة جديدة، وإنما في صورة فيروس جديد يهدد النظام الاقتصادي العالمي بأسره. وهذا يوضح تردد كثير من الحكومات في الاعتراف بالوباء كأزمة، كما يوضح أيضاً صعوبة تجاوز الإجراءات قصيرة المدى لوقف الوباء وإدراكه باعتباره نقطة تحول والاستفادة منه لتغيير النهج.

إنه التأثير نفسه، ودوره الفعال في سياسة المناخ. وهو يفسر لماذا تتصرف الحكومات المنفتحة على حماية المناخ أيضاً بتردد. وكما لم تعد الحرب والعزلة والاشتراكية والحمائية مجدية، لا تفيد أيضاً المبادرات التي تسعى لتقييد التجارة العالمية وإفشالها، كالمبادرات الإيكولوجية الاجتماعية وتلك المختصة بقانون العمل. وينطبق ذلك على سياقات غير متوقعة للغاية: ففي حين يظن المرء مثلاً أن الطبيعة والحيوانات البرية ومناطق المحميات الطبيعية في أفريقيا ستستفيد من غياب سياح السافاري المرتبط بفيروس كورونا، لكن هذا الغياب يعرضها في الحقيقة للخطر،

---

(١) Slobodian ٢٠١٨: ص ٢٧٠ وما تلاها.

بسبب نقص الأموال المخصصة للعناية بالمحميات ولأن الأمر سيكون أسهل للصيادين المخالفين[١].

وبتعبير تهكمي، فقد أصبح الحفاظ على الكوكب ومعاملة الناس بقدر ما بمساواة وعدالة وحمايتهم من الأمراض والكوارث ببساطة أمراً مكلفاً جداً. أليس من المزعج أن نتخلى مجدداً عن الكثير مما بنيناه «لأنفسنا»، أن نقتسمه أو نتنازل عنه مثلاً من أجل حماية المناخ أو لدعم نظام صحي غير تجاري؟ صحيح أنه من أجل مكافحة الإرهاب لا تنعدم وسيلة ولا يُخشى أحد. لكن كما يبدو، فإن علينا أن نخسر الكثير من أجل إنقاذ الكوكب بالجدية المطلوبة.

يصيغ بيرند شيرر Bernd Scherer المدير السابق لبيت ثقافات العالم HKW الذي قدم مجهوداً كبيراً في فهم عصر الأنثروبوسين، أي الحقبة التي يعود تاريخها إلى بداية التأثير البشري على الأرض، هذا الإدراك بعبارة أخرى: «هكذا خلقنا نحن البشر في الماضي بُنى تهدم مستقبلنا. وبهذا المعنى فإن متجه الزمن قد انقلب: المستقبل وراءنا والماضي أمامنا. ومن طبيعة العلاقة الديالكتيكية للعمليات الأنثروبوسينية، أن تنطلق أيضاً بوعد بمستقبل أفضل»[٢].

لكن هذا يجب ألا يكون سببا للاستسلام. فلا يزال ما قاله الاقتصادي والباحث في علوم الثقافة فالتر أوتش Walter Ötsch ساريا: «في عصر الأنثروبوسين يقهر واقع الغلاف الحيوي العوالم المتخيلة ما بعد الديمقراطية اليمينية الشعبوية المعتمدة على أصولية السوق»[٣]. وهو ما يجعلنا في الحال نتمنى أن الكوكب، أو الغلاف الحيوي يتبع منطقه الخاص وأنه لا محالة أقوى من منطق صنعه الإنسان أو صممه أو تخيله.

---

(١) Bearak ٢٠٢٠.

(٢) Scherer ٢٠٢٠.

(٣) Lippmann ٢٠١٨: «Einleitung» أي «تمهيد».

إن السرعة المضطردة للعولمة منذ عصر ١١ سبتمبر/أيلول قد لقحت البشرية ضد المرض الخطأ، وزودتها بالأجسام المضادة الخاطئة. وما حمى السوق من لا عقلانية السياسة والديكتاتورية والإرهاب والديمقراطية الخارجة عن مسارها، ينسف اليوم عقلانية الديمقراطية: ينسف سياسة تعد قائمة على توازن إيكولوجي واجتماعي واقتصادي، ونهاية «المجتمع المعتمد في إنفاقه على الخارج» الذي يقود بحسب عالم الاجتماع شتيفان ليسنيش Stephan Lessenich إلى أن معظم البشر في البلدان الصناعية الرائدة لا تعيش فقط فوق مستواها، وإنما «فوق الآخرين»، أي البشر في الجنوب العالمي[١].

الحرث في البحر: العمل على التغيير والديمقراطية

فلنكن واعين بأننا نتعرف على هيكل عالمي، وعلى نظام اقتصادي مجهز لأن يتلقف التغييرات سواء كانت سلبية أم إيجابية ويمتصها. لكن الاستقرار المذهل للنظام بأكمله له كلفة باهظة: كل تغيير يعزز عدم التوازن القائم بأي حال ويفاقم الظلم الموجود. صحيح أنه يمكن للخسائر أن تصيب الجميع، مثلما هي الحال في أزمة كورونا، لكنها تصيب الأضعف من البشر على أسرع وأقسى نحو، في حين يستفيد الأغنياء وأصحاب النفوذ جزئيا من الأزمة، مثل استفادة شركة أمازون للتجارة عبر البريد من الإغلاق، أو استفادة شركات الأدوية، التي تطور لقاحات مضادة للفيروس، وهؤلاء الذين يمتلكون أسهما في هذه الشركات.

ولأن النظام لن يتغير إيجابياً لصالح أغلبية البشر والنظام البيئي، فإنه يستثير مقاومة واحتجاجاً ـ وعن حق. في الوقت ذاته، فمن النادر أن

---

(١) Lessenich ٢٠١٦.

يكون هؤلاء الذين يمثلون هذا النظام ويدافعون عنه وينتفعون منه على استعداد للاعتراف بأحقية الاحتجاج والمقاومة، أي الاعتراف بالرغبة في التغيير وقبولها، كما لاحظ كارل شميت ذلك عام ١٩٣٢. فقد كتب موجها هجومه على الليبرالية الاقتصادية قائلاً: «لا بد لحكم للبشر قائم على أساس اقتصادي، وخصوصاً إن ظل غير سياسي، من خلال تخليه عن أي مسؤولية ورؤية سياسية، أن يبدو كخداع مريع [...]. وإذا ما دافع المستغلون والمقموعون في هذا الوضع عن أنفسهم، فإنهم لن يستطيعوا بالطبع القيام بذلك بوسائل اقتصادية. ومن الطبيعي كذلك أن يعتبر أصحاب النفوذ الاقتصادي كل محاولة لتغيير وضع نفوذهم «من خارج الاقتصاد» عنفاً ويسعون لمنعه[١].

وقد جعلت سياسة ما بعد ١١ سبتمبر/أيلول هذه التطورات غير قابلة للرجوع فيها تقريباً. لقد استمرت في زيادة التدخلات الاقتصادية، وفي الوقت ذاته توسعت في مجال الرد العسكري البوليسي والسياسي الأمني على المعارضة والاحتجاج والمقاومة، في أمريكا مثلاً في صورة قانون الوطنية، الذي أصبح من خلاله ممكناً في نهاية المطاف اعتبار التعذيب أمراً مشروعاً[٢]. وهكذا فقد نشأت في أعقاب ١١ سبتمبر/أيلول «نيوليبرالية مستبدة»، مثلما يُطلق عليها في البحث الأكاديمي[٣]. تتشابه الدول الحرة ظاهريا من ناحية، والدول الاستبدادية من ناحية أخرى، خلال هذه العملية، ويستخدمون الوسائل نفسها، إنها تتلاقى.

ونظراً لأن الاحتجاج لا يكاد يجد في ظل هذه الظروف مساحات ملائمة للهجوم ويجلب معه مخاطر كثيرة (الاحتقار الاجتماعي،

(١) Schmitt ١٩٦٣: ص ٧٦.
(٢) Binder ٢٠١٣: ص ٢٧٤ والصفحات التالية عليها.
(٣) Tansel ٢٠١٧.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الاعتقالات، الإدانة، وعنف الشرطة أو ما هو أسوأ)، يتحول ـ على نحو مفهوم ـ إلى سخط. وهذا السخط يعبر عن نفسه في صورة أيديولوجيات تمتد من نقد العولمة لتصل إلى العداء للحداثة وللتنوير. وهو يعبّر عن نفسه في صورة التطرف الإسلامي في العالم العربي أو في صورة شعبوية ودوغمائية وقومية وعنصرية في الفضاء الأورو-أطلسي. إنه يعبر عن نفسه في غضب وفي التحول للتطرف، والتخريب والإرهاب.

صحيح أن الشعبوية اليمينية قد حققت نجاحات، خصوصاً أيضاً كحركة *مناهضة* للعولمة، كاستعادة لما هو صغير ومحلي، للممتلكات السابقة ـ وهو توجه يربطها باليسار المنتقد للعولمة، وهو في حد ذاته توجه لا يعد بأي حال من الأحوال معيبا. لكن في الوقت ذاته يرفض الشعبويون اليمينيون أي فهم لتطور البنية الاقتصادية، التي تشعل غضبهم وتجعله هائلاً. ففي ظل الخطابة الشعبوية، وتحت غطائها («من خلال تخليها عن أي مسؤولية ورؤية سياسية»[1] يتم المضي قدما في أجندة العولمة النيوليبرالية، أيضاً على يد سياسيين شعبويين، ولكن فقط على نحو أكثر قسوة بكثير.

يتبع الرئيس الفرنسي ماكرون، وهو مؤيد علني للعولمة وكوزموبوليتي ونيوليبرالي، وترامب، وهو قومي مُعلن ويمثل أجندة شعبوية وحمائية، السياسة نفسها في نهاية المطاف، حسبما يذكر الباحث الاقتصادي الفرنسي توماس بيكيتي Thomas Piketty. إذ ينعقد تحالف غير مقدس بين الشعبوية والنيوليبرالية: «في نهاية المطاف دخلت كلا الأيدولوجيتين رهاناً على أنه لا بديل عن الإعفاءات الضريبية لصالح الأغنياء، وأن المجال الوحيد الباقي للاختلافات السياسية هو الانقسام بين أصحاب النزعة الدولية والقومية»[2].

---

(١) Schmitt ١٩٦٣: ص ٧٦.

(٢) Piketty ٢٠١٩: ص ١١٣٠.

في الجانب الأيسر من الطيف السياسي توجد تحجرات أيديولوجية شبيهة ومناطق مبهمة. وهي ناتجة عن خبرات الإحباط التي يجهزها لهم النظام. فاحتجاجات «احتلوا وول ستريت» لم تكن ناجحة. ولا يزال بمقدور العالم المالي، وبمقدور وكالات التصنيف الائتماني ابتزاز دول بأكملها وإخضاع مثل هذه السياسية الملائمة لليسار. يواجه أي تغيير وفقاً للمسار الديمقراطي إعاقة في مهده، مثلاً عندما يرغب السناتور اليساري الليبرالي بيرني ساندرس في الترشح الانتخابات الرئاسية الأمريكية. وتبعا لذلك تشهد كل المجالات الاجتماعية التي لا يزال يهيمن عليها فاعلون تقدميون، مثل الجامعات، تطرفاً في الصوابية السياسية في نطاق السياسة المصغر وقواعد الكلام، وتضييقاً لما يمكن قوله وتصوراً منغلقاً للعالم. وتستثني هذه الأخلاقية الحاسمة التي تقف وراء ذلك نفسها، وعلى نحو متناقض، مثل انعكاس في المرآة للسلفية، التي تعرف نفسها من خلال الإشارات الرمزية والقواعد اللغوية والمحرمات الشائعة والمعتقدات الدوغمائية الضيقة لأقصى حد.

كل هذه الأمور هي أعراض، مثلما كان الإرهاب أيضاً. وهي تنشأ من المحاولات الفاشلة لتطبيق التغييرات، التي تم إدراك أنها ضرورية أو صائبة: ضد القوى المعطلة للنظام الاقتصادي العالمي أو ضد الأنظمة القمعية، التي ليس لديها في نهاية المطاف خيار سوى اللجوء للعنف المسلح لإنقاذ نفسها.

يعتقد المتفائلون في أن الطريق لا يزال مفتوحا أمام التغيير عبر مؤسسات الدولة والمسار الديمقراطي كما كان من قبل، كالاقتصادية والباحثة في سياسات التحول مايا غوبل Maja Göpel[1]. لا شك أن هذا سيكون الطريق الأفضل للتغييرات، بعيداً عن الكلفة الباهظة

(١) تقدم مايا غوبل أفكاراً حول ذلك: Maja Göpel ٢٠١٦ و٢٠٢٠.

والاضطرابات، التي يجلبها كل تغيير في البنية على المدى الطويل أو المتوسط. وتدعونا الخبرات السابقة مع ذلك للتشكك، فيما إذا كان من الممكن الوصول عبر الطريق المؤسساتي من داخل النظام للقدر الضروري من التحول.

من ناحية فإن القوى الديمقراطية في تراجع في كل أنحاء العالم. ومن ناحية أخرى فإن هدم الديمقراطية، حتى في تلك الأماكن التي ترسخت فيها ليس بصدفة وإنما وفقاً لسياسة مقصودة. يلخص المؤرخ الاقتصادي فيليب ميروفسكي Philip Mirowski الإجماع في الأوساط النيوليبرالية على النحو التالي: «يذهب الرأي المتوافق عليه إلى أنه لا ينبغي حقاً ترك الديمقراطية في حد ذاتها تسقط، لكنها مع ذلك تمثل بطبيعتها خطراً على ما يعتبرونه حرية اقتصادية، أجل أي أن الديمقراطية تتضمن نزوعا نحو الشمولية»[1].

وعلى هذا الإجماع تستند أيضاً «اللجنة الثلاثية الأطراف («Trilateral Commission») التي تأسست في بداية السبعينيات. وقد كان عنوان تقريرها الأول «أزمة الديمقراطية» «The Crisis of Democracy». والعنوان يعد فعلياً بالنسبة للخطاب النيوليبرالي قلبا تقليديا للمعاني «spin» فهو يفترض أن المؤلفون قلقون على الديمقراطية، على غرار الحديث عن أزمة اقتصادية، عندما يحدث جمود أو انهيار في الأداء الاقتصادي. أما فيما يخص «أزمة الديمقراطية» هذه، فالعكس تماماً هو الصحيح. يدعي مؤلفو التقرير أن «الغرب»، وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية، في الستينيات والسبعينيات قد *عانى* من الكثير من الديمقراطية. لذلك لا بد من تقليص الديمقراطية. وقد ورد في التقرير بصراحة مطلقة: «إن حيوية

---

(١) Mirowski ٢٠١٩: ص ٢١١.

الديمقراطية في الستينات قد أثارت الشكوك في السبعينيات بشأن إمكانية حكم الديمقراطيات»[١].

إن الولايات المتحدة الأمريكية و«الغرب» واقعان في أزمة كبرى لأن النخب المحافظة والليبرالية لديها مشكلة ملموسة مع الديمقراطية المعاشة، ومع المساواة في الفرص وعدالة التوزيع اللذين لا غنى عنهما للديمقراطية. ومن المثير للاهتمام أن ذلك قد حدث تحديداً منذ الوقت الذي بدأت فيه المواطنات والمواطنون، بغض النظر من أي طبقة أو لون أو دين، في منتصف الستينيات في التعامل بجدية مع الديمقراطية ووعودها وفي المطالبة بحقوقهم، مثل الأمريكيين من أصول أفريقية بزعامة مارتن لوثر كينغ ومالكولم إكس وكثيرين آخرين[٢].

وعوضاً عن التعامل مع هذه الحركات بجدية، هوجمت «حيوية الديمقراطية» هجوما متعمدا. والنتيجة: بعد ذلك بخمسين عاماً تكافح حركة «حياة السود مهمة» ضد العنصرية المميتة نفسها. كان لـ«إمكانية حكم الديمقراطيات» الذي أرادت «اللجنة الثلاثية» الموجودة لحد الآن الحفاظ عليه، ثمن مخيف. وفي الأثناء أصبح من المسموح طرح السؤال إذا ما كان ثمن «إمكانية حكم الديكتاتوريات» يختلف اختلافاً جذرياً. تعرف الباحثة الأمريكية في علم الاجتماع الاقتصادي ساسكيا ساسن Saskia Sassen أن: «عدد المساجين في الولايات المتحدة قد ازداد خلال الأربعين عاماً الماضية بنسبة ٦٠٠ في المئة. ويشكل ٢,٣ مليون شخص مسجونون في الولايات المتحدة ٢٥ في المئة من إجمالي المساجين في كل أنحاء العالم، وبذلك يكون لدى الولايات المتحدة من بين كل دول العالم أكبر عدد من المساجين»[٣].

---

(١) Crozier ١٩٧٥.

(٢) Alexander ٢٠٢٠.

(٣) Sassen ٢٠١٥. ص ٧٨.

وبعبارة أخرى، وبخلاف ما نُخاطب به نحن المواطنات والمواطنين في الديمقراطيات الليبرالية «الغربية»، وبخلاف أيضاً ما نود «نحن»، طالما أننا نعيش في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية، أن نظنه عن أنفسنا: فإننا لم نكن قط ديمقراطيين[١]. لقد فشلت الديمقراطية وبذلك فشلت الإيديولوجية وتصور «الغرب»، لأنه لم يكن قط ليبراليا بمعنى الكلمة ولا ديمقراطياً عن قناعة تامة، وتحديداً لم يعد كذلك على أقصى تقدير منذ الثمانينات، عندما نُفذت توصيات «اللجنة الثلاثية» ونصائح عشرات مراكز البحث النيوليبرالية كسياسة ملموسة. ومن منظور النمو الاقتصادي المحض، كانت تلك سياسة ناجحة. ومن يستفيد منها يمكنها أن يغض الطرف قليلاً عن جوانب الضعف فيها. لكن عدد المستفيدين منها في تناقص مستمر.

لأسباب مشابهة لم ترسخ طريقة اللعب التحكمية للديمقراطية «الغربية» النيوليبرالية جذوراً عميقة في شرق أوروبا ولم تخاطب الناس بشكل دائم. إنها لم تعول على المشاركة والتوازن، بل كانت مصحوبة بالبيع الكامل. لقد انحدر شرق أوروبا ليصبح اليوم مخزنا للعمالة الرخيصة لغرب أوروبا. «لقد انطفأ الضوء» هذا ما يذكره الباحثان في العلوم السياسية إيفان كارستف Ivan Kastev وشتيفان هولمس Stephen Holms عن فشل الديمقراطية في شرق أوروبا[٢]. ويكمل فيليب تير Philpp Ther بالنظر إلى شرق أوروبا بعد انهيار الستار الحديدي قائلاً: «نقص الديمقراطية والإصلاح السياسي النيوليبرالي تطلبا بعضهما بعضا»[٣]. فمن ناحية لم يكن ممكناً تطبيق السياسة الإصلاحية

---

(١) تحوير لعبارة برونو لاتور «لم نكن حداثيين قط». (Latour ٢٠٠٥).

(٢) Karstev ٢٠٢٠.

(٣) Ther ٢٠١٤: ص ١٢٧.

النيوليبرالية دون نقص الديمقراطية: فلولا ذلك لصوت الناس على رفضها. ومن ناحية أخرى عززت السياسة الإصلاحية النيوليبرالية نقص الديمقراطية: الكثير من الناخبين أدركوا أنه لا معنى للانتخابات، فهم غير قادرين على تغيير أي شيء[١].

أما عن علاقة هذا التطور بالحادي عشر من سبتمبر/أيلول، فمن المفترض أن تكون قد اتضحت. لقد قام أسامة بن لادن وإرهابيوه بفتح الطريق لتحرير السياسة النيوليبرالية المستبدة من قيودها. في كتابهما «ممر ضيق» لا يرى الباحثان الاقتصاديان دارون عجم أوغلو Daron Acemoglu وجيمس ا. روبينسون James A. Robinson اللذان يعتبران نفسيهما ليبراليين، سوى هذا الممر الوحيد المتبقي أمام الديمقراطيات الفاعلة[٢]. ولا يمكن أن يكون أمراً مطمئناً، أن ألمانيا وبعض من دول الاتحاد الأوروبي لا تزال تتحرك فيه، لأنه كان يضيق باستمرار منذ عام ٢٠٠١. وقد أظهرت أزمة كورونا فقط مخاطر هذا التطور[٣]: إننا في الطريق نحو مجتمع عالمي إقطاعي جديد[٤]، مجتمع عالمي نيو-أورليغاركي.

على هذا النهج سيغازل النظام كل من لا يزال لديهم شيئاً يخسرونه، وسيدعوهم لأخذ مكان للمنافسة في المراكز الأمامية، حيث يكون عندئذ الإقطاعيون الجدد مع بعضهم بعضاً. سيكون هذا جذابا بالنسبة لأناس من الطبقة الوسطى المتعلمة وما فوقها في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكذلك من الطبقات العليا في الجنوب العالمي. وفي حالة النجاح يلوح الأمل في « الوصول لقدرات إلهية في الخلق والتدمير »[٥]

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) Acemoglu ٢٠١٩.

(٣) تركيا كمثال ولكن بالنظر أيضاً إلى أوروبا: Erdogan ٢٠٢٠.

(٤) Kotkin ٢٠٢٠.

(٥) Harari ٢٠١٧: ص ٣٧٠.

وترك كل المعوقات وراء ظهورهم، إنه برنامج يذكر بفكر نيتشه عن «الإنسان الخارق». من ينتمي لهؤلاء، يجوز له أن يأمل في أن يتمكن سريعاً من هزيمة أي مرض وأي كارثة بيئية، في حين لا يستطيع الآخرون اليوم تحمل كلفة التأمين الصحي الأساسي، أو أن التغير المناخي لم يترك لهم مخرجاً آخر سوى طُرق اللجوء.

إن التقليل المتفائل من حجم المشكلات وتخيل مستقبل وردي واستدعاء آمال يُتوهم أنها مبررة لا يعد، نظراً للوضع الذي ننطلق منه، سوى محاولة خداع، ومحاكاة أخرى للحياة العادية، تهدف إلى الحفاظ على الأوضاع السائدة. بعيداً عن تجميل الأمور نتعرف على رؤية داروينية احتضارية للعالم يُكتب فيها البقاء للأقوى، وللأقسى. وهي تقف في مواجهة رؤية أخرى ليست أقل حجما من حيث تحدياتها، لكنها قطعا أكثر نبلا وطوباوية. ومعظم الناس على ظهر الكوكب سيختارونها لو كان بيدهم الاختيار، لو كانت ثمة ديمقراطية. يوجد لمثل هذا المجتمع نماذج وأمثلة كثيرة. وهنا سأقدم فقط أكثر نموذج أقنعني.

تجربة فكرية كوزمزبوليتية

تعود الفكرة الأساسية إلى الفيلسوف الأمريكي جون رولز John Rawls. وتستند إلى تجربة فكرية سياسية طورها رولز في ستينيات القرن العشرين. وقد أسهمت على الأرجح في ذاك الزمن في جعل العديد من الأغنياء والمحافظين يدقون ناقوس الخطر.

في هذه التجربة تُوكل إلى مجموعة من الناس مهمة سن قوانين جديدة تماماً لمجتمع ما. وفي أثناء ذلك لا يجوز لأحد أن يعرف أي مكانة اجتماعية وأي وضع اجتماعي سيكون له أو لها في هذا المجتمع، مدى ثرائه أو ثرائها، ودرجة تعليمه أو تعليمها، إلى آخره. وهذه

اللامعرفة يطلق عليها رولز «حجاب المعرفة»[1]. وفي ظل شروط مثل هذه التجربة، أي خلف حجاب المعرفة تنشأ على الأغلب قوانين عادلة نوعا ما بشروط مبدئية وفرص متساوية للجميع.

لكن في ظل شروط العولمة يوجد عيب في نظام تجربة رولز: فالتجربة لا تصلح لكل العالم، ولكن لمجتمع مفترض بتصورات قيمية وتوقعات متشابهة (بغض النظر عن نوع هذه التصورات). صحيح أن هذا المجتمع الخاص من شأنه أن يحقق العدالة، لكن ستظل مشكلة عدم المساواة العالمية، أي التبعات السلبية لتطور متفاوت وللاستعمار والعولمة، قائمة. لذلك يجدر تطوير نظام تجربة رولز ليستوعب عصر العولمة والأنثروبوسين.

ومن أجل ذلك سنقوم في خطوة أولى بتبني تصور الديانة الهندوسية الذي يُولد الناس وفقاً له مرة أخرى بعد مماتهم[2]. وبحسب المفهوم الهندوسي التقليدي تحدد الطريقة التي عشنا بها حياتنا، إن كنا في الحياة التالية، سنترقى أو سنتدنى على سلم الكائنات الحية والطبقات، ثوابا أو عقابا، أي إن كنا سنولد من جديد في مرتبة أعلى أو أدنى. لكن بالطبع لا ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو في تجربتنا الفكرية.

بالأحرى ينبغي أن تكون القاعدة أنه يمكن أن يولد الإنسان من جديد، دون أي ارتباط بحياته السابقة، وفقاً لمبدأ الصدفة في أي مكان

---

(١) Rawls ٢٠٠٥: ص ١٣٦ وما بعدها (الفصل ٢٤: غطاء الجهل The Veil of Ignorance). الوصف التفصيلي للتجربة يوجد على الموقع التالي:
https://plato.stanford.edu/entries/original-position/

(٢) لا تعود فكرة توسيع تعليمات تجربة رول على نحو كوزموبوليتي إليّ وإنما إلى الإعلامية الأمريكية ميشيل ألكسندر (Alexander ٢٠١٨) أما توسيع التجربة الكوزموبوليتي العضوي بالنظر إلى تصور الأنثروبوسين، فهي فكرتي.

على الأرض، بأي لون بشرة، كرجل أو كامرأة، وبكل توجه جنسي متخيل، بلغة أم ما، في أي نظام سياسي أو اقتصادي قائم على الأرض، وفي أي منطقة مناخية. وعلينا على الفور أن نعترف: مثل هذا التصور يشبه الكابوس، وخصوصاً بالنسبة للناس في نصف الكرة الشمالي الذين قد يكونوا من الخاسرين في هذه الصفقة.

تكمن الإمكانية الوحيدة لتحسين فرصنا في الحياة القادمة في ظل مثل هذا الوضع القائم في التأثير على الموقف العالمي برمته. وتحديداً من خلال مسلكنا ومن خلال قراراتنا وخيارنا السياسي والاقتصادي في الحياة السابقة، أي هنا والآن. وإذا لم نتمكن من الإسهام في تحسين وضع كل سكان العالم في الجيل القادم، بحيث يكون ثمة نمو مضطرد في توفير أساس المعيشة والعدالة والبيئة الأنظف في كل أنحاء الكرة الأرضية، فسنواجه من المنظور الإحصائي خطر أن يكون من ضمن الثمانين في المئة من السكان الذين وُلدوا من جديد، من لا يزيد دخلهم على ١٠ دولارات يومياً ـ أو يكون من بينهم من يكسبون أقل من دولارين في اليوم ـ وهم يشكلون تقريباً نصف سكان العالم.

لكن لا تزال ثمة إضافة أخرى ضرورية للتجربة الأصلية. إننا لا نواجه العولمة وحدها، وإنما أيضاً الأنثروبوسين، أي العصر الذي اصطبغت به الأرض بتأثير الإنسان. لا ينبغي أن نقصر رؤانا وأهدافنا الخاصة بالعدالة على الإنسان وحده ـ وليس حتى لأجل الإنسان نفسه الذي يعاني كذلك من دمار البيئة مثله مثل الحيوانات والنباتات. علينا بالأحرى أن نوسع مفهوم الميلاد الجديد على البيئة غير الإنسانية، وأن نتخيل كالهندوس القدماء أنه من الممكن أيضاً أن نولد من جديد كحيوانات أو حشرات، كأسماك أو حتى نباتات. يبدو هذا التصور راديكاليا، لكن يبرز المهمة الكبرى أمام أعيننا ويكشف لنا عن التحديات التي تواجهنا.

إذا ما وسعنا تجربة رولز الفكرية على هذا النحو لتشمل فكرة الميلاد من جديد، فسنتعلم منها بالإضافة إلى ذلك، ألا نقيم العدالة والمساواة والرضا وفقاً لمعايير يضعها مجتمع لنفسه منعزلا، ويعتبر مع ذلك في غير نقد أنها النموذج المنشود، وإنما لكل الآخرين أيضاً. عوضاً عن ذلك تتنوع المعايير، وفقاً للتجربة، حسب الموقف الذي يمكن لنا أن نولد فيه من جديد. ويرتبط هذا بالإدراك الثقافي والاقتصادي والاجتماعي للعدالة، وكذلك إدراك الأنواع المختلفة للكائنات الحية. لا يوجد مشروع حياة ولا حل محدد ولا نموذج يصلح بالقدر نفسه لكل المواليد الجديدة المحتملة، بحيث أنه في إطار التحسين المنشود للعالم، سيكون علينا دائماً التفكير في أننا مرتبطين بالسياق، والمجال والبيئة، أي أن تكون نظرتنا كوزموبوليتية عضوية، أو متعددة المناحي.

في نهاية المطاف ليس الهدف من التجربة الموسعة، كما هي الحال في الأساس لدى رولز، هو وضع قواعد قانونية ملموسة، وإنما تحسين الشروط العامة الاجتماعية والسياسية البيئية برمتها. وتظل هذه التجربة بحكم الضرورة مجردة، لكنها تحدد الاتجاه، فيما يخص ما قد يمكن أن يعنيه التطور بعيداً عن التقدم التقني والنمو الاقتصادي المحض. لذلك لا يمكن الحديث عن تقدم حقيقي، إلاّ بالموازاة مع التقدم الاجتماعي والبيئي وبتقدم في العدالة والمشاركة.

ثمة جانب مثير آخر مرتبط بفكرة تجربة الميلاد من جديد الموسعة وهو أن التجربة تشير لتطور لا يلغي حقاً فكرة الصيرورة، أو التاريخ، لكنه مع ذلك يسويها مع الزمن: بمعنى أن ما ينجزه شخص في حياته، لا يتركه لخلفه، وإنما للبشرية كلها، إن لم يكن لكل الغلاف الحيوي للأرض. وينتج عن ذلك أن كل ما أنجزه الأسلاف، لا تُستخلص منه، وفقاً لهذه النظرية، أية حقوق لخلفهم (وبالطبع أيضاً، ولا أي دَيْن موروث). لا أحد، سوى العالم بأسره، له الحق في الحصول على

إنجازات الأسلاف. وحدها الأفكار والفكر والثقافة هي القابلة للتوريث، لأنها قابلة للمشاركة دون حدود. كما أن امتيازات الأمة والدين ولون البشرة وما إلى ذلك لا يعتد بها بالطبع في هذا النموذج الطوباوي.

تعلم هذه التجربة الكوزموبوليتية العضوية أن يتخيل المرء نفسه في مواقف أخرى وأن يتخلى عن الامتيازات الموروثة. وبالطبع لكل شخص الحق في رفض ذلك. لكن من يجرؤ على الرفض هو شخص في وضع مميز جداً ـ وفي حال اعترافه صراحة بانحيازه لامتيازاته، فسيكون من الصعب عليه ادعاء الديمقراطية وعليه أن يتوقع مقاومة سيكون الحق المستقبلي في صفها.

ولن يؤثر أن تظل هذه التجربة الفكرية مؤقتا يوتوبيا، وأن يكون بالإمكان تحققها على نحو تقريبي فقط في المنظور البعيد المدى. ينبغي أن تكون في المقام الأول مهمة وهدف. وتخدم تحديد الاتجاه نحو مستقبل أفضل وتقدم معياراً للمسلك الإنساني، يكتفي بالتطلعات العقلانية التنويرية. ويمكن لكل البشر تبنيه، بغض النظر عن منشئهم.

إذا ما نظرنا للوراء عبر العدسة المكبرة للتجربة الفكرية، سيتبين أن السياسة التصعيدية لعولمة مهيمنة ومستبدة يمارسها اقتصاد رأس المال منذ ١١ سبتمبر/أيلول تحت غطاء مكافحة الإرهاب، لا تفي بالمتطلبات الكوزموبوليتية العضوية، وليس هذا فحسب، فهي لم تحاول حتى الوفاء بهذه المتطلبات، وإنما تعول بوقاحة على إرادة القوة و«سياسة الهيمنة»[1]. مهما رُوج لها أيضاً تحت اسم بناء الأمة *Nation-Building* أو «الدمقراطة».

تعد أزمة كورونا تحذيراً من الأسوأ، وعلينا أن نتخذها مناسبة

---

(١) Gädeke ٢٠١٧.

لتحول، أن نتعامل معها بوصفها غراوند زيرو، ينهي سياسة عصر ١١ سبتمبر/أيلول الكارثية.

هل هذا بشيء غريب؟ إذن فلتكن الغرابة على أي حال في صحبة طيبة. لقد عبر الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش عن هذه الرغبة «الغريبة» في التغيير في منتصف يوليو/تموز ٢٠٢٠ خلال محاضرته عن نيلسون مانديلا عبر الإنترنت: «قُورن كوفيد-١٩ بصورة أشعة سينية، تظهر كسوراً في الهيكل العظمي الهش للمجتمعات، التي بنيناها. وهو يكشف في كل مكان في العالم استنتاجات خادعة وأكاذيب. [...] إن التأثيرات الهدامة لمستوى عدم المساواة القائم حالياً بينة للعيان. يقال لنا أحياناً إن طوفان النمو الاقتصادي الصاعد يأخذ كل القوارب معه. لكن في الواقع تُغرق عدم المساواة المتزايدة كل القوارب. دعونا نواجه الحقائق. لا يوفر النظام السياسي والاقتصادي العالمي البضائع العمومية العالمية الحاسمة: الصحة العامة، حماية المناخ، التنمية المستدامة والسلام. [...] إن الطريق الأفضل للتغيير هو اتفاق عالمي جديد New Global Deal يستند إلى عولمة عادلة، على الحقوق والكرامة لكل إنسان، على حياة في توازن مع الطبيعة، وعلى مراعاة حقوق الأجيال القادمة. ويقيس نجاحه بمعايير إنسانية وليست اقتصادية»[١]..

في كتابنا يظهر التطور السياسي في المنطقة الأورو-أطلسية، إن لم يكن في العالم كله، سلبيا منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ومثل صورة ملغزة يمكننا منذ وباء كورونا مع ذلك أيضاً أن نرى فيها صورة أخرى مشجعة. وهذه الصورة تشير إلى أن لحظة التحول المطلوبة قد حانت. أقصد التبرم المتزايد من أوضاع كتلك الأوضاع القائمة، التي لا يمكن التعرف فيها على توجه تقدُّمي طوباوي ولا على أي وعد. يسهم

(١) UN Secretary General ٢٠٢٠.

هذا التبرم، الذي نجده في كل المعسكرات السياسية، في تسريع انهيار النظام النيوليبرالي. وكأنه يشعر هو ذاته بانهياره المستمر، لذا يحتضن أكثر فأكثر متهكمين وعدميين ومحتالين كممثلين سياسيين له، ويدفع بهم، نظراً لأن الديمقراطية قد أصبحت في الأثناء مجوفة بقدر كاف، إلى أعلى المناصب، وليكن ذلك منصب الرئيس الأمريكي، كما في حالة دونالد ترامب الذي خسر الانتخابات عام ٢٠٢٠ بفارق ضئيل.

بدأ أفول هذا النظام وخسارة مصداقيته وقدرته على الإقناع والوصول للناس مع ١١ سبتمبر/أيلول. كان النظام وممثلوه مقتنعين بأنفسهم للغاية، لدرجة أنهم قد سقطوا في الفخ الذي صنعته لهم الهجمات الإرهابية وهم يهللون. ما بدا لهؤلاء الممسكين بمقاليد السلطة في ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ كحفلة صاخبة، تبين أنه حفل ماجن لبيع القيم والتعري الذاتي وكشف الذات، والهزيمة في النهاية.

نظراً لتخلي الولايات المتحدة الأمريكية عن دورها كقوة عالمية تحدد توجهات العالم، وهو الذي حركه ابن لادن وشارك في إحداثه، فقد النظام النيوليبرالي للاقتصاد العالمي المعولم منذ أزمة كورونا على أبعد تقدير أكبر مدافع عنه وأكبر ضامن له، فقد بطريركه و«عرابه»[١].

وأُطلق سراح ألمانيا وأوروبا عموما، ومناطق أخرى كانت في الماضي قابعة في ظل حماية الولايات المتحدة الأمريكية، إلى حرية جديدة. وهذه الحرية تبدو لكثيرين غير آمنة وغير مريحة. لكن هذا، ولنحور هنا عبارة شهيرة للفيلسوف إيمانويل كانط، مجرد ثمن الخروج من عدم النضج السياسي العالمي؛ والدخول إلى مرحلة تحمل المسؤولية

---

(١) «العراب» (١٩٧٢، الولايات المتحدة الأمريكية) فيلم روائي من إخراج فرانسيس فورد كوبولا، عن الرواية التي تحمل الاسم ذاته لماريو بوتسو Mario Puzo.

الذاتية السياسية العالمية التي حان وقتها منذ زمن طويل. إذا أرادت أوروبا، يمكنها أن تصبح ما كانته الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة لأناس كثيرين في الماضي، على الأقل وفقاً لتصورها: قدوة ودليلاً إرشادياً، وضامناً ومرفأ آمناً لنظام مغاير وجديد وعادل. وقبل أن يصبح هذا ممكناً لا بد بالطبع أولا من إنجاز الفروض المنزلية في مواد «الديمقراطية» و«العدالة» و«المساواة» و«التضامن (المناخي)». وقد ظلت هذه المفروض متروكة منذ الانتصار النيوليبرالي باهظ الثمن في عام ١٩٨٩، لأن المرء ظن أنها فروض لمواد فرعية.

إذا كنا، بحسب التشخيص، لم نكن ليبراليين، (بمعنى الانفتاح السياسي والإمكانيات والتعددية)، ولا ديمقراطيين قط، ففي ذلك تحديداً تكمن فرصة ثانية غير متوقعة. فبإمكاننا فعلياً أن نحاول مرة أخرى. وإذا كنا لم نتعامل قط بجدية كافية مع أفكار الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية، فسيكون الوقت قد حان لمحاولة ثانية. ولو نجح ذلك، سيثبت أن تلك الأفكار ليست غريبة، مثلما يرغب الحكام المستبدون والشعبويون والنيوليبراليون مثل فريدريش هايك أن يقنعونا بذلك، وإنما فقط أن الفشل كان من نصيب من استشهدوا بها ظاهريا وعلى نحو زائف.

وكثير منهم لا يزال في مناصب حاسمة، ولا تزال وسائل إعلامهم تطبل، ويزداد أثرياؤهم فائقو الغنى ثراء، وإذا باعوا قريباً آخر ذرة من أمل، فلن يتبقى من بعد من معروضاتهم سوى الموت والخراب. لكن بخلاف هؤلاء الذين يستفيدون منهم والذين يقل عددهم يوماً بعد يوم، لم يعد أحد يصدقهم بعد؛ أجل وفي الأثناء لم يعودوا هم يصدقون أنفسهم تقريباً. للمرة الأولى منذ الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ أصبح المستقبل مفتوحاً من جديد.

شكر

أشكر فيلا ماسيمو لمنحة الثلاثة أشهر التي قضيتها في «كازا بالدي» في أوليفانو رومانو، حيث بدأ العمل على هذا الكتاب.

وأشكر إقامة الفنانين «تارابيا» على منحة الإقامة لأربعة أشهر في إسطنبول، حيث لم يكن ممكناً إنهاء العمل بسبب أزمة كورونا.

أشكر أيضاً مؤسسة الفن في ولاية شمال الراين وستفاليا للدعم الممنوح في إطار الصندوق الخاص بكورونا الذي أتاح لي إنهاء العمل على الكتاب في اطمئنان.

وأشكر مهرجان الأدب العالمي في بريمن على الفرصة التي أتاحها لي لنشر أفكاري الأولى حول الفصل الختامي بعنوان «الفيروس والإرهاب» على الصفحة المخصصة لذلك على موقعه http://vitaactiva-globale.de (وأيضاً على الكثير من النصوص القيّمة الأخرى حول الموضوع).

وأشكر الطاقم المتحمس في دار نشر هانزر على تشجيعهم وعلى الصبر الكثير الذي أبدوه.

المراجع

- Abou-Taam, Marwan / Bigalke, Ruth 2006: Die Reden des Osama bin Laden. Kreuzlingen: Diederichs.
- Abrahamian, Ervand / Cumings, Bruce / Ma'oz, Moshe 2004: Inventing the Axis of Evil. The Truth About North Korea, Iran, and Syria. London: The New Press.
- Acemoglu, Daron / Robinson, James 2019: The Narrow Corridor. States, Society and the Fate of Liberty. New York: Penguin Press.
- Adonis 2001: Der Araber und der Andere. Militärische Globalisierung ist der falsche Weg: Der Terror lässt sich nur von innen besiegen. In: Die ZEIT, Nr. 49, 2001, 29.11.2001, S. 50.
- Adonis 2012: Verwandlungen eines Liebenden. Gedichte 1958-1971. Aus dem Arabischen von Stefan Weidner. Frankfurt: S. Fischer.
- Adonis 2012: Wortgesang. Von der Dichtung zur Revolution. Frankfurt: S. Fischer.
- Adonis 2015: Violence et Islam. Entretiens avec Houria Abdelouahed. Paris: Seuil.
- Afary, Janet / Anderson, Kevin B. 2005: Foucault and the Iranian Revolution. Gender and the Seductions of Islamism. Chicago: University of Chicago Press.
- Agamben, Giorgio 2004: Ausnahmezustand. Frankfurt: Edition Suhrkamp.
- Agamben, Giorgio 2020: L'invenzione di un'epidemia. In: Quodlibet, 26.2.2020; https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-l-invenzione-di-un-epidemia.

- Alexander, Michelle 2018: What if We're All Coming Back. In: The New York Times, 29.10.2018; https://www.nytimes.com/2018/10/29/opinion/climate-change-politics-john-rawls.html.
- Alexander, Michelle 2020: America, This Is Your Chance. In: New York Times, 8.6.2020; https://www.nytimes.com/2020/06/08/opinion/george-floyd-protests-race.html?searchResultPosition=1.
- Al-Sharif, Manal 2017: Losfahren. Berlin: Secession.
- Amirpur, Katajun 2009: Unterwegs zu einem anderen Islam. Texte iranischer Denker. Freiburg: Herder.
- Anderson, Kurt 2020: Evil Geniuses. The Unmaking of Amerika: A Recent History. New York: Random House.
- Armbruster, Jörg 2013: Brennpunkt Nahost. Die Zerstörung Syriens und das Versagen des Westens. Frankfurt: Westend.
- Ayres, Jeffrey M. 2004: Framing Collective Action Against Neoliberalism. In: Journal of World-Systems Research, Vol. X, No. 1, Winter 2004.
- Bahners, Patrick 2011: Die Panikmacher. Die deutsche Angst vor dem Islam. Eine Streitschrift. München: C. H. Beck.
- Baudrillard, Jean 2002: L'esprit du terrorisme. Paris: Galilée.
- Bearak, Max 2020: Coronavirus is crushing tourism - and cutting off a lifeline for wildlife. In: Washington Post, 17.7.2020; https://www.washingtonpost.com/graphics/2020/world/coronavirus-africa-tourism-wildlife/.
- Beck, Ulrich 1986: Risikogesellschaft. Auf dem Weg in eine andere Moderne. Frankfurt: Edition Suhrkamp.
- Bendersky, Joseph W. 1983: Carl Schmitt. Theorist for the Reich. New Jersey: Princeton University Press.
- Binder, Werner 2013: Abu Ghraib und die Folgen. Ein Skandal als ikonische Wende im Krieg gegen den Terror. Bielefeld: Transcript.
- Bird, Kai / Lifschultz, Lawrence 1998: Hiroshima's Shadows. Writings on the Denial of History and the Smithsonian Controversy. Stony Creek, Connecticut: The Pamphleteer's Press.

- Bloom, Allan 1987: The Closing of the American Mind. New York: Simon & Schuster.
- Bonnett, Alastair 2004: The Idea of the West. Culture, Politics and History. New York: Palgrave Macmillan.
- Bouie, Jamelle 2020: Kenosha Tells Us More About Where the Right Is Headed Than the R.N.C. Did. In: The New York Times, 28.8.2020; https://www.nytimes.com/2020/08/28/opinion/kenosha-kyle-rittenhouse-trump.html?action = click&module = Opinion&pgtype = Homepage.
- Boulus, Sargon 1997: Zeugen am Ufer. Gedichte. Aus dem Arabischen von Khalid Al-Maaly und Stefan Weidner. Berlin: Das Arabische Buch.
- Brunner, José 2014: Die Politik des Traumas. Gewalterfahrungen und psychisches Leid in den USA, in Deutschland und im Israel/Palästina-Konflikt. Berlin: Suhrkamp.
- Churchill, Winston 2008: Kreuzzug gegen das Reich des Mahdi. Aus dem Englischen von Georg Brunold. Frankfurt: Eichborn.
- Cercas, Javier 2020: The EU was created to keep nationalism in check. Coronavirus is a dangerous test. In: The Guardian, 15.4.2020; https://www.theguardian.com/books/2020/apr/15/the-eu-was-created-to-keep-nationalism-in-check-coronavirus-is-a-dangerous-test.
- Coates, Ta-Nehisi 2016: Zwischen mir und der Welt. Aus dem Englischen von Miriam Mandelkow. München: Hanser.
- Cockett, Richard 1994: Thinking the Unthinkable: Think-tanks And the Economic Counter-revolution. London: HarperCollins.
- Coll, Steve 2008: The Bin Ladens. New York: Penguin.
- Commission Report 2004: The 9/11 commission report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States. New York: Norton & Norton.
- Cresswell, Robin 2019: City of Beginnings. Poetic Modernism in Beirut. New Jersey: Princeton University Press.
- Croitoru, Joseph 2007: Hamas. Der islamische Kampf um Palästina. München: C. H. Beck.

- Crozier, Michel / Huntington, Samuel / Watanuki, Joji 1975: The Crisis of Democracy. Report about the Governmentability of Democracies to the Trilateral Commission. New York: New York University Press; https://ia800305.us.archive.org/29/items/TheCrisisOfDemocracy-TrilateralCommission-1975/crisis_of_democracy.pdf.
- Dabashi, Hamid 2011: The Green Movement in Iran. New Brunswick: Transaction Publishers.
- Dabashi, Hamid 2012: The Arab Spring. The End of Post-Colonialism. London: Zed Books.
- Deaton, Angus, 2013: The Great Escape. Health, Wealth, And the Origins of Inequality. New Jersey: Princeton University Press.
- Delong-Bas, Natana J. 2014: Wahhabi Islam. From Revival and Reform to Global Jihad. New York: Oxford University Press.
- DIW 2020: Wochenbericht des Deutschen Instituts für Wirtschaftsforschung, 29/2020; https://www.diw.de/documents/publikationen/73/diw_01.c.793785.de/20-29-1.pdf.
- Eisenman, Stephen F. 2007: The Abu Ghraib Effect. London: Reaction Books.
- Erdogan, Emre 2020: Coronavirus Times in Turkey: Contemplating the Concept of Governance Under the Shadow of a Despotic Leviatan. In: TESEV Briefs 2020/2; https://www.tesev.org.tr/en/research/governance-in-coronavirus-times.
- Faludi, Susan 2007: The Terror Dream. Fear and Fantasy in Post-9/11 America. New York: Metropolitan Books.
- Feldman, Allen 2005: On the Actuarial Gaze. From 9/11 to Abu Ghraib. In: Cultural Studies, Vol. 19, No. 2, März 2005, S. 203-226.
- Feldman, Noah 2020: The Arab Winter. A Tragedy. New Jersey: Princeton University Press.
- Ferguson, Niall 2005: Colossus. The Rise and Fall of the American Empire. London: Penguin.
- Freitag, Ulrike 2019: Cosmopolitanism in a Global Perspective. London: German Historical Institute; https://www.ghil.ac.uk/fileadmin/redaktion/dokumente/annual_lectures/AL_2019_%20Freitag.pdf.

- Fukuyama, Francis 1992: The End of History and the Last Man. New York: The Free Press.

- Fukuyama, Francis 2006: Scheitert Amerika? Supermacht am Scheideweg. München: Propyläen.

- Gädeke, Dorothea 2017: Politik der Beherrschung. Eine kritische Theorie externer Demokratieförderung. Berlin: Suhrkamp.

- Gaitan, Beatriz / Lucke, Bernd 2007: The Barcelona Initiative and the Importance of NTBs: A Dynamic CGE-Analysis for Syria, International Economics and Economic Policy 4 (1), S. 33-59.

- Garric, Audrey 2020: Pablo Servigne, théoricien de l'effondrement. In: Le Monde, 10.4.2020; https://www.lemonde.fr/planete/article/2020/04/10/pablo-servigne-cette-crise-je-ne-l-ai-pas-vue-venir-alors-que-je-la-connaissais-en-theorie_6036175_3244.html.

- Gehrke, Hans-Joachim 2017: Die Welt der klassischen Antike. In: Ders. (Hrsg.): Geschichte der Welt. Vor 600. Frühe Zivilisationen. München: C. H. Beck.

- Gerges, Fawaz A. 2016: ISIS. A History. New Jersey: Princeton University Press.

- Gerlach, Daniel 2013: Diktatur bewältigen. Aufarbeitung und Übergangsjustiz in Ägypten und Tunesien. Berlin: Forum Zenith e.V.

- Goffman, Erving 1986: Frame Analysis. An Essay on the Organisation of Experience. Boston: Northeastern University Press.

- Goodman, Peter S. / Dahir, Abdi Latif / Singh, Karan Deep 2020: The Other Way Covid Will Kill: Hunger. In: The New York Times, 11.9.2020; https://www.nytimes.com/2020/09/11/business/covid-hunger-food-insecurity.html.

- Göpel, Maja 2016: The Great Mindshift. How a New Academic Paradigm and Sustainability Transformations Go Hand in Hand. Berlin: Springer open; https://link.springer.com/book/10.1007%2F978-3-319-43766-8.

- Göpel, Maja 2020: Unsere Welt neu denken. Eine Einladung. Berlin: Ullstein.

- Gore, Al 1993: Earth in the Balance. Ecology and the Human Spirit. New York: Plume.

- Gore, Al 2007: Earth in the Balance. Ecology and the Human Spirit. London: Routledge.

- Gorman, James 2020: Public Health Experts Reject President's View of Fading Pandemic. In: The New York Times, 21.6.2020; https://www.nytimes.com/2020/06/21/health/coronavirus-pandemic-spread-trump.html.

- Greiner, Ulrich 2011: 9/11. Der Anschlag - die Folgen. München: C. H. Beck.

- Greven, Thomas / Grumke, Thomas 2006: Globalisierter Rechtsextremismus? Die extremistische Rechte in der Ära der Globalisierung. Wiesbaden: VS Verlag.

- Grey, John 2020: Why this crisis is a turning point in history. In: New Statesman, 1.4.2020; https://www.newstatesman.com/international/2020/04/why-crisis-turning-point-history.

- Hackenbroch, Veronika / Pitzke, Marc 2020: Bill Gates über die Corona-Pandemie: "Es ist Wahnsinn, dass wir nicht längst weiter sind". In: Spiegel online, 15.9.2020; https://www.spiegel.de/wissenschaft/bill-gates-im-spiegel-gespraech-ich-habe-das-coronavirus-nicht-erschaffen-a-b37f0211-15a2-4fa8-8452-e808b2b46adf.

- Hamdy, Basma / Stone, aka Don Karl 2018: Walls of Freedom: Street Art of The Egyptian Revolution. Berlin: From Here to Fame Publishing; www.wallsoffreedom.com.

- Harari, Yuval Noah 2017: Homo Deus. Eine Geschichte von Morgen. München: C. H. Beck.

- Harding, Luke / Leigh, David 2011: WikiLeaks. Inside Julian Assange's War on Secrecy. London: Guardian Books.

- Harding, Luke 2014: The Snowdon Files. The Inside Story of the World's Most Wanted Man. New York: Vintage.

- Hardt, Michael / Negri, Antonio 2017: Assembly. New York: Oxford University Press.

- Harris, William 2018: Quicksilver War. Syria, Iraq and the Spiral of Conflict. New York: Oxford University Press.

- Harvey, Fiona 2020: Governments put 'green recovery' on the backburner. In: The Guardian, 15.7.2020; https://www.theguardian.com/environment/2020/jul/15/governments-put-green-recovery-on-the-backburner.

- Harwit, Martin 1996: An exhibition denied. Lobbying the History of Enola Gray. New York: Springer.

- Hayek, Friedrich 1993: Law, Legislation and Liberty. A new statement of the liberal principles of justice and liberal economy. London: Routledge.

- Hersh, Seymour M. 2004: Die Befehlskette. Vom 11. September bis Abu Ghraib. Reinbek: Rowohlt.

- Hessler, Peter 2020: Die Stimmen vom Nil. Eine Archäologie der ägyptischen Revolution. Aus dem Englischen von Thomas Pfeiffer und Andreas Thomson. München: Hanser.

- Höhne, Valerie 2020: Prophet aus Potsdam. In: Der Spiegel, Nr. 29, 11.7.2020.

- Horton, John / Newey, Glen 2006: The Political Theory of John Gray. London: Routledge.

- Horton, Richard 2020: Coronavirus is the greatest global science policy failure in a generation. In: The Guardian, 9.4.2020; https://www.theguardian.com/commentisfree/2020/apr/09/deadly-virus-britain-failed-prepare-mers-sars-ebola-coronavirus.

- Huntington, Samuel 1996: Der Kampf der Kulturen. The Clash of Civilisations. Die Neugestaltung der Weltpolitik im 21. Jahrhundert. Aus dem Amerikanischen von Holger Fliessbach. München: Europaverlag.

- Ignatieff, Michael 2003: Empire lite. Die amerikanische Mission und die Grenzen der Macht. Aus dem Amerikanischen von Christiana Goldmann. Hamburg: Europaverlag.

- Jafari, Peyman 2010: Der andere Iran. Geschichte und Kultur von 1900 bis zur Gegenwart. München: C. H. Beck.

- Jones, Seth G. 2009: In the Graveyard of Empires. Americas's War in Afghanistan. New York: Norton & Norton.
- Jowitt, Ken 2003: Rage, Hubris, and Regime. In: Policy Review, 1.4.2003; https://www.hoover.org/research/rage-hubris-and-regime-change.
- Khalifa, Mustafa 2019: Das Schneckenhaus. Aus dem Arabischen von Larissa Bender. Bonn: Weidle Verlag.
- Kingley, Patrick 2016: Die neue Odyssee. Eine Geschichte der europäischen Flüchtlingskrise. München: C. H. Beck.
- Klein, Naomi 2007: Die Schock-Strategie. Der Aufstieg des Katastrophen-Kapitalismus. Aus dem Englischen von Hartmut Schickert, Michael Bischoff und Karl Heinz Siber. Frankfurt: S. Fischer.
- Kornelius, Stefan 2007: Al Gore - Mission Klima. Freiburg: Herder.
- Kotkin, Joel 2020: The Coming of NEOfeudalism. A warning to the global middle class. New York: Encounter Books.
- Krastev, Ivan / Holms, Stephen 2019: How liberalism became 'the god that failed' in eastern Europe. In: The Guardian, 24.10.2019; https://www.theguardian.com/world/2019/oct/24/western-liberalism-failed-post-communist-eastern-europe.
- Krastev, Ivan / Holms, Stephen 2020: The Light that Failed. Why the West is Loosing the Fight for Democracy. New York: Pegasus Books.
- Kundnani, Arun 2014: The Muslims are Coming. Islamophobia, Extremism, and the Domestic War on Terror. London: Verso.
- Landwehr, Achim 2016: Die anwesende Abwesenheit der Vergangenheit. Essay zur Geschichtstheorie. Frankfurt: S. Fischer.
- Latour, Bruno 2005: Nous n'avons jamais été modernes. Paris: La Découverte.
- Leonhardt, David 2020: It's 2022. What Does Life Look Like? In: The New York Times, 10.7.2020; https://www.nytimes.com/2020/07/10/opinion/sunday/coronavirus-economy-two-years.html?action = click&module = Opinion&pgtype = Homepage.
- Lessenich, Stephan 2016: Neben uns die Sintflut. Die Externalisierungsgesellschaft und ihr Preis. Berlin: Hanser Berlin.

- Levitsky, Steven / Ziblatt, Daniel 2018: How Democracies Die. New York: Crown.

- Lifton, Robert J. / Mitchell, Greg 1996: Hiroshima in Amerika. A Half Century of Denial. New York: Harper Perennial.

- Lippmann, Walter 2018: Die öffentliche Meinung. Wie sie entsteht und manipuliert wird. Hrsg. von Walter Otto Ötsch und Silja Graupe. Frankfurt: Westend.

- Lucke, Bernd 2001: Fiscal Impact of Trade Liberalization: The Case of Syria, Proceedings of the 75th International Conference on Policy Modeling, Brussels.

- Lüders, Michael 2018: Die den Sturm ernten. Wie der Westen Syrien ins Chaos stürzte. München: C. H. Beck.

- MacMillan, Margaret 2015: History's People. Personalities and the Past. Toronto: House of Anansi Press.

- Marr Phebe / al-Marashi, Ibrahim 2017: History of Irak (4. Aufl.). Boulder: Westview Press.

- McCants, Williams 2015: The Isis Apokalypse. The History, Strategy and Doomsday Vision of the Islamic State. New York: St. Martin's Press.

- Mettelsiefen, Marcel / Reuter, Christoph 2010: Kunduz, 4. September 2009. Eine Spurensuche. Berlin: Rogner & Bernhard.

- Miller, Flagg 2015: The Audacious Ascetic. What the Bin Laden Tapes Reveal About Al Qaida. New York: Oxford University Press.

- Mirowski, Philip 2019: The Eighteenth Brumaire of James Buchanan. Review of Nancy MacLean, Democracy in Chains. In: Boundary 2, Vol. 46, Nr. 1.

- Mirzoeff, Nicholas 2005: Watching Babylon. The War in Iraq and Global Visual Culture. New York: Routledge.

- Mitchell, Ryan Martinez 2020: Chinese Receptions of Carl Schmitt since 1929. In: Penn State Journal of Law & International Affairs, Vol. 8, No.1, 2020, S. 181 f; https://elibrary.law.psu.edu/cgi/viewcontent.cgi?article = 1246&context = jlia.

- Mohagheghi, Hamideh 2015: Frauen fden Djihad. Dar den Djihad. Das Manifest der IS-Kämpferinnen. Freiburg: Herder.
- Morgan, Matthew J. (Hg.) 2009: The Impact of 9/11 on Business and Economics: The Business of Terror. The Day that Changed Everything? New York: Palgrave Macmillan.
- Moubayed, Sami 2018: The Makers of Modern Syria. The Rise and Fall of Syrian Democracy. London: I. B. Tauris.
- Mouffe, Chantal 2007: Über das Politische. Wider die kosmopolitische Illusion. Aus dem Englischen von Niels Neumeier. Frankfurt: Edition Suhrkamp.
- Moyo, Dambisa 2010: How the West was Lost. Fifty Years of Economic Folly - And the Stark Choices Ahead. London: Penguin Books.
- Münkler, Herfried 2002: Über den Krieg. Stationen der Kriegsgeschichte im Spiegel ihrer theoretischen Reflexion. Weilerswist: Velbrück Wissenschaft.
- Neaman, Elliot 2002: The War that Took Place in Germany. Intellectuals and September 11. In: German Politics & Society, Vol. 20, No. 3 (64), Herbst 2002, S. 56-78.
- Neudeck, Rupert 2013: Es gibt ein Leben nach Assad. Syrisches Tagebuch. München: C. H. Beck.
- Nietzsche, Friedrich 1980: Sämtliche Werke. Kritische Studienausgabe. Band 4. Also sprach Zarathustra. München: dtv / de Gruyter.
- Nirumand, Bahman 1967: Persien, Modell eines Entwicklungslandes oder Die Diktatur der Freien Welt. Reinbek: Rowohlt.
- Piketty, Thomas. 2019: Capital et idéologie. Paris: Le Seuil.
- Rashid, Ahmed 2010: Taliban. München: C. H. Beck.
- Rawls, John 2005: Theory of Justice (Wiederauflage der Erstausgabe von 1971). Cambridge, Mass.: The Belknap Press.
- Ray, Gene 2005: Terror and the Sublime in Art and Critical Theory. From Auschwitz to Hiroshima to September 11. New York: Palgrave Macmillan.
- Reinhoudt, Jürgen / Audier, Serge 2018: The Walter Lippmann Colloquium. The Birth of Neo-Liberalism. New York: Palgrave Macmillan.

- Rhodes, Ben 2020: The 9/11 Era Is Over. The coronavirus pandemic and a chapter of history that should have expired long ago. In: The Atlantic, 6.4.2020; https://www.theatlantic.com/ideas/archive/2020/04/its-not-september-12-anymore/609502/.
- Risen, James 2015: Pay Any Price. Greed, Power and Endless war. New York: First Mariner Books.
- Roy, Arundhati 2002: Algebra of Infinite Justice. New Delhi: Penguin.
- Roy, Arundhati 2016: The End of Imagination. Chicago: Haymarket Books.
- Roy, Arundhati 2020: The pandemic is a portal. In: Financial Times, 3.4.2020; https://www.ft.com/content/10d8f5e8-74eb-11ea-95fe-fcd274e920ca.
- Roy, Olivier 2017: In Search of the Lost Orient. As Interviewed by Jean-Louis Schlegel. New York: Columbia University Press.
- Saadawi, Nawal El 1998: Eine Frau am Punkt Null. Roman. Aus dem Englischen von Anna Kamp. München: dtv.
- Sanders, Lewis 2020: Egypt's secret service casts a long shadow in the West. In: Deutsche Welle, 15.7.2020; https://www.dw.com/en/egypt-secret-service-dissidents/a-54186906?fbclid=IwAR0GKMlsYgJYVY-sovRWWOcqwasKsieQ7VF4INDOUBxv4drcAFvQ_4gyLf9w.
- Sassen, Saskia 2015: Ausgrenzungen. Brutalität und Komplexität in der globalen Wirtschaft. Übersetzt von Sebastian Vogel. Frankfurt: S. Fischer.
- Scherer, Bernd 2020: SARS-COV2 oder die Begegnung mit uns selbst. Berlin: Haus der Kulturen der Welt; https://www.hkw.de/de/hkw/mag/bernd_scherer_sars_cov2_or_the_encounter_with_ourselves.php.
- Schetter, Conrad 2004: Kleine Geschichte Afghanistans. München: C. H. Beck.
- Scheuer, Michael 2004: Imperial Hubris. Dulles: Bracey's.
- Scheuer, Michael 2011: Osama bin Laden. New York: Oxford University Press.
- Schmitt, Carl 1963: Der Begriff des Politischen. Berlin: Duncker & Humblot.

- Schneiders, Thorsten Gerald (Hrsg.) 2013: Der arabische Frühling. Wiesbaden: Springer VS.

- Schulze, Reinhard 2016: Geschichte der islamischen Welt. Von 1900 bis zur Gegenwart. München: C. H. Beck.

- Segev, Tom 2007: 1967. Israel, the War, and the Year that Transformed the Middle East. New York: Metropolitan Books.

- Shear, Michael D. et al. 2020: Inside Trump's Failure: The Rush to Abandon Leadership Role on the Virus. In: The New York Times, 18.7.2020; https://www.nytimes.com/2020/07/18/us/politics/trump-coronavirus-response-failure-leadership.html?action = click&module = -Top%20Stories&pgtype = Homepage.

- Sicherheitskonferenz 2020: https://securityconference.org/publikationen/munich-security-report-2020/.

- Slobodian, Quinn 2018: Globalists: The End of Empire and the Birth of Neoliberalism. Boston: Harvard University Press.

- Smith, Mychal Denzel 2020: Stakes Is High. Life After the American Dream. New York: Bold Type Books.

- Sohns, Sebastian 2016: Auf Sand gebaut. Saudi-Arabien - Ein problematischer Verbündeter. Berlin: Ullstein.

- Storey, Andy: Authoritarian Neoliberalism in Europe. The Red Herring of Ordoliberalism. In: Critical Sociology, Vol. 45, Nr. 7-8, S. 1035-1045; https://journals.sagepub.com/doi/abs/10.1177/0896920519845430.

- Storr, Robert 2010: September. A History Painting by Gerhard Richter. London: Tate Publishing.

- Stumpf, Reinhard (Hrsg.) 1993: Kriegstheorie und Kriegsgeschichte. Carl von Clausewitz; Helmuth von Moltke. Frankfurt: Deutscher Klassiker Verlag.

- Summers, Anthony / Swan, Robbyn 2011: The Eleventh Day. The Full Story of 9/11 and Osama Bin Laden. New York: Random House.

- Tansel, Cemal Burak (Hrsg.) 2017: States of Discipline: Authoritarian Neoliberalism and the Contested Reproduction of Capitalist Order. London: Rowman and Littlefield.

- Tausendundeine Nacht 2004. Aus dem Arabischen von Claudia Ott. München: C. H. Beck.
- Theine, Simon 2016: Die Rekrutierungsstrategie des IS. Welcher Inhalte und Techniken sich der Islamische Staat im Internet bedient. Marburg: Tectum.
- Ther, Philipp 2014: Die neue Ordnung auf dem alten Kontinent: Eine Geschichte des neoliberalen Europa. Berlin: Suhrkamp.
- Theweleit, Klaus 2002: Der Knall. 11. September, das Verschwinden der Realität und ein Kriegsmodell. Frankfurt: Stroemfeld / Roter Stern.
- Toobin, Jeffrey 2001: Too Close to Call. The Thirty-Six-Day Battle to Decide the 2000 Election, New York: Random House.
- Trofimov, Yaroslav 2008: Anschlag auf Mekka. 20. November 1979. Die Geburtsstunde des islamistischen Terrors. München: Blessing.
- Turque, Bill 2000: Inventing Al Gore. A Biography. New York: Houghton Mifflin.
- UN Secretary General 2020: Secretary-General's Nelson Mandela Lecture: Tackling the Inequality Pandemic: A New Social Contract for a New Era; https://www.un.org/sg/en/content/sg/statement/2020-07-18/secretary-generals-nelson-mandela-lecture-"tackling-the-inequality-pandemic-new-social-contract-for-new-era"-delivered.
- Unger, Craig 2004: House of Bush, House of Saud. The Secret Relationship between the World's Two Most Powerful Dynasties. New York: Scribner.
- Vidal, Gore 2002: Perpetual War For Perpetual Peace. How We Got To Be So Hated. New York: Thundermouth Press.
- Voegelin, Eric 2007: Die politischen Religionen. München: Wilhelm Fink.
- Vollmann, William T. 2003: Afghanistan Picture Show oder Wie ich lernte, die Welt zu retten. Aus dem Amerikanischen von Peter Torberg. Hamburg: marebuch.
- Walsch, Declan 2020: Cairo Badly Needed a Detox. Lockdown Supplied One, at a Steep Price. In: The New York Times, 9.7.2020: https://

www.nytimes.com/2020/07/09/world/middleeast/cairo-lockdown-detox.html?action = click&block = associated_collection_recirc&impression_id = 488156470&index = 0&pgtype = Article&region = footer.

- Wannous, Dima 2014: Dunkle Wolken über Damaskus. Aus dem Arabischen von Larissa Bender. Hamburg: Edition Nautilus.
- Weidner, Stefan 2008: Manual für den Kampf der Kulturen. Warum der Islam eine Herausforderung ist. Frankfurt: Verlag der Weltreligionen.
- Weidner, Stefan 2011: Aufbruch in die Vernunft: Islamdebatten und islamische Welt zwischen 9/11 und den arabischen Revolutionen. Bonn: J. H. W. Dietz.
- Weidner, Stefan 2018: Jenseits des Westens. Für ein neues kosmopolitisches Denken. München: Hanser.
- Weidner, Stefan 2020: Virus und Terror. Wie die Ähnlichkeiten der Epochenschwellen uns zum Umdenken zwingen. Podcast. Bremen: Globale? Literaturfestival; http://vitaactiva-globale.de/virus-terror/?cli_action = 1598514630.14.
- Wickert, Ulrich 2001: Erklärung von Ulrich Wickert zu seiner Veröffentlichung in der Illustrierten MAX; https://www.presseportal.de/pm/6561/287988.
- Wickert, Ulrich 2017: Nie die Lust aus den Augen verlieren. Lebensthemen. Herausgegeben und eingeleitet von Daniel Kampa. Hamburg: Hoffmann und Campe.
- Williams, Michelle 2019: Die schwierige Ehe der Demokratie mit dem Kapitalismus. In: Ketterer, Hanna / Becker, Karina (Hrsg.) 2019: Was stimmt nicht mit der Demokratie? Berlin: Suhrkamp.
- Woodward, Bob 2004: Plan of Attack. New York: Simon & Schuster.
- Woodward, Bob 2020: Rage. New York: Simon & Schuster.
- Worth, Robert F. 2016: A Rage for Order. The Middle East in Turmoil. From Tahrir Square to ISIS. New York: Farrar, Strauss, Giroux.
- Yazbek, Samar 2015: Die gestohlene Revolution. Reise in mein zerstörtes Syrien. Aus dem Arabischen von Larissa Bender. München: Nagel und Kimche.

- Zakharov, Andrey / Issaev, Leonid 2020: Decentralization in Libya after the Arab Spring. In: Middle East Policy, Vol. XXVII, No. 1, Spring 2020.
- Zenko, Micah 2020: The coronavirus is the worst intelligence failure in US history. In: Foreign Policy, 25.3.2020; https://foreignpolicy.com/2020/03/25/coronavirus-worst-intelligence-failure-us-history-covid-19/.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

مقدمة المؤلف للطبعة العربية ٥

تقديم ٩

المهمة ٩

البرنامج ١٤

الجزء الأول: ١١ سبتمبر/أيلول ومقدماته ٢١

أمريكا عدواً ٢٣

الحرب الباردة في الجنوب العالمي ٣٠

الثورة الإسلامية في إيران ٤٠

اغتيال السادات في مصر ٤٥

احتلال الحرم المكي ٤٧

الوهابية والسلفية ٥٠

الحرب السوفيتية في أفغانستان، وانهيار الكتلة الشرقية وبدايات

ابن لادن ٥٦

ابن لادن والصراع من أجل الحداثة ٦٣

هجمات ابن لادن الأولى على الولايات المتحدة الأمريكية ٦٨

رؤية العالم في الولايات المتحدة الأمريكية في التسعينيات ٧١
وضع الأسس في عام ٢٠٠٠ ..... ٧٧
الهجوم ٨٢
الثغرات الأمنية ونظريات المؤامرة والثورة الإعلامية ٨٦
زمن المحافظين الجدد ومشكلة الجبهة الوطنية ٩٤
نقد الولايات المتحدة الأمريكية وتقليص تنوع الآراء ١٠٢
غوانتانمو: بداية المطاردة ١١٤
الجزء الثاني: من طرد طالبان وحتى نهاية حقبة ١١ سبتمبر/أيلول . ١١٩
مقبرة الإمبراطوريات، أولاً: أفغانستان ١٢١
مقبرة الإمبراطوريات، ثانياً: العراق ١٣٣
تجربة أولى في طهران ١٥١
منطق العدو والصديق ١٥٧
تاريخ دون هدف، واحتجاجات فاشلة ١٦٣
الشتاء السابق على الربيع ١٦٦
الثورات العربية ١٧٢
«في الجبهة الغربية» كل شيء يرتعد! ١٧٩
من ليبيا إلى سوريا ١٨٣
ثمن الوقوف متفرجين: الهجرة الجديدة ١٩٧
العنصرية والإرهاب الأبيض ٢٠٥
«الدولة الإسلامية» والرعب الجديد ٢٠٩
محاكاة الحياة العادية ٢٢١

خاتمة: من الحادي عشر من سبتمبر إلى إعادة التشغيل العالمي .. ٢٢٥
أحداث غراوند زيرو ٢٢٧
الوباء الفائت ٢٢٩
مخصر اسمه الحرية ٢٣٤
الحرث في البحر: العمل على التغيير والديمقراطية ٢٤٣
تجربة فكرية كوزمزبوليتية ٢٥١
شكر ٢٥٩
المراجع ٢٦١

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

لقد كتبت هذا الكتاب لأشير إلى أن العالم لا يزال يعاني حتى الآن من عقلية «الحرب على الإرهاب» والسياسة الأمريكية والغربية الكارثية بهذا الخصوص وتأثيراتها. يعرف العرب ذلك، لكن التكتم على ذلك هو أمر مستساغ في أوروبا وأمريكا. لكن عندما يتكتم المرء على الماضي وخصوصاً على أخطائه، لا يمكنه التعلم منها. بل يستمر فيها ويكررها. تبحث عقلية «الحرب على الإرهاب» عن عدو، أو تخلق عدواً، إن لم تجد واحداً. وهذا العدو يعد هو الشر المطلق. إذن لا يمكن التواصل معه لحلول توافقية، أو الإذعان له، ولا أن يكون مرناً، بل يجب أن يفنيه بأي ثمن. لكن يندر أن يكون ذلك ممكناً. ولذا يستمر الصراع للأبد ويتسع نطاقه لدوائر أكثر فأكثر، ولا تعود ثمة حياة عادية من بعد.

الغلاف : سكينة صلوّن
ISBN 978-9933354992
9 789933 354992